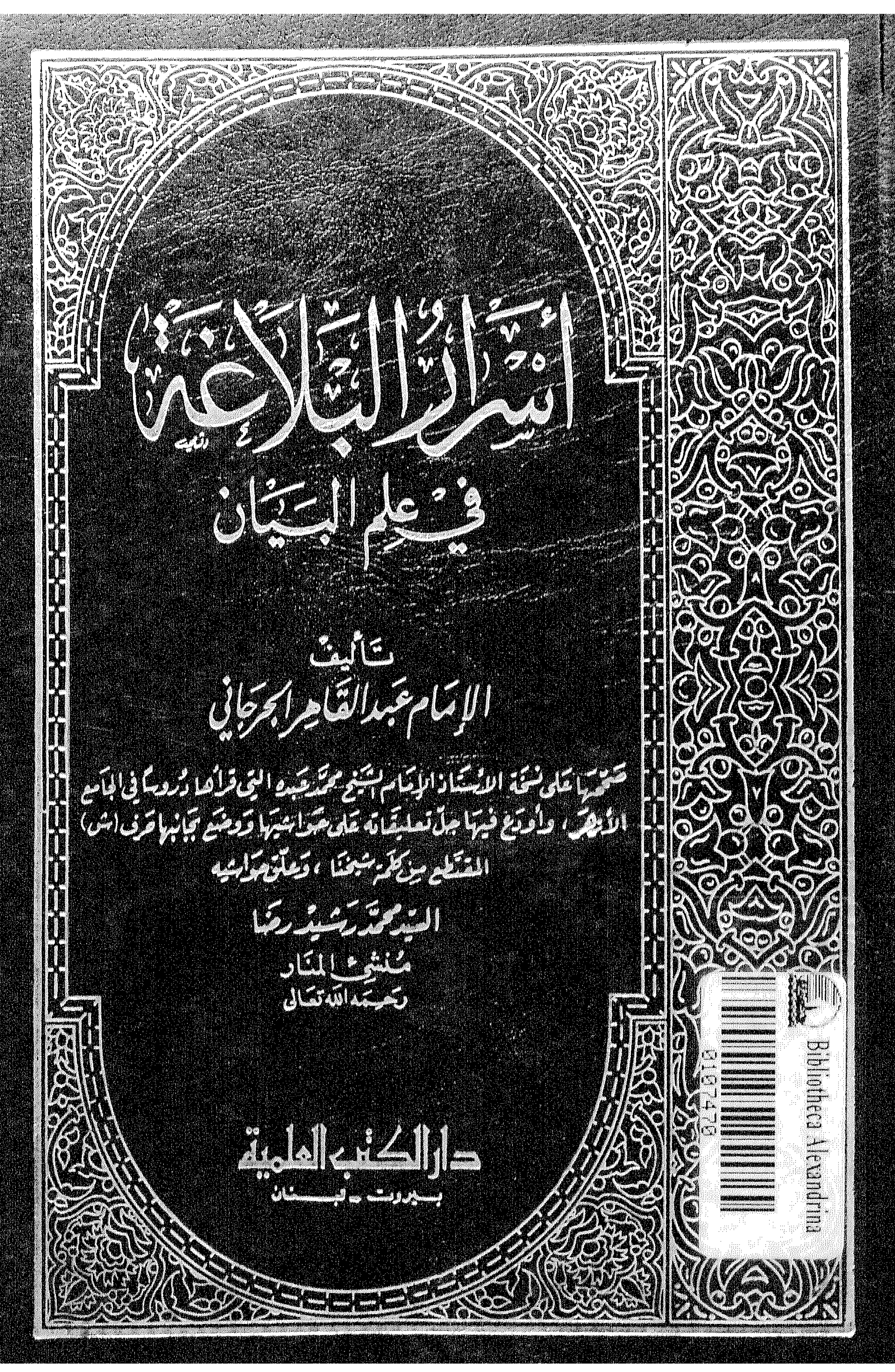

أسرار البلاغة
في علم البيان
تأليف
الإمام عبد القاهر الجرجاني
صححها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها دروساً في الجامع
الأزهر، وأودع فيها جل تعليقاته على حواشيها ووضع بجانبها حرف (ش)
المقتطع من كلمة شيخنا، وعلق حواشيه
السيد محمد رشيد رضا
منشئ المنار
رحمه الله تعالى
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina







أسرار البلاغة

في علم البيان



أسرار البلاغة

في علم البيان

تأليف

الإمام عبد القاهر الجرجاني

صححها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها دروساً في الجامع الأزهر، وأودع فيها جل تعليقاته على حواشيها ووضع بجانبها حرف (ش) المقتطع من كلمة شيخنا، وعلق حواشيه

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

رحمه الله تعالى



دار الكتب العلمية

بيروت — لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان
هاتف: ٣٦٦١٣٥
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان * فله الحمد أن علم ، والشكر على ما أنعم ، ومنه الصلاة والتسليم ، على نبيه الرؤوف الرحيم ، الذى جاء بتوحيد اللغة والدين ، وجعل الكتاب والحكمة فى الأميين ، فكانوا بذلك أئمة وكانوا هم الوارثين .

الإنسان يمتاز بالعلم ، وإنما العلم بالتعلم ، والتعلم باللغة ، واللغات تتفاضل فى حقيقتها وجوهرها بالبيان ، وهو تأدية المعانى التى تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير . وفى صورتها وأجراس كلها بعذوبة النطق ، وسهولة اللفظ والإلقاء ، والخفة على السمع . وإن للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح ، والجواد القارح ، يعرف ذلك من أخذها بحق ، وجرى فيها على عرق ، فكان من مفرداتها على علم ، وضرب فى أساليبها بسهم . ومن آية ذلك لغير العارف ، أن أولئك الشراذم والأوزاع من أهلها قد حملوها إلى الأمم التى كان للغاتها فى العلوم قدم ، ولم يحملوهم عليها بالإلزام ، ولا بالتعليم العام . وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستملت على الفارسية العذبة فى مهدها وموطنها ، وامتد شعاعها إلى الأندلس فى غربى أوربة بعد ما طاف ساحل أفريقيا الشمالى ، وإلى جدار الصين من الشرق — كل ذلك فى زمن قريب لم يعرف فى التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم ، وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب .

كانت لغة أميين وثنيين جاهليين ، فظهر فيها أكمل الأديان ، فكانت له أكمل مظاهر ، وتجلى لها العلم فكانت له خير تجلى . وصارت بذلك لغة الدين والشريعة ، وعلوم العقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عواد كونية ، وطرأت عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوّم من مقومات الأمم الحيـة . ومن تلك المقومات الحقيقية اللغه فقد فسدت ملـكتها فى الألسنة ، والتوى طريق تعليمها فى المدارس ، حتى كادت تـكون من اللغات الدوارس .

ظهر ضعف اللغة فى القرن الخامس ، وكانت فى ريعـان شبابها ، وأوج عزها وشرفها ، وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو ، ومدلول الألفاظ المفردة ، والجمل المركبة ، والانصراف عن معانى الأساليب ، ومغازى التركيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التجوز والـكناية فيه — وهذا ما بعث عزيمة الشيخ عبد القاهر الجرجانى إمام علوم اللغة فى عصره إلى تدوين علم البلاغة ، ووضع قوانين للمعانى والبيان كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ فى الإعراب فوضع هذا الـكتاب فى البيان ، ومن فاتحته يتنسم القارىء أن دولة الألفاظ كانت قد تحكمت فى عصره ، واستبدت على المعانى ، وأنه يحاول بكتابه تأييد المعانى ، ونصرها ، وتعزيز جانبها وشد أسرها .

كتب قبل عبد القاهر فى مسائل من البيان بعض البلغاء كالجاحظ وابن دريد وقدامة الـكاتب ، ولـكنهم لم يبلغوا فيما بنوه أن جعلوه فناً مرفوع القواعد مفتح الأبواب كما فعل عبد القاهر من بعدهم ، فهو واضع علم البلاغة كما صرح به بعض علمائها . وإن لم يذكر له هذه المنقبة المؤرخون الذين رأينا ترجمته فى كتبهم ، حتى ان ابن خلدون الذى تصدى دون القوم للالمام بتاريخ الفنون أهمل ذكره ، وزعم أن الذى هذب الفن بعد أولئك الذين كتبوا فى مسائل متفرقة منه هو السكاكى، وما كان السكاكى إلا عيالا على عبدالقاهر ، تلا تلوه، وأخذ عنه ، مع المخالفة فى شىء من الترتيب والتبويب ولـكنه لم يسلم من التكلف فى بعض

عبارته ، والتعقيد فى بعض منازعه ، فإذا جاز لنا أن نقول : إنه فاق لتأخره بالترتيب المعلوم ، و بما حرره من الحدود والرسوم . فإننا لا ننسى من فضل المتقدم سلامة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وغوصه على أسرار الـكلام ، ووضع دررها فى أبدع نظام .

كان السكاكى وسطاً بين عبد القاهر الذى جمع فى البلاغة بين العلم والعمل وأضرابه من البلغاء العاملين ، و بين المتكلفين من المتأخرين الذين سلكوا بالبيان مسلك العلوم النظرية ، وفسروا اصطلاحاته كما يفسرون المفردات اللغوية ، ثم تنافسوا فى الاختصار والإيجاز ، حتى صارت كتب البيان أشبه بالمعميات والألغاز ، فضاعت حدوده بتلك الحدود ، ودرَست رسومه بهاتيك الرسوم ، وكان من أثر فساد ذوق اللغة اختيار هذه الـكتب التى ملـكت العجمة عليها أمرها ، على الـكتب التى تهديك إلى العلم الصحيح بمعانيها ، وتهدى اليك الذوق السليم بأساليبها ومناحيها ، فـكادت كتب عبد القاهر تمحى وتنسخ ، وصارت حواشى السعد تطبع وتنسخ ، وهذا هو حظ العلم النافع إذا ألقى إلى الأمة فى طور التدلى والضعف ، فمثل عبد القاهر فى أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، كمثل ابن خلدون فى مقدمته والسلطان سليمان العثمانى فى قوانينه .

ربّ غذاء طيب نافع عافته النفس لمرض ألمّ بها حتى إذا نقهت أو أبلّت اشتهته وطلبته . وهذا هو مثلنا أمس واليوم ، فقد كنا متفقين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين كما يختار المريض الغذاء الضار ، فظهر فينا هداة مرشدون يسعون فى إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا . و يدلوننا على العلم الحى الذى تفجر من ينابيع النفوس الحيـة ، لنفرق بينه و بين الرسوم الميتة التى سماها الجهل علما .

ولما هاجرت إلى مصر فى سنة ١٣١٥ لإنشاء (المنار) الإسلامى ألفيت إمام النهضة الإسلامية الحديثة الأستاذ الحـكيم الشيخ محمداً عبده رئيس جمعية إحياء العلوم العربية ومفتى الديار المصرية ، اليومَ مشتغلا فى بعض وقته بتصحيح كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى . وقد استحضر نسخه من المدينة المنورة

ومن بغداد ليقابلها على النسخة التي عنده ، فسألته عن كتاب (أسرار البلاغة) للإمام المذكور فقال : إنه لا يوجد فى هذه الديار . فأخبرته بأن فى أحد بيوت العلم فى طرابلس الشام نسخة منه ، فحثني على استحضارها وطبعها فطلبتها من صديقى الحميم العالم الأديب عبد القادر أفندى المغربى ، وهى مما تركه له والده فابى الطلب . وعلمنا أن نسخة أخرى من الكتاب فى إحدى دور الكتب السلطانية فى دار السلطنة السنية ، فندبنا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابلة نسختنا بتلك النسخة . فخرج لنا من مجموعهما نسخة صحيحة شرعنا فى طبعها ووضعنا فى ذيل المطبوع شرحاً لطيفاً ضبطنا فيه الكلمات الغريبة وفسرنا منها ومن جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير . وأشرنا إلى الخلاف بين النسختين ، فيما يحتمل صحة الاثنتين .

أما كون عبد القاهر هو واضع الفن ومؤسسه . فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام ، أجلهم قدراً ، وأرفعهم ذكراً ، أمير المؤمنين ، محيي علوم اللغة والدين ، السيد يحيى بن حمزة الحسينى صاحب كتاب (الطراز ، فى علوم حقائق الإعجاز) فقد قال فى فاتحة كتابه هذا وهو من أحسن ما كتب فى البلاغة بعد القاهر ما نصه :

« وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكامها ، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها ، فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء ، وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والاجزاء ، وله من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شيء منهما . مع شغفى بحبهما وشدة إعجابى بهما ، إلا ما نقله العلماء فى تعاليقهم منهما » .

وأما مكانة هذا الكتاب و بيان ما يمتاز به على كتب البيان فحسبى فى بيانها عرضه على الأنظار مع التنبيه على مسئلتين نافعتين (إحداهما) أن العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الإدراك كما تؤخذ الصورة الشمسية بالآلة المعروفة فإن كان

المعنى المنتزع من الجزئيات قانوناً كلياً يرشد إليها فهو القاعدة وإن كان صورة تناسبها وتقربها من الفهم فهو المثل . (والثانية) أن القاعدة الكلية هى صورة إجمالية للمعلومات الجزئية والأمثلة والشواهد صور تفصيلية لها . والتعليم النافع إنما يكون بقرن الصور المفصلة بالصورة المجملة ، إذ بالتفصيل تعرف المسائل ، وبالإجمال تحفظ فى العقل . وبهذه الطريقة يجمع بين العلم والعمل الذى يثبت به العلم ، وهى طريقة عبد القاهر فى كتابه هذا وكتاب دلائل الإعجاز ، على أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى كله من آيات البلاغة فهو يعطيك علمها بمعانيه ، وعملها بمبانيه ، وبهذه المميزات يفضل هذا الكتاب جميع ما بين أيدينا من كتب الفن لأنها إنما تقتصر على سرد القواعد والأحكام بعبارات اصطلاحية ، تنكرها بلاغة الأساليب العربية . ولا تذكر من الشواهد والأمثلة إلا القليل النادر ، الذى أدلى به السابق إلى اللاحق والأول إلى الآخر .

لهذا بادر الأستاذ الإمام ، مفتى الديار المصرية فى هذه الأعوام ، إلى تدريس الكتاب فى الأزهر الشريف عقيب شروعنا فى طبعه فأقبل على حضور درسه مع أذكياء الطلاب كثيرون من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأستاذين[1] بعد حضور الدرس الأول « إننا قد اكتشفنا فى هذه الليلة معنى علم البيان » .

وقد ظهر للأستاذ فى غضون التدريس والمطالعة أغلاط فى الكتاب بعضها من الطبع ، وبعضها من تحريف النساخ فى الأصل ، وأغلاط أخرى فى التعليقات فأحصيناها كلها من نسخته ، ووضعنا لها جدولا فى آخر الكتاب إتماماً للفائدة . ومما يجب التنبيه عليه أن بعض تراجم فصول الكتاب هى من وضعنا فإن المصنف رحمه الله تعالى كان يكتفى فى كثير منها بكلمة (فصل) .

---

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدى بك مدرس البلاغة وآداب اللغة العربية فى المدارس العليا : دار العلوم فمدرسة القضاء الشرعى والجامعة المصرية .

ونختم هذه المقدمة بملخص ترجمة المصنف رحمه الله تعالى فنقول :

اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين ولقبوه بالإمام واشتهر بالنحوى من قبل أن يضع علم البلاغة . على أنه كان متكلما وفقيها أيضاً ، قال الحافظ الذهبي فى تاريخه (دول الإسلام) : « وفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة مات إمام النحاة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى صاحب التصانيف » وقال تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى « عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ الكبير أبو بكر الجرجانى النحوى المتكلم على مذهب الأشعرى الفقيه على مذهب الشافعى أخذ النحو بجرجان عن أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى بن أخت الشيخ أبى على الفارسى ، وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين ، والورع والسكون قال السلفى : كان ورعا قانعاً دخل عليه لص وهو فى الصلاة فأخذ ماوجد وعبدالقاهر ينظر ولم يقطع صلاته . (ثم قال السبكى) : ومن مصنفاته كتاب المغنى على شرح الايضاح فى نحو ثلاثين مجلداً وكتاب المقصد فى شرح الإيضاح أيضاً ثلاث مجلدات وكتاب إعجاز القرآن الصغير والعوامل المائة والمفتاح وشرح الفاتحة والعمدة فى التصريف وكتاب الجمل المختصر المشهور » .

وفى كتاب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب نحو من ذلك وزاد فى ذكر المصنفات شرح كتاب الجمل . وذكر أن على بن أبى زيد الفصيحى أخذ عنه . وذكروا له شعراً فمنه ماأورده الصلاح الكتبي فى فوات الوفيات :

لا تأمن النفثة من شاعر ... ما دام حياً سالماً ناطقاً

فإن من يمدحكم كاذباً ... يحسن أن يهجوكم صادقاً

واتفقوا على أنه توفى سنة ٤٧١ قال السبكى « وقيل ٤٧٤ » رحمه الله تعالى .

محمد رشيد رضا

منشىء مجلة (المنار)

تنبيهات لقراء الطبعة الثانية وما بعدها

(١) نفدت نسخ الطبعة الأولى من أسرار البلاغة منذ بضع عشرة سنة بعد أن صارت النسخة من الورق غير الجيد تباع بثلاثين قرشاً صحيحاً وكانت تباع بخمسة عشر ولم نوفق لإعادة طبعه إلا فى هذه الأيام، بعد إلحاح وزارة المعارف بطلبه فى كل عام.

(٢) كنا ذكرنا فى مقدمة الطبع أننا أحصينا ما صححه شيخنا الأستاذ الإمام من الكتاب فى أثناء قراءته له فى الجامع الأزهر، ووضعنا له جدولا فى آخر الكتاب ولكن لم يتم لنا هذا فى الطبعة الأولى كما كنا نؤمل عندما طبعنا المقدمة. فإننا لم نجمع من تلك التصحيحات فى جدول الخطأ والصواب إلا ما كان منها إلى غاية صفحة ١٥٨ وهى أقل من النصف وإنما تم لنا فى هذه الطبعة (الثانية).

إننا زدنا على تصحيحات الأستاذ الإمام فى هذه الطبعة ما علقه على الكتاب من تفسيره لبعض غريبه، أو ما غمض من عباراته، وبعض ما رأينا من الزيادة على ذلك من عندنا، وبذلك زادت صفحات هذه على ما قبلها ٢١ صفحة وفى بعض زياداتنا استدراك فى بعض المواضع على شيخنا رحمه الله تعالى.

(٤) إننا إلى الآن لم نعثر على نسخة مخطوطة من هذا الكتاب فالنسخة التى طبعناها بتصحيح شيخنا لها مع الاستعانة بإمام اللغة وأدبياتها فى هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطى (رحمهما الله تعالى) — هى الأصل الصحيح الوحيد لهذا الكتاب — لهذا لم يتجرأ أحد على طبعه ولو غفلا من التعليق عليه لأنه يحاكم فيحكم عليه

(٥) ينبغى لقارىء هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الإمام عبد القاهر من جعله علوم البلاغه — البيان والمعانى والبديع — من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية — لا مجرد مواضعات واصطلاحات — فإنه يقيم فيها الدلائل ويسوق الحجج على كون البليغ من الكلام باشتماله على التشبيه والتمثيل والمجاز العقلى أو اللغوى من قواعد البيان، أو بمراعاة نكت المعانى فى التنكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك — إنما كان بليغاً بذلك لأمور حقيقية فى عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام فى أنفسهم ولم يسبقه بهذا التحقيق سابق، ولم يلحقه فيه لاحق، ولا يتم الانتفاع بكتابيه إلا لمن يفقه ذلك منهما ويذوقه.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله أجمعين .

اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان ، ونبه فيه على عظم الامتنان ، فقال عز من قائل : (الرحمن علم القرآن * خلق الانسان * علمه البيان) فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ، نعم ، ولوقع الحىّ الحساس فى مرتبة الجماد ، ولكان الإدراك كالذى ينافيه من الاضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، وذم وتهجين ، ثم إن الوصف الخاص به والمـ

المثبت المسبه : أنه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها ، ويقرر كيفياتها التى تتناولها[1] المعرفة إذا سمت إليها .

وإذا كان هذا الوصف مقوّمَ ذاته ، وأخصّ صفاته ، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر ، ومن ههنا يبين للمحصل ، ويتقرر فى نفس المتأمل ، كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة . والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة . ليس بمجرد اللفظ[2] كيف ؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده[3] ونظامه الذى عليه بنى ، وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول فى « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » : « منزل قفا ذكرى من نبك حبيب » أخرجته من كمال البيان ، إلى مجال الهذيان ، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ، ونسب يختص بمتكلم ، وفى ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلم بيت شعر ، أو فصل خطاب ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ، وهذا الحكم — أعنى الاختصاص

---

(١) أصلة تتناولها ، وفى نسخة : تناولتها .

(٢) وفى نسخة : الألفاظ .

(٣) نضد المتاع نضدا بسكون الضاد من باب ضرب ضم بعضه إلى بعض متسقا أو مركوما وقد أجراه فى تركيب الكلام تجوزاً أو النضد بالتحريك والنضيد الشىء المنضود

فى الترتيب — يقع فى الألفاظ مرتباً على المعانى المرتبة فى النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل ، ولن يتصور فى الألفاظ وجوب تقديم وتأخير ، وتخصيص فى ترتيب وتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونه فقيل : من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن حكم ماهاهنا[1] أن يقع هنالك[2] كما قيل فى المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل ، حتى حظر فى جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقاً ، وفى آخر أن يوجد إلا مبنياً على غيره وبه لاحقاً ، كقولنا : إن الاستفهام له صدر الكلام ، وإن الصفة لا تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفية — إلى غيرها من الأحكام ، فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ، أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف[3] وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده .

وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعد نمطاً واحداً ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ، ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً ، أو عامياً سخيفاً : سخفه[4] بإزالته عن موضوع اللغة ، وإخراجه عما فرضته من الحكم ، والصفة ، كقول العامة « أشفات » و « انفسد » وإنما شرطت هذا الشرط فإنه ربما استسخف اللفظ بأمر يرجع إلى المعنى دون مجرد اللفظ ، كما يحكى من قول

---

(١) فى نسخة هنا

(٢) وفى نسخة هناك

(٣) جمع جرس — بكسر الجيم وبفتحها — وهو الصوت ، أو الخفى منه

(٤) السخف — بالضم — مصدر كالسخافة ، وأكثر مايستعمل الأول فى رقة العقل وضعفه . والجملة بيان للعامى السخيف

عبيد الله بن زياد لما دهش « افتحوا لى سيفى » وذلك أن الفتح خلاف الاغلاق ، فحقه أن يتناول شيئاً هو فى حكم المغلق والمسدود ، وليس السيف بمسدود ، وأقصى أحواله أن يكون كونه فى الغمد بمنزلة كون الثوب فى العكم[1] والدرهم فى الكيس والمتاع فى الصندوق . والفتح فى هذا الجنس[2] يتعدى أبداً إلى الوعاء المسدود على الشيء الحاوى له لا إلى ما فيه ، فلا يقال : افتح الثوب ، وإنما يقال : افتح العكم وأخرج الثوب وافتح الكيس .

وههنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة . وقبل إتمام العبرة : أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يناجى فيه العقل والنفس ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنا لك ، منها التجنيس والحشو .

القول فى التجنيس

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون : أمَذهب أم مُذهبٌ

واستحسنت تجنيس القائل « حتى نجا من خوفه وما نجا »[3] وقول المحدث[4]

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعانى أمُت بما أودعانى

---

(١) العكم — بالكسر — كالعدل وزنا ومعنى . والمراد بالعدل هنا الغرارة والجوالق والعكم أيضا نمط تجعل المرأة فيه ذخيرتها

(٢) وفى نسخة المعنى

(٣) نجا الأولى بمعنى أحدث ، والثانية بمعنى خلص

(٤) هو الفتح البستى وقبله :

قيل للقلب : مادهاك ؟ أجبنى   قال لى : بائع الفرانى فرانى

— لأمر[1] يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس — وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة — من حلى الشعر — ومذكوراً فى أقسام البديع .

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيسُ من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به . وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خَدَمُ المعانى والمصرّفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت[2] وأكشف عن الأغراض ، وأنصر للجهه التى تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمد[3] الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة

---

(١) متعلق بقوله : أتراك استضعفت . . واستحسنت .

(٢) التفاوت: التباعد والاختلاف

(٣) التعمد : التصنع

إذا أكثر فيها عن الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى والوشى ، قياس الحلى على السيف الدّدان[1] والتوسع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها[2] وأعضائها فالحسن عنك مغيّب

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس[3] بأصناف الحلى ، حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها . فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، وانتقاصاً له وتعويقاً دونه ، فانظر إلى خطب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا — والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع ، فإنها تروى وتتناقل تناقل الأشعار ، ومحلها محل النسيب والتشبيب[4] من الشعر الذى هو كأنه لا يراد منه

---

(١) فى نسخة : بالسيف ، والددان — بالفتح — الكليل فهو كالكهام وزنا ومعنى ويطلق على ضده وهو القطاع

(٢) الشيات : جمع شية كعدة وعدات ، وهى كل لون فى الشىء يخالف معظم لونه الأصلى ، وهو من الوشى . والكلام فى الخيل وقبله :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لا يجرب

(٣) وفى نسخة : على العروس

(٤) نسب بالمرأة — كنصر وضرب — : وصف محاسنها بالشعر . والنسيب والتشبيب بالنساء واحد

إلا الاحتفال فى الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة[1] والأخبار عن فضل القوة ، والاقتدار على التفنن فى الصنعة . قال فى أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسبا ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الزلة ، وما فى الجهل من القلة » .

فقد ترك أولا أن يوفق بين الشبهة والحيرة فى الإعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئاً يكون رديفاً له ، لأنه رأى التوفيق بين المعانى أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون أخوة من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد — ، أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الوزن ، أولاد علة عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا فى الظواهر ، فأما أن يتعدى ذلك إلى الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ، ففى الأقل النادر .

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لاتبتغى به بدلا ، ولاتجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه : ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أوما هو لحسن ملاءمته — وإن كان مطلوباً — بهذه المنزلة وفى هذه الصورة وذلك كما يمثلون به أبداً من قول

---

(١) الشوط : هو الجرى مرة واحدة إلى غاية

الشافعى رحمه الله تعالى ـ وقد سئل عن النبيذ ـ فقال « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » ومما نجده كذلك قول البحترى :

يعشى عن المجد الغبىُّ ؛ وان ترى   فى سؤدد أربًا لغير أريب

وقوله :

فقد أصبحت أغلب تغليبا   على أيدى العشيرة والقلوب

ومما هو شبيه به قوله :

وهوًى هوى بدموعه فتبادرت   نسقا يطأن تجلداً مغلوبا

وقوله :

ما زلت تقرع باب بابل بالقنا   وتزوره فى غارة شعواء

وقوله :

ذهب الأعالى حيث تذهب مقلة   فيه بناظرها حديد الأسفل(١)

ومثال ما جاء من السجع هذا المجىء ، وجرى هذا المجرى فى لين مقادته ، وحل

---

(١) البيت فى وصف الفرس ، وقبله :

جذلان ينقض عذرة فى غرة   يقق تسيل حجوله فى جندل

كالرائح النشوان أكثر مشيه   عرضاً على السنن البعيد الأطول

العرض ـ بالضم ـ مشى محمود فى الخيل مذموم فى الإبل ، والعذرة : علامة تعلق على ناصية الفرس ، وينقضها : يحل فتلها من نشاطه وخفة حركته . هذا ما كتبته فى حاشية الطبعة الأولى ، ولكن الشنقيطى كتب إلى الأستاذ الإمام أن الرواية الصحيحة ينفض ـ بالفاء ـ فالمناسب إذاً أن يراد بالعذرة شعر الناصية ، وإن كان فيها خلاف فقد قيل : هى شعر الكاهل أو شعرات فى القفا . والنفض : تحريك خاص للشىء يراد به خروج الغبار منه ، شبه كثرة تحريك الفرس لغرته بتحريك رأسه .

هذا المحل من القبول : قول القائل : اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد إلا بفعال[1] ولا فعال إلا بمال . وقول ابن العميد : فإن الابقاء على خدم السلطان عدل الإبقاء على ماله ، والاشفاق على حاشيته وحشمه ، عدل الإشفاق على ديناره ودرهمه .

ولست تجد هـذا الضرب يكثر فى شىء ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء ، كقول خالد : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ، وبهيمة مهملة . وقول الفضل بن عيسى الرّقَاشى : سل الأرض ، فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبى عليه السلام تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت ، وذلك كقول النبى صلى الله عليه وسلم « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله صلوات الله عليه « لا تزال أمتى بخير ما لم تر الغنى مغنما ، والصدقة مغرماً » وقوله : « يا أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه وأبرّ به ، وأهدى إلى مذهبه ، ولذلك أنكر الأعرابى — حين شكا إلى عامل ألمّا بقوله : « حَلّأْت ركابى[2] وشققت ثيابى ، وضربت صحابى . فقال له العامل : ويسجع أيضاً — إنكارَ[3] العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ؟ وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد

---

(١) الفعال بالفتح : الكرم ويؤيده مابعده .

(٢) الركاب ـ بالكسر ـ المطى ، واحدتها راحلة من غير لفظها . وأما الركوبة بالفتح فهى الناقة التى تركب ، كذا فى أصل اللغة ، ثم استعيرت لكل ما يركب . وحلأت الركاب بالتخفيف والتشديد : منعتها ورود الماء .

(٣) إنكار مفعول لا نكر الأعرابى .

من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلاً بمعنى ، أو محدثاً فى الـكلام استكراهاً ؛ أو خارجاً إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه . وقال الجاحظ : لأنه لو قال : حلات إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صِرمتى[١] لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حُلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابى وضربت صحابى .

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول : هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ؛ وعبر به الفرق عليهما[٢] حتى إنه لورام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكرَه ، والسجع النافر .

ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ . فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها[٣] فأما أن تضع فى نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض[٤] الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ، فإن ساعدك الجدُّ كما ساعد فى قوله « أودعانى أمت بما أودعانى » وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

---

(١) الصرمة ـ بالكسر : القطعة من الإبل بين ٣٠ إلى ٤٠ أو ٥٠ أو من ١٠ إلى ٤٠

(٢) الفرق ـ بالفتح : الفصل بين الشيئين ، ومن معانيه بالكسر : الموجة .

(٣) المعارض ـ جمع معرض كمنبر ـ ثوب تجلى فيه الجارية ليلة العرس .

(٤) نظر إليه عن عرض وعرض أى من جانب . والعرض الجانب والناحية اه ش

وقوله :

هنّ الحمام فإن كسرت عيافة[١] من حائهن فإنهن حِمام

فذاك : وإلا أطلقت ألسنة العيب ، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب ، إلى أفحش الإساءه وأكبر الذنب ، ووقعت فيما ترى من ينصرك لا يرى أحسن من أن لا يرويه لك ، ويود لو قدر على نفيه عنك ، وذلك كما تجده لأبي تمام إذا أسلم نفسه للتكلف ، ويرى أنه إن مر على اسم موضع يحتاج إلى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها في شعره ، من دون أن يشتق منه تجنيساً ، أو يعمل فيه بديعاً ، فقد باء بإثم ، وأخل بفرض حتم ، من نحو قوله :

سيف الأنام الذى سمته هيبته لما تخرم أهل الأرض مخترما

إن الخليفة لما صال كنت له خليفة الموت فيمن جار أو ظلما

قرت بقران عين الدين واشتترت[٢] بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وكقول بعض المتأخرين :

البس جلابيب القنا عة ، إنها أوقى رداء

ينجيك من داء الحري ص معاً ومن أوقار داء[٣]

---

(١) عفت الطير ، أعيفها عيافة : زجرتها . وهو أن تعتبر بأسمائها وما يقرب أو يشتق منها أو يحرف إليها ، وبمساقطها وأصواتها . فتتفاءل أو تتشاءم ، والحمام بالكسر — الموت

(٢) الشتر : انقلاب الجفن من أعلى وأسفل و سترخاؤه . وقران — بالضم وتشديد الراء ، والأشتران : مواضع . والجناس فى البيت يسمونه المطلق

(٣) قوله أو قار داء : الاوقار فيه : جمع وقر بالفتح . وهو الحمل الثقيل ، أى أثقال داء . والجناس فى قافية البيتين يسمونه المركب ، وتركيبه من الطرفين

وكقول أبي الفتح البُستي :

جفوا ، فما في طينهم للذي يعصره من بِلة بالله

وقوله :

أخ لي لفظه در وكل فعاله بر
تلقاني ، فحياني بوجه بَشره بِشر[1]

لم يساعدهما حسن التوفيق كما ساعد في نحو قوله :

وكل غنيّ يتيه به غني فمرتجع بموت أو زوال
وهب جدى طوى لي الأرض طراً أليس الموت يزوى ما زوى لي ؟

ونحوه :

منزلتي تحفظ من ذِلتي وباحتي تكرم ديباجتي[2]

واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس ، وجعلتها العلة في استيجابه الفضيلة ، وهي حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذي لا يمكن دفعه إلا في المستوفى المتفق الصورة منه ، كقوله :

ما مات من كرم الزمان ، فإنه يحيا لدى يحيي بن عبد الله

أو المرفوّ الجاري هذا المجرى . كقوله « أودعاني أمت بما أودعاني » فقد[3] يتصور في غير ذلك من أقسامه أيضاً . فمما يظهر ذاك فيه ما كان نحو قول أبي تمام :

---

(١) البشر - بالتحريك — جمع بشرة . وهي ظاهر الجلد وسكن الشين للضرورة

(٢) الباحة بالمهملة : الساحة ، والنخل الكثير ، وقال شيخنا في الجناس : إنه شيء من المصحف المطرف . وأظن أن الباجة : بالجيم ، وهي الطريقة المستوية ، أو كناية عن الضيافة ، من قولهم : اجعل البأجات واحدة ، أي ألوان الطعام ، وهو معرب . وأصله الهمز ويترك وكل من المعنى والجناس فيه أظهر .

(٣) جواب : وإن كانت ؛ أي النكتة لاتظهر الخ .

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب[١]

وقول البحترى :

لئن صدفت عنا فربّتَ أنفسٍ صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة ، كالميم من عواصم ، والباء من قواضب : أنها هى التى مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

فأما ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا[٢] . وذلك أن تختلف الكلمات من أولها . كقول البحترى :

بسيوف إيماضها أوجال للأعادى ، ووقعها آجال

وكذا قول المتأخر[٣] :

وكم سبقت منه إلىّ عوارف ثنائى من تلك العوارف وارف

وكم غُرر من بِره ولطائف لَشكرى[٤] على تلك اللطائف طائف

وذلك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة فى الجملة فانه[٥] لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل[٦] فيه ، وإن كان لا يقوى تلك القوة ، كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك ، مبدلاً

---

(١) الجناس فى كل من المصراعين من المطرف الناقص .

(٢) أى المطرف الناقص .

(٣) ذكر بعضهم : أنه هو المصنف وهو خطأ . وكتبه شيخنا .

(٤) وفى معاهد التنصيص : فشكرى .

(٥) جواب : فاما

(٦) وفى نسخة : التخييل .

من بعض حروفها غيره أو محذوفها منها . ويبقى فى تتبع هذا الموضع كلام حقه غير هذا الفصل . وذلك حيث يوضع .

فصل

فى قسمة التجنيس وتنويعه

فالذى يجب عليه الاعتماد فى هذا الفن : أن التوهم على ضربين ، ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً ، وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولكنه شىء يجرى فى الخاطر . وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التام ، والشيئين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب ، فاعرفه .

***

وأما الحشو فإنما كره وذم ، وأنكر ورد ، لأنه خلا من الفائدة ، ولم يحل[1] منه بعائدة ولو أفاد لم يكن حشواً ، ولم يُدعَ لغواً . وقد تراه مع إطلاق هذا الإسم عليه واقعاً من القبول أحسن موقع ، ومدركا من الرضى أجزل حظ ، ذاك لإفادته إياك على مجيئه مجىء مالا يعول فى الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها ، والنافعة أتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلى ظرفاً يحظى به حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم وبهم .

***

وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن

(١) هو من حلى — كرضى — بمعنى تزين .

والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة ، من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين، تصعيد وتصويب .

أما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجرى فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ؛ وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان .

وأما التطبيق : فأمره أبين ؛ وكونه معنوياً أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ؛ والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثم مجال ، فخذ إليك الآن بيت الفرزدق الذى يضرب به المثل فى تعسف اللفظ :

وما مثله فى الناس إلا مُملَّكا أبو أمه حىٌّ أبوه يقاربه

فانظر ، أتتصور أن يكون ذلك للفظه من حيث أنك أنكرت شيئا من حروفه أو صادفت وحشياً غريباً ، أو سوقياً ضعيفاً ؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ فى الذكر ، على موجب ترتيب المعانى فى الفكر ، فكد وكدر ، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر ، ثم أسرف فى إبطال النظام ، وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ، ولكن بعد أن يراجع فيها باباً من الهندسة ، لفرط ما عادى بين أشكالها ، وشدة ما خالف بين أوضاعها .

وإذا وجدت ذلك أمراً بيناً ، لا يعارضك فيه شك ، ولا يملكك معه امتراء ، فانظر إلى الأشعار التى أثنوا عليها من جهة الألفاظ ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدماثة ، وقالوا : كأنها الماء جرياناً ، والهواء لطفا ،

والرياض حسناً ، وكأنها النسيم ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم ، وكأنها الديباج الخسرواني في مرامي الأبصار ، ووشي اليمن منشوراً على أذرع التجار ، كقوله :

ولما قضينا من مِنًى كل حاجة ومَسَّح بالأركان من هو ماسح
وشُدت على دُهم المهارَى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز فى الرأى ، ثم انظر ، هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها . وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان ، حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ، واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن ، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذى هو كالزيادة فى التحديد ، وشيء[1] داخل المعانى المقصودة مداخلة الطفيلى الذى يستثقل مكانه ، والأجنبى الذى يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت فى نفس المتكلم ، فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ، واعتمد دليل حال غير مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر : أنه قال * ولما قضينا من منى كل حاجة * فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ثم نبه بقوله * ومسح بالأركان من

(١) معطوف على الحشو غير المفيد .

هو ماسح * على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ؛ ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال * أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * فوصل بذكر مسح الأركان ، ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة « الأطراف » على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر ، من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفى حال التوجه إلى المنازل وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطاءة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً . ثم قال « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها ؛ ويبين أمرهما من هواديها وصدورها ، وسائر أجزائها تستند إليها فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا فى أنفسها بأفاعيل لها خاصة فى العنق والرأس . ويدل عليهما بشمائل مخصوصة فى المقاديم . فقل الآن : هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها فلظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الا

وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه ، وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون فى ذلك كالجوهرة التى هى — وإن ازدادت حسناً بمصاحبة أخواتها . واكتست رونقاً بمضامة أترابها — فإنها إذا جليت للعين فردة ؛ وتركت فى الخيط فذة،لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التى فى ذاتها مطوية ، والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها فى القلادة ، واكتنافها لهـا فى عنق الغادة ، وصلتها بريق حمرتها ، والتهاب جوهرها . بأنوار تلك الدور التى تجاورها ، ولألاء اللآلىء التى تناظرها ، تزداد جمالا فى العين ، ولطف موقع من حقيقة الزين . ثم هى إن حرمت صحبة تلك العقائل وفرق الدهر الخئون بينها و بين هاتيك النفائس . لم تعر من بهجتها الأصلية ، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية ،[١] ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ ، و إن كان لا يبعد أن يتخيله من لا ينعم النظر ، ولا يتم التدبر ، بل حق هذا المثل أن يوضع فى نصرة بعض المعانى[٢] الحكمية والتشبيهية بعضاً ، وازدياد الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلا ، وأن يصل الذكر بين متدانيات فى ولادة العقول إياها . ومتجاورات فى تنزيل الأفهام لها .

واعلم أن هذه الفصول التى قدمتها ؛ و إن كانت قضايا لا يكاد يخالف فيها من به طرق[٣] فإنه قد يذكر الأمر المتفق عليه ، ليبنى عليه المختلف فيه ، هذا ، ورب وفاق من موافق قد بقيت عليه زيادات أغفل النظار فيهـا ، وضروب من التلخيص والتهذيب لم يبحث عن أوائلها وثوانيها ؛ وطريقة

(١) كلا ، أو مثل ما ذكرت لك سابقاً اهـ (ش)

(٢) أى فالحسن دائماً راجع إلى المعانى اهـ (ش)

(٣) — الطرق — بالفتح — ضعف العقل . ومن معانيه بالكسر : القوة ، وهو المراد

فى العبارة عن المغزى فى تلك الموافقة لم يمهدها ، ودقيقة فى الكشف عن الحجة على مخالف — لو عرض من المتكلفين — لم يجدها ، حتى تراه يطلق فى عرض كلامه ما برز منه وفاقاً فى معرض خلاف ، ويعطيك إنكاراً وقد هم باعتراف ، ورب صديق والاك قلبه وعاداك فعله ، فتركك مكدوداً لا تشتفى من دائك بعلاج ، وتبقى منه فى سوء مزاج .

المقصـــــد

واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ، والأساس الذى وضعته[1] أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى ، كيف تتفق وتختلف[2] ومن أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصها ومشاعها ، وأبين أحوالها فى كرم منصبها من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها حين تنسب عنه ، وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب ، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه ، وإن من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الابريز الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصناعات ، وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع فى قدره . ومنه ماهو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها — ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقياً معها لم يبطل — قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ،

---

(١) هذا نص من المصنف بأنه هو الواضع لهذا الفن ، وهو ما لم ينكره عليه أحد .

(٢) لو أخر « تتفق » لجاءت السجعة مقفاة ، مع تفترق فيما بعدها . ولكنه راعى المعنى دون اللفظ على قاعدته .

وللرغبة إليها انصباب ، وللنفوس بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق العرض ، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التي كانت فيها زهداً ، وأوسعتها عيون كانت تطمح إليها إعراضاً دونها وصداً ، وصارت كمن أحظاه الجد[1] بغير فضل كان يرجع إليه في نفسه ، وقدمه البخت من غير معنى يقضي بتقدمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبه لغلطته ، فأعاده إلى دقة أصله ، وقلة فضله ، وهذا غرض لا ينال على وجهه ، وطلبة لا تدرك كما ينبغي ، إلا بعد مقدمات تقدم ، وأصول تمهد ، وأشياء ، هي كالأدوات فيه ، حقها أن تجمع ، وضروب من القول ، هي كالمسافات دونه ، يجب أن يسار فيها بالفكر وتقطع .

وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه : القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة . فإن هذه أصول كثيرة كان جل محاسن الكلام — إن لم نقل كلها ، متفرعة عنها ، وراجعة إليها . وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها . وأقطار تحيط بها من جهاتها . ولا مثل قولهم « الفكرة فخ العمل » وقوله * وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله * وقوله « السفر ميزان القوم » وقول الأعرابي « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف قفز الحمام » والتمثيل كقوله * فانك كالليل الذي هو مدركي * ويؤتى بأمثلة إذا حُقق النظر في الأشياء يجمعها الاسم الأعم ، وينفرد كل منها بخاصةٍ من لم يقف عليها[2] كان قصير الهمة في طلب

---

(١) في تاج العروس : أحظيت فلاناً على فلان : فضلته عليه (ش) والجد — بالفتح — الحظ والبخت .

(٢) جملة « من لم يقف عليها » في محل خفض صفة « خاصة » .

الحقائق ، ضعيف المنة[١] فى البحث عن الدقائق ، قليل التوق إلى معرفة اللطائف . يرضى بالجُمْل[٢] والظواهر ، ويرى أن لا يطيل سفر الخاطر ، ولعمرى إن ذلك أروح للنفس ، وأقل للشغل ، إلا أن مِن طلب الراحة : ما يعقب تعباً ، ومن اختيار ما تقل معه الكلفة : ما يفضى إلى أشد الكلفة ، وذلك أن الأمور التى تلتقى عند الجملة وتتباين لدى التفصيل ، وتجتمع فى وحدة ثم يذهب بها التشعب ويقسمها قبيلا بعد قبيل ، إذا لم تعرف حقيقة الحال فى تلاقيها حيث التقت ، وافتراقها حيث افترقت ، كان قياس من يحكم فيها إذا توسط الأمر[٣] قياس من أراد الحكم بين رجلين فى شرفهما وكرم أصلهما ، وذهاب عرقهما فى الفضل ، ليعلم أيهما أقعد فى السؤدد وأحق بالفخر ، وأرسخ فى أرومة المجد[٤] ، وهو لا يعرف من نسبتهما أكثر من ولادة الأب الأعلى والجد الأكبر ، لجواز أن يكون واحد منهما قرشياً أو تميمياً ، فيكون فى العجز عن أن يبرم قضية فى معناها ؛ ويبين فضلا أو نقصاً فى منتهاها ، فى حكم من لا يعلم أكثر من أن كل واحد منهما آدمى ذكر ، أو خلق مصور .

واعلم أن الذى يوجبه ظاهر الأمر ، وما يسبق إليه الفكر : أن نبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز ، ونتبع ذلك القول فى التشبيه والتمثيل ، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ، ونأتى بها فى أثرهما ، وذلك أن المجاز

---

(١) المنة — بالضم — القوة

(٢) الجمل — بالفتح الجمع .

(٣) وسطهم وتوسطهم جلس وسطهم .

(٤) أرومة المجد — أصله (ش) وهو مجاز والأرومة بفتح الهمزة وضمها أصل الشجرة .

أعم من الاستعارة ، والواجب فى قضايا المراتب : أن نبدأ بالعام قبل الخاص . والتشبيه كالأصل فى الاستعارة ، وهى شبيه بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره . إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة و بيان صدر منها ، والتنبيه على طريق الانقسام فيها . حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها ، و يقف على سعة مجالها ، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين ، فوفى حقوقهما ، و بين فروقهما ، ثم ننصرف إلى استقصاء القول فى الاستعارة .

(تعريف الاستعارة)

اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم ، فيكون هناك كالعارية .

(تقسيم الاستعارة)

ثم إنها تنقسم أولا قسمين . أحدهما : أن لا يكون لنقله فائدة . والثانى : أن يكون له فائدة .

وأنا أبدأ بذكر غير المفيد ، فإنه قصير الباع ، قليل الاتساع . ثم أتكلم على المفيد الذى هو المقصود . وموضع هذا الذى لا يفيد نقله ، حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة والتنوق[1] فى

---

(١) التنوق فى الأمر : التأنق فيه ، والاسم منه النيقة . وفى المثل « خرقاء ذات نيقة » يضرب للجاهل بالأمر ومع جهله يدعى المعرفة ويتأنق فى الإرادة

مراعاة دقائق فى الفروق فى المعانى المدلول عليها ، كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للإنسان ، والمشفر للبعير ، والجحفلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت فى غير لغة العرب وربما لم توجد ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها فى غير الجنس الذى وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه ، كقول العجاج « وفاحماً ومَرْسِنًا مُسَرَّجاً » يعنى أنفاً برق كالسراج ، والمرسن فى الأصل للحيوان ، لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن وقال الآخر يصف إبلاً :

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريدها وبين الجحفل[1]

وقال آخر : * والحشو من حَفَّانها كالحنظل[2] * فأجرى الحفان على صغار الإبل ، وهو موضوع لصغار النعام ، وقال آخر :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصفارا[3]

فاستعمل الشفة فى الفرس ، وهى موضوعة للانسان . فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً لو لزمت[4] الأصلى لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه ، وقوله : من جحفلتيه ، لو قاله . إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب . بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة أشبه . وذلك أن الاسم فى هذا النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دل

(١) المسحل ـ كمنبر بالحاء ـ حمار الوحش ، له حشرجة ، يشبهون بها كثيراً ، وهو من سحل سحيلا وسحالا . ومن المجاز : خطيب مسحل ولسان مسحل ، جعل كالمبرد ، كافى الأساس ، والمسحل آلة السحل أى النحت والسحق والقشر والبرد ومنه المبرد.

(٢) الحشو : صغار الإبل ورذال الناس .

(٣) الصفار ـ بالضم ـ القراد ، وما بقى فى أصول أسنان الدابة من تبن ونحوه وهو المراد هنا .

(٤) جملة « لو لزمت » فى محل نصب صفة « شيئاً » .

ذكره على العضو وما هو منه . فإذا قلت الشفة دلت على الإنسان ، أعنى تدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره . فإذا توهمت جرى الاستعارة فى الاسم زالت عنها هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك . فإذا قلت : الشفة فى موضع قد جرى فيه ذكر الإنسان والفرس ، دخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس ، ولو فرضنا أن تعدم هذه الاستعارة من أصلها وتحظر ، لما كان لهذه الشبه طريق على المخاطب فاعرفه .

* * *

وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض ، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه إلا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية ، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية ، ولا يمكن الانفصال[1] منه إلا بفصول جمة وقسمة بعد قسمة ، وأنا أرى أن أقتصر الآن على إشارة تعرّف صورته على الجملة بقدر ما تراه ، وقد قابل خلافه الذى هو غير المفيد . فيتم تصورك للغرض والمراد ، فإن الأشياء تزداد بياناً بالأضداد ، ومثاله قولنا : رأيت أسداً — وأنت تعنى رجلا شجاعاً ، و بحراً — تريد رجلا جواداً ، و بدراً وشمساً — تريد إنساناً مضيء الوجه متهللا ، وسللت سيفاً على العدو — تريد رجلا ماضياً فى نصرتك ، أو رأياً نافذاً ، وما شاكل ذلك . فقد استعرت اسم الأسد للرجل ، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك وهو المبالغة فى وصف المقصود بالشجاعة و إيقاعك منه فى نفس السامع صورة الأسد فى بطشه و إقدامه و بأسه

(١) وفى نسخة : الانتصاف ، بدل الانفصال

وشدته ، وسائر المعانى المركوزة فى طبيعته ، مما يعود إلى الجرأة ، وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته فى الجود وفيض الكف ، وبالشمس والبدر مالهما من الجمال والبهاء والحسن المالىء للعيون والباهر للنواظر .

وإذ قد عرفت المثال فى كون الاستعارة مفيدة على الجملة وتبين لك مخالفة هذا الضرب للضرب الأول الذى هو غير المفيد ، فإنى أذكر بقية قول مما يتعلق به — أعنى بغير المفيد — ثم أعطف على أقسام المفيد وأنواعه وما يتصل به ويدخل فى جملة من فنون القول بتوفيق الله عز وجل ، وأسأله عز اسمه المعونة ، وأبرأ إليه من الحول والقوة ، وأرغب إليه فى أن يجعل كل ما ينصرف فيه منصرفاً إلى ما يتصل برضاه[١] ومصروفاً عما يؤدى إلى سخطه .

اعلم أنه إذا ثبت أن اختصاص المرسن بغير الآدمى لا يفيد أكثر مما يفيده الأنف فى الآدمى ، وهو فصل هذا العضو من غيره ، ولم يكن باستعارته للآدمى مفيداً ما لا يفيد بالأنف ، لم يتصور[٢] أن يكون استعارة من جهة المعنى . وإذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصور أن يكون فى غير لغة العرب ، بلى إن وجد فى لغة الفرس مراعاة نحو هذه الفروق ثم نقلوا الشىء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر كانوا قد سلكوا فى لغتهم مسلك العرب فى لغتها ، وليس كذلك المفيد ، فإن الكثير منه تراه فى عداد ما يشترك فيه أجيال الناس ، ويجرى به العرف فى جميع اللغات فقولك : رأيت أسداً — تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة — أمر يستوى فيه العربى والعجمى ، وتجده فى كل جيل ، وتسمعه

(١) وفى نسخة : إلى ما يرضاه .

(٢) قوله « لم يتصور » جواب « إذا ثبت » .

من كل قبيل ، كما أن قولنا : زيد كالأسد — على التصريح بالتشبيه — كذلك ، فلا يمكن أن يدعى أننا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا إلى طريقة فى المعقولات لا يعرفها غير العرب ، أو لم تتفق لمن سواهم ، لأن ذلك بمنزلة أن تقول : إن تركيب الكلام من الاسمين ، أو من الاسم والفعل يختص بلغة العرب ، وإن الحقائق التى تذكر فى أقسام الخبر ونحوه مما لا نعقله إلا من لغة العرب ؛ وذلك مما لا يخفى فساده .

فإذا ذكر المجاز وأريد أن يعد هذا النحو من الاستعارة فيه فالوجه أن يضاف إلى العقلاء جملة ، ولا تستعمل لفظة توهم أنه من عرف هذه اللغة ، وطرقها الخاصة بها ، كما تقول — مثلا — فيما يختص باللغة العربية من الأحكام ، نحو الإعراب بالحركات والصرف ومنع الصرف ، ووضع المصدر مثلا موضع اسم الفاعل ، نحو رجل صوم وضيف ، وجمع الاسم على ضروب ، نحو جمع السلامة والتكسير وجمع الجمع ، وإعطاء الاسم الواحد فى التكسير عدة أمثلة ، نحو فرخ وأفرخ وفراخ وفروخ ، وكالفرق بين المذكر والمؤنث فى الخطاب ، وجملة الضمائر وما شاكل ذلك ، ولإغفال هذا الموضع ، والتجوز فى العبارة عنه ، دخل الغلط على من جعل الشىء من هذا الباب سرقة وأخذاً ، حتى نعى عليه ، وبين أنه من المعانى العامية والأمور المشتركة التى لا فضل فيها للعربى على العجمى ، ولا اختصاص له بجيل دون جيل على ما ترى القول فيه — إن شاء الله تعالى — فى موضعه ، وهو تعالى ولى المن بالتوفيق له بفضله وجوده .

ولو أن مترجماً ترجم قوله * وإلا النعام وحفانه * ففسر الحفان باللفظ المشترك الذى هو كالأولاد والصغار لأنه لا يجد فى اللغة التى بها يترجم

لفظاً خاصاً ، لكان مصيباً ومؤدياً للكلام كما هو . ولو أنه ترجم قولنا : رأيت أسداً ، يريد رجلا شجاعا ، فذكر ما معناه معنى قولك « شجاعاً شديداً » وترك أن يذكر الاسم الخاص فى تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجماً للكلام بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاماً . وهذا باب من الاعتبار يحتاج إليه ، فحقه أن يحفظ ، وعسى أن يجىء له زيادة بسط فيما يستقبل .

فاعلم أنك قد تجد الشىء يخلط بالضرب الأول الذى هو استعارة من طريق اللفظ ويعد فى قبيله ، وهو — إذا حققت — ناظر إلى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى وجار فى سبيله ، فمن ذلك : قولهم « إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » ، وذلك أنه كلام يصدر عنهم فى مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير وجحفلة الفرس ، وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنت ضبيًّا عرفت قرابتى   ولكنَّ زنجياً غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك : « ولكن زنجياً كأنه جمل لا يعرفنى ولا يهتدى لشرفى » ، وهكذا ينبغى أن يكون القول فى قولهم : « أنشب فيه مخالبه » ؛ لأن المعنى على أن يجعل له فى التعلق بالشىء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته والبازى مع صيده ، وكذا قول الحطيئة .

قرَوْا جارك العيمان لما جفوته   وقلّص عن برد الشراب مشافره[1]

حقه — إذا حققت — أن يكون فى القبيل المعنوى ، وذلك أنه وإن كان عنى نفسه بالجار فقد يجوز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء

(١) العيمان : العطشان إلى اللبن أشد العطش ، وقلص يستعمل لازما ومتعديا

الحال ، ويعطيها صفة من صفات النقص ليزيد بذلك فى التهكم بالزبرقان[١] ويؤكد ما قصده من رميه بإضاعة الضيف واطّراحه وإسلامه للضر والبؤس ، وليس ببعيد من هذه الطريقة من ابتدأ شعراً فى ذم نفسه ولم يرض فى نفسه ، ولم يرض فى وصف وجهه بالتقبيح والتشويه ، إلا بالتصريح الصريح دون الإشارة والتنبيه .

وأما قول مُزَرِّد[٢] :

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر[٣]

فقد قالوا : إنه أراد أن يقول : بساق وقدم ، فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم ، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت ما يدل على قصده أن يحسن القول فى الضيف وتباعده من أن يكون قصد الزراية عليه ، أو يحول[٤] حول الهزء به والاحتقار له وذلك قوله :

فقلت له أهلا وسهلا ومرحباً بهذا المحيّا من محيٍّ وزائر

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضى ، وأن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر : قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره ، وتقاذف نواحى الأرض به ، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره ، واستفراغ مجهوده فى نفسه ، ويؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل :

---

(١) الزبرقان — بكسر الزاى والراء — لقب الحصين بن بدر الصحابى لقب به لجماله ، أو لصفرة عمامته كما فى القاموس ، فالأول لأن الزبرقان اسم للقمر وقيده الليث بالقمر فى الليلة الخامسة عشرة — والثانى من الزبرقة وهى صبغ الثوب بالأحمر أو الأصفر .

(٢) من شعراء الصحابة رضى الله عنهم ، وفى نسخة : لقب أخى الشماخ .

(٣) معنى يمريه : يستخرج ما عنده من الجرى .

(٤) يحول : أى يتحرك .

وأشعث مسترخي العلابي طوحت به الأرض من باد عريض وحاضر[١]
فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر[٢]

وبعده (فما رقد الولدان) فإذا جعله أشعث مسترخي العلابي فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافراً ، ليعطيه من الصلابة وشدة الوقع على جنب البكر حظا وافراً ، وهكذا قول الآخر :

سأمنعها ، وسوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق

هو في حد التشبيه والاستعارة ، لأن المعنى على أن الأظلاف لمن تزري بالملك عن مشابهة ، كأنه قال أجعل أمرها إلى ملك لا إلى عبد جاف ، متشقق الأظلاف . ويدل على ذلك أن أبا بكر بن دريد قال في أول الباب الذي وضعه للاستعارة : « يقولون للرجل إذا عابوه : جاءنا حافيا متشقق الأظلاف » ثم أنشد البيت . فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها في موضع العيب والنقص فلا شك في أنها معنوية وكذا قوله :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا[٣]

فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار في الأصل ، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقيرة . والعادة في مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم ليكون أبلغ في سوء الحالة وشدة الاختلال . ومثله سواء قول الآخر :

---

(١) العلابي : جمع علباء بالكسر ، وهي عصبة صفراء في صفحة العنق وهما علباوان بينهما منبت العرف .

(٢) النشز : المكان المرتفع .

(٣) البيت لأوس بن حجر والهدم بالكسر الثوب البالي أو المرقع . والنواشر جمع ناشرة وهي عصب في الذراع من داخل وخارج وقيل عروق وعصب في باطن الذراع . وتصمت تسكت ولدها بالصمتة وهي بالضم ما يسكت به . والجدع السيء الغذاء

وذكرت أهلى بالعرا ق وحاجة الشعث التوالب

كأنه قال : الشعث التى لو رأيتها حسبتها توالب ، لما بها من الغبرة و بذاذة الهيئة[1] ، والجدع فى البيت بالدال غير معجمة . حكى شيخنا رحمه الله قال : أنشد المفضل * تصمت بالماء تولبا جذعا * بالذال المعجمة : فأنكره الأصمعى وقال : إنما هو : « تصمت بالماء تولبا جدعا » ، وهو السيء الغذاء . قال فجعل المفضل يصيح ، فقال الأصمعى : لو نفخت فى الشبور[2] ما نفعك تكلم بكلام الحكل واصب[3] .

وأما قول الأعرابى : كيف الطلا وامه ؟[4] فمن جنس المفيد أيضا ، لأنه أشار إلى شيء من تشبيه المولود بولد الظبى . ألا تراه قال بعد أن انصرف عن السخط إلى الرضى ، و بعد أن سكن عنه فورة الجوع الذى دعاه إلى أن قال : أصنع به ؟ آ كله أم أشرب به ؟ » حتى قالت المرأة « غرثان فار بكوا له »[5] ، وأما قوله :

---

(١) بذاذة الهيئة : رثاثتها

(٢) الشبور : البوق أو النفير معرب شوفر ، عبرانية

(٣) الحكل — بالضم — مالا يسمع له صوت كالذر وتكلم كلام الحكل أى لايفهم . ومنه سمى سليمان عليه السلام نبى الحكل

الطلا — بالفتح — ولد الظبى ساعة يولد ، أو الولد الصغير من كل شيء

(٥) أصل المثل : أن ابن لسان الحمرة دخل على أهله وهو جائع عطشان فبشروه وأتوه به ، فقال ماأدرى أآكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته « غرثان فاربكوا له » من الربيكة وهو شيء من حساء وأقط . وفى رواية « فابكلوا له » من البكيلة وهى أقط بلت بسمن فلما طعم وشرب قال « كيف الطلا وأمه » فأرسلها مثلا يضرب لمن ذهب همه وتفرغ لغيره . وضبط شيخنا « الحمرة » بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة . قال واسمه عبد الله بن حسين ، أو ورقاء بن الأشعر

إذا أصبح الديك يدعو بعض أسرته   عند الصباح وهم قوم معازيل[1]

فاستعارة القوم — ههنا وإن كانت فى الظاهر لا تفيد أكثر من معنى الجمع — فإنها مفيدة من حيث أراد أن يعطيها شبهاً مما يعقل . على أن هذا — إذا حققنا — فى غير ما نحن فيه وبصدده فى هذا الفصل ، وذلك أنه لم يجتلب الاسم المخصوص بالآدميين ، حتى قدم تنزيلها منزلتهم فقال « هم » فأتى بضمير من يعقل . وإذا كان الأمر كذلك كان القوم جارياً مجرى الحقيقة . ونظيره : أنك تقول : أين الأسود الضارية ؟ وأنت تعنى قوماً من الشجعان ، فيلزم فى الصفة حكم ما لا يعقل فتقول : « الضارية » ولا تقول : « الضارون » البتة ، لأنك وضعت كلامك على أنك كأنك تحدث عن الأسود فى الحقيقة . وعلى هذه الطريقة ينبغى أن يجرى بيت المتنبى :

زحل ـ على أن الكواكب قومه ـ   لو كان منك لكان أكرم معشراً

وإن لم يكن معنا اسم آخر سابق يثبت حكم ما يعقل للكواكب كالضمير فى قوله « هم قوم » وذلك أن ما يفصح به الحال من قصده أن يدعى[2] للكواكب هذه المنزلة يجرى مجرى التصريح بذلك ، ألا ترى أنه لا يتضح وجه المدح فيه إلا بدعوى أحوال الآدميين ومعارفهم للكواكب ، لأنه يفاضل بينه وبينها فى الأوصاف العقلية ، بدلالة قوله « لكان أكرم معشراً » ولن يتحصل ثبوت وصف شريف معقول لها ولا الكرم على الوجه الذى يتعارف فى الناس حتى تجعل كأنها تعقل وتميز . ولو كانت المفاضلة فى النور والبهاء وعلو المحل ومشاكل

---

(١) قوله « معازيل » جمع معزال ، ومن معانيه كما كتب (ش) الراعى المنعزل ، والنازل ناحية من السفر ، أى المنعزل عن جماعة المسافرين ، ومن لارمح معه

(٢) قوله « أن يدعى » فى تأويل مصدر مفعول « قصده » وجملة يجرى هى خبر أن .

ذلك لكان لا يلزم حينئذ ما ذكرت ، وحق القول فى هذا القبيل — أعنى ما يدعى فيه لما لا يعقل العقل — فصل يفرد به ولعله يجىء فى موضعه بمشيئة الله وتوفيقه .

القول فى الاستعارة المفيدة

اعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول ، وهي أمد ميداناً ، وأشد افتناناً[١] وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً ، من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً ، وأملأ بكل ما يملأ صدراً[٢] ويمتع عقلا ، ويؤنس نفساً ، ويوفر أنساً ، وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى وتريك الحلى الحقيقى ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل[٣] يأنس إليها الدين والدنيا ، وشرائف[٤] لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفى جملة جمالها .

ومن الفضيلة الجامعة فيها : أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة

---

(١) افتن افتناناً أخذ فى فنون من القول اهـ (ش)

(٢) أى أملك وأكفل

(٣) هو جمع عقيلة كسفينة ، وهى من النساء الكريمة المخدرة ، ومن القوم سيدهم ، ومن كل شىء أكرمه . وعقيلة البحر : درته .

(٤) وفى نسخة : وفضائل بدل وشرائف .

تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد وفضيلة مرموقة ، وخلابة موموقة ، ومن خصائصها التى تذكر بها ، وهى عنوان مناقبها : أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ؛ حتى تخرج من الصدَفة الواحدة عدة من الدرر ؛ وتجنىَ من الغصن الواحد أنواعا من الثمر . وإذا تأملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام فى حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة ، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها ، وتقصر عن أن تنازعها مداها ؛ وصادفتها نجوماً هى بدرها ، وروضا هى زهرها ، وعرائس ما لم تعرها حليها فهى عواطل ، وكواعب ما لم تحسنها فليس لها فى الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية ، بادية جلية ، وإذا نظرت فى أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها ، إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون ، وهذه إشارات وتلويحات فى بدائعها ، وإنما ينجلى الغرض منها ويبين إذا تكلم على التفاصيل وأفرد كل فن بالتمثيل . وسترى ذلك إن شاء الله ، وإليه الرغبة فى أن نوفق للبلوغ إليه ، والتوفر عليه .

وإذ قد عرفتك أن لها هذا المجال الفسيح ، والشأو البعيد ، فإنى أضع لك فصلا بعد فصل ، وأجتهد بقدر الطاقة فى الكشف والبحث .

فصـــل

وهذا فصل قسمتها فيه قسمة عامية ومعنى العامية : أنك لا تجد فى هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القسمة ، وأنها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف فى طبقات الناس ، وأصناف اللغات ، وما تجد وتسمع أبداً نظيره[1] من عوامهم ، كما تسمع من خواصهم .

أعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلا . فإذا كانت اسماً فإنه يقع مستعاراً على قسمين (أحدهما) أن تنقله عن مسماه الأصلى إلى شىء آخر ثابت معلوم ، فتجريه عليه وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف وذلك قولك : رأيت أسداً ــ وأنت تعنى رجلا شجاعاً ــ ورنت لنا ظبية[2] وأنت تعنى امرأة ، وأبديت نورا ، تعنى[3] هدى وبياناً وحجة ، وماشاكل ذلك . فالاسم فى هذا كله كما تراه متناولا شيئاً معلوماً يمكن أن ينص عليه ، فيقال إنه عُنى بالاسم وكُنى به عنه ، ونقل عن مسماه الأصلى فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه .

(والثانى) أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شىء يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم ، والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلى ونائباً منابه . ومثاله قول لبيد :

وغـداة ريح قد كشفت وقِرّة إذ أصبحت بيد الشّمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً ؛ ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه ، يمكن أن تجرى اليد عليه ، كاجراء الأسد والسيف على الرجل فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، وسللت سيفاً على العدو لا يفل — والظباء على النساء فى قوله « من الظباء الغيد » والنور على الهدى والبيان فى قولك « أبديت

---

(١) كلمة «نظيره» مفعول «تجد وتسمع» والضمير المضاف إليه يعود إلى ماتجد .

(٢) أى نظرت وفى نسخة : وعنت ، بتشديد النون .

(٣) وفى نسخة : وأنت تعنى

نوراً ساطعاً » وكاجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك « أتنازعنى فى يد بها أبطش ، وعين بها أبصر » يريد إنسانا له حكم اليد وفعلها ، وغناؤها ودفعها ، وخاصة العين وفائدتها ، وعزة موقعها ، ولطف موضعها ، لأن معك فى هذا كله ذاتا ينص عليها . وترى مكانها فى النفس ، إذا لم تجد ذكرها فى اللفظ ، وليس لك شىء من ذلك فى بيت لبيد ، بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده ، ومقادته فى كفه . وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم ؛ والتقدير فى النفس ، من غير أن يكون هناك شىء يحس ، وذات تتحصل . ولا سبيل لك إلى أن تقول : كنى باليد عن كذا ، وأراد باليد هذا الشىء ، أو جعل الشىء الفلانى يداً كما تقول : كنى بالأسد عن زيد وعنى به زيداً وجعل زيداً أسداً . وإنما غايتك التى لا مطلع وراءها أن تقول : أراد أن يثبت للشمال فى الغداة تصرفا كتصرف الإنسان فى الشىء بقلبه فاستعار لها اليد حتى يبالغ فى تحقيق التشبيه ، وحكم الزمام فى استعارته للغداة حكم اليد فى استعارتها للشمال ؛ إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه ، ولكنه وفَّى المبالغة شرطها من الطرفين ، فجعل على الغداة زماما يكون أتم فى إثباتها مصرَّفة ، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ فى تصييرها مصرِّفة . ويفصل بين القسمين أنك إذا رجعت فى القسم الأول إلى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد ، وجدته يأتيك عفواً ؛ كقولك فى « رأيت أسداً » رأيت رجلا كالأسد ، ورأيت مثل الأسد أو شبيها بالأسد وإن رمته فى القسم الثانى وجدته لا يواتيك تلك المواتاة إذ لا وجه لأن يقول : « إذ أصبح شىء مثل اليد للشمال » ، أو حصل شبيه باليد للشمال » ، وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه ستراً ، وتعمل تأملا

وفكراً . وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول[١] ، كقولك إذ أصبحت الشمال ولها في قوة تأثيرها في الغداة شبه المالك تصريف الشيء بيده ، وإجراؤه على موافقته ، وجذبه نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته ، وتنحوها إرادته ، فأنت كما ترى تجـد الشبه المنتزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ، ووضعت الاسم المستعار في موضعه الأصلي ، لا يلقاك من المستعار نفسه ، بل مما يضاف إليه . ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشبهة باليد كما جعلت الرجل كالأسد ومشبها بالأسد ؟ ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء . فأنت تجعل في هذا الضرب المستعار له وهو نحو الشمال ذا شيء وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره لا نفس ذلك الشيء فاعرفه .

وهكذا قول زهير : « وعرِّى أفراس الصبا ورواحله » ، لا تستطيع أن تثبت ذواتا أو شبه الذوات تتناولها الأفراس والرواحل في البيت على حد تناول الأسد الرجل الموصوف بالشجاعة ، والبدر الموصوف بالحسن أو البهاء ، والسحاب المذكور بالسخاء والسماحة ، والنور العلم والهدى والبيـان وليس إلا أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل ، وفقد نزاع النفس إليه وبطل ، فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته ، وتطرح أداته ، وكالجهة من جهات المسير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر فتحط عن الخيل التي كانت تركب إليها لبودها وتلقى عن الإبل التي كانت تحمل لها قتودها[٢] ، وقد يجيء وإن كان كالتكلف أن تقول إن الأفراس عبارة

(١) وفي نسخة : الحذو الأول .

(٢) جمع قتد بالتحريك وبالكسر خشب الرحل .

عن دواعى النفوس وشهواتها ، وقواها فى لذاتها ، أو الأسباب التى تفتل فى حبل الصبا ، وتنصر جانب الهوى ، وتلهب أريحية النشاط ، وتحرك مرح الشباب ، كما قال * ونعم مطية الجهل الشباب * وقال * كأن الشباب مطية الجهل * وليس من حقك أن تتكلف هذا فى كل موضع فانه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى وينبو عنه طبع الشعر . وقد يتعاطاه من يخالطه شىء من طباع التعمق فتجد ما يفسد أكثر مما يصلح ، ولو أنك تطلبت للمطية فى بيت الفرزدق :

لعمرى لئن قيدت نفسى لطالما سعيت وأوضعت المطية فى الجهل

مثل هذا التأول تباعدت عن الصواب ، وعدلت عما يسبق إلى القلب ، وذلك أن المعنى على قولك : لطالما سعيت فى الباطل وقديماً كنت فى الإسراع إلى الجهل بصورة من يوضع المطية فى سفره . وهذا الموضع يتجلى تمام التجلى إذا تُكلم على الفرق بين التشبيه والتمثيل وسيأتيك ذلك إن شاء الله تعالى . وكذا قولهم : هو مرخىُّ العنان ومُلقى الزمام . لا وجه لأن تتوقع إلا أن تجرى العنان عليه ويتناوله المعنى على انتزاع الشبه من الفرس فى حال ما يرخى عنانه ؛ وأن ينظر إلى الصورة التى توجد من حاله تلك فى العقل ثم يجاء بها فيعار لها الرجل ، ويتصور بمقتضاها فى النفس ويتمثل . ولو قلت : إن العنان ههنا بمعنى النهى وإن المراد أن النهى قد أبعد عنه ونحو ذلك ، دخلت فى ظاهر من التكلف ، وأتعبت نفسك فى غير جدوى ، وعادت زيادتك نقصاناً ، وطلبك الإحسان إساءة .

واعلم أن إغفال هذا الأصل الذى عرفتك من أن الاستعارة لا تكون على هذا الوجه الثانى كما تكون على الأول مما يدعو إلى مثل هذا التعمق

وأنه نفسه قد يصير سبباً إلى أن يقع قوم فى التشبيه ، وذلك أنهم إذا وضعوا فى أنفسهم أن كل اسم يستعار فلابد أن يكون هناك شىء يمكن الإشارة إليه يتناوله فى حال المجاز كما يتناول مسماه فى حال الحقيقة ، ثم نظروا فى مخرج قوله تعالى (ولتصنع على عينى * واصنع الفلك بأعيننا) فلم يجدوا للفظة العين ما يتناوله على حد تناول النور مثلا للهدى والبيان . ارتبكوا فى الشك وحاموا حول الظاهر ، وحملوا أنفسهم على لزومه حتى يفضى بهم إلى الضلال البعيد ، وارتكاب ما يقدح فى التوحيد ، ونعوذ بالله من الخذلان .

وطريقة أخرى : فى بيان الفرق بين القسمين ، وهو أن الشبه فى القسم الأول الذى هو نحو : رأيت أسداً — تريد رجلا شجاعاً — وصف موجود فى الشىء الذى له استعرت . واليد ليست توصف بالشبه ، ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها ، وهى التصرف على وجه مخصوص وكذا قولك « أفراس الصبا » ليس الشبه الذى استعرت له الأفراس موجوداً فى الأفراس بل هو شبه يحصل لما يضاف إليه الأفراس حيث يراد الحقيقة نحو قولنا « عُرِّىَ أفراس الغزو وأجمعت خيل الجهاد » وذلك ما يوجبه الفعل الواقع على الأفراس نحو إن وقوع الفعل الذى هو عُرِىَ على أفراس الغزو يوجب الإمساك عن الغزو والترك له — وعلى هذا القياس .

وإذا تقرر أمر الاسم فى كون استعارته على هذين القسمين فمن حقنا أن ننظر فى الفعل هل يحتمل هذا الانقسام ؟ والذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شىء كما يتصور فى الاسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشىء فى الزمان الذى تدل صيغته عليه . فإذا قلت ضرب زيد — أثبت الضرب لزيد فى زمان ماض وإذا

كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه .

بيان ذلك أن تقول ؛ نطقت الحال بكذا ؛ وأخبرتنى أسارير وجهه بما فى ضميره ، وكلمتنى عيناه بما يحوى قلبه . فتجد فى الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الإنسان ، وذلك أن الحال تدل على الأمر ويكون فيها أمارات يعرف بها الشىء كما أن النطق كذلك . وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها وفى نظرها وخواص أوصاف يتحدد بها ما فى القلوب من الإنكار والقبول . ألا ترى إلى حديث الجحى ؟

حكى عن بعضهم قال أتيت الجحى أستشيره فى امرأة أردت التزوج بها فقال أقصيرة هى أم غير قصيرة ؟ قال فلم أفهم ذلك ، فقال لى كأنك لم تفهم ما قلت ، إنى لأعرف فى عين الرجل إذا عرف ، وأعرف فيها إذا أنكر ، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر . أما إذا عرف فإنها تخاوص ، وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو ، وإذا أنكر فإنها تجحظ[1] أردت بقولى قصيرة أى هى قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها . قال الشيخ أبو الحسن وهذا من قول النسابة البكرى لرؤبة بن العجاج لما أتاه فقال له من أنت ؟ قال رؤبة بن العجاج . فقال قصرت وعرفت . قال وعلى هذا المعنى قول رؤبة :

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى باسم إذا الأنساب طالت يكفنى

وأمر العين أظهر من أن تحتاج فيه إلى دليل ، ولكن إذا جرى الشىء فى

---

(١) تخاوص أصله تتخاوص مضارع من تخاوص إذا غض من بصره قليلا مع تحديق كمن يقوم سهما ، وتسجو تسكن ، وتجحظ من جحظت العين إذا عظمت مقلتها ونتأت وجاء « جحظ إليه » بالتشديد أى حدد النظر .

الكلام هو دعوى فى الجملة كان الآنس للقارىء أن يقترن به ما هو شاهد فيه فلم يُر شيء أحسن من إيصال دعوى ببرهان .

وإذ كان أمر الفعل فى الاستعارة على هذه الجملة رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتق منه فإذا قلنا فى قولهم « نطقت الحال » إن نطق مستعار فالمعنى أن النطق مستعار وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر كان الكلام فيه على ما مضى .

ومما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذى رفع به ومثاله ما مضى ويكون أخرى استعارة من جهة مفعوله وذلك نحو قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا فى إمام قتل البخل وأحيا السماحا

فقتل وأحيا إنما صارا مستعارين بأن عديا إلى البخل والسماح ولو قال قتل الأعداء وأحيا لم يكن « قتل » استعارة بوجه ولم يكن « أحيا » استعارة على هذا الوجه وكذا قوله :

وأقرى الهمومَ الطارقات حزامة[1]

هو استعارة من جهة المفعولين جميعاً فأما من جهة الفاعل فهو محتمل للحقيقة وذلك أن تقول : أقرى الأضياف النازلين اللحم العبيط[2] ومثله قوله : « قرى الهم إذ ضاف الزماع »[3] وقد يكون الذى يعطيه حكم الاستعارة أحد المفعولين دون الآخر كقوله :

نقريهم لهذميات نقدُّ بها ما كان خاط عليهم كل زرَّاد

---

(١) أقرى للمتكلم من قرى الضيف وحزامة مفعوله وهو مصدر حزم فهو بمعنى الحزم أى أقرى الطارقات حزما .

(٢) العبيط الطرى .

(٣) المعنى أنه إذا نزل به الهم يقريه الشجاعة والمضاء ، لأن هذا هو معنى الزماع

فصل

أعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبداً وقد قلت إن طرقه تختلف ووعدتك الكلام فيه وهذا الفصل يعطى بعض القول فى ذلك بإذن الله تعالى وأنا أريد أن أدرجها من الضعف إلى القوة وأبدأ فى تنزيلها ثم بما يزيد فى الارتفاع لأن التقسيم إذا ارتفع فى خارج من الأصل فالواجب أن يبدأ بما كان أقل خروجاً منه وأدنى مدى فى مفارقته . وإذا كان الأمر كذلك فالذى يستحق بحكم هذه الجملة أن يكون أولا من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص ، والقوة والضعف ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه ومثاله استعارة الطيران لغير ذى الجناح إذا أردت السرعة ، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع فى حركته من علو ، والسباحة له إذا عدا عدواً كان حاله فيه شبيهاً بحالة السابح فى الماء . ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام فى حركتها فأفردوا حركة كل نوع منها باسم . ثم إنهم إذا وجدوا فى الشىء فى بعض الأحوال شبهاً من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس فقالوا فى غير ذى الجناح طار كقوله :

* وطرت بمنصلى فى يعملات[1] *

---

(١) المنصل بوزن القنفذ : السيف وتفتح الصاد . واليعملات : جمع يعملة بالفتح وهى الناقة النجيبة المطبوعة على العمل .

وكما جاء فى الخبر « كلما سمع هيعة طار إليها »[١] وكما قال :

لو يشا طار به ذو ميعــة لاحق الآطال نهد ذو خُصل[٢]

ومن ذلك أن « فاض » موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط ثم إنه استعير للفجر كقوله :

* كالفجر فاض على نجوم الغيهب *

لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته فى فيضه .

فأما استعارة فاض بمعنى الجود فنوع آخر غير ما هو المقصود ههنا لأن القصد الآن إلى المستعار الذى توجد حقيقة معناه من حيث الجنس فى المستعار له وكذلك قول أبى تمام :

وقد نثرتهم روعة ثم أحـدقوا به مثلما ألَّفت عقـداً منظماً

وقول المتنبى :

نثرتهم فوق الأحيـدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم

استعارة لأن النثر فى الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لها هيئـة مخصوصـة فى التفرق لا تأتى فى الأجسام الكبار ، ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة ، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق فى الحرب تساقطُ المنهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون

---

(١) ولفظ الحديث « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » والهيعة : الصوت تفزع منه وتخافه من عدو اه (ش) .

(٢) البيت لامرأة من بنى الحارث والميعة : أول جرى الفرس وأنشطه والآطال جمع إطل بكسر فسكون وبكسرتين وهى الخاصرة ، والمراد ضامر الجنبين والنهد بالفتح الفرس العظيم المشرف وخصل الشعر معروفة

فى الشىء المنثور عبر عنه بالنثر ، ونسب ذلك إلى الممدوح إذ كان هو سبب ذلك الانتشار . فالتفرق الذى هو حقيقة النثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود فى المستعار له بلا شبهة : ويبينه أن النظم فى الأصل لجمع الجواهر وما كان مثلها فى السلوك ثم لما حصل فى الشخصين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع فى الطعن فى رمح واحد ذلك الضرب[1] من الجمع عبر عنه بالنظم كقولهم « انتظمهما برمحه » وكقوله :

* قالوا أينظم فارسين بطعنة *

وكان ذلك استعارة لأن اللفظة وقعت فى الأصل لما يجمع فى السلوك من الحبوب والأجسام الصغار إذ كانت تلك الهيئة فى الجمع تخصها فى الغالب ، وكان حصولها فى أشخاص الرجال من النادر الذى لا يكاد يقع وإلا فلو فرضنا أن يكثر وجوده فى الأشخاص الكبيرة لكان لفظ النظم أصلا وحقيقة فيها ، كما يكون حقيقة فى نحو الحبوب ، وهذا النحو لشدة الشبه فيه يكاد يلحق بالحقيقة ومن هذا الحد قوله :

وفى يدك السيف الذى امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقا

وذلك أن أصل الخرق أن يكون فى الثوب وهو فى الصفاة استعارة لأنه لما قال « ترق » قربت حالها من حال الثوب ، وعلى ذلك فإنا نعلم أن الشق والصدع حقيقة فى الصفاة ، ونعلم أن الخرق يجامعها فى الجنس لأن الكل تفريق وقطع ولو لم يكن الخرق والشق واحداً لما قلت : شققت الثوب ، والشق عيب فى الثوب « وتشقق الثوب » قول من لا يستعير ولكن لو قلت « خرق الحشمة » لم يكن من الحقيقة فى شىء ، وكان خارجاً من هذا الفن الذى

---

(١) قوله ذلك الضرب مفعول مطلق لقوله يجمعهما الحاذق مبين للنوع « ش »

نحن فيه لأنه ليس هناك شق . ولو جاء شق الحشمة أو صدع مثلا كان كذلك أعنى لا يكون له أصل فى الحقيقة ولا شبه بها

ومن هذا الضرب قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) يعد استعارة من حيث إن التمزيق للثوب فى أصل اللغة إلا أنه على ذلك راجع إلى الحقيقة من حيث إنه تفريق على كل حال ، ولبس يحسن غيره إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق كما خصوه بالخرق ، و إلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه من بعض . ومثله أن القطع إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التى تلتزق أجزاؤها . و إذا جاء فى تفريق الجماعة و إبعاد بعضهم من بعض كقوله تعالى : (وقطعناهم فى الأرض أمما) كان شبه الاستعارة و إن كان المعنى فى الموضعين على إزالة الاجتماع ونفيه فإن قلت « قطع عليه كلامه » أو قلت « تقطع الوقت » بكذا كان نوعاً آخر .

ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم « أثرى فلان من المجد وأفلس من المروءة » وكقوله :

إن كان أغناها السلو فإننى أمسيت من كبدى ومنها معدما

وذلك أن حقيقة الإثراء من الشيء كثرته عندك ووصف الرجل بأنه كثير المجد أو قليل المروءة ، كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفة فى كونه حقيقة . وكذلك إذا قلت أثرى من الشوق أو الوجد أو الحزن كما قال :

وفى الركاب حريب من الغرام ومثرى [1]

فهو كقولك : كثر شوقه وحزنه وغرامه و إذا كان كذلك فهو فى أنه نقل إلى شيء جنسه جنس الذى هو حقيقة فيه بمنزلة « طار » أو « طر »

---

(١) الحريب : المحروب أى مسلوب المال يقال حربه ماله أى سلبه إياه وتركه بلا شيء .

أمراً منه . وكذا معنى أعدم من المال أنه خلا منه وأن المال يزول عنه ، فإذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه فهو فى حقيقة من ذهب ماله وعدمه ، والعدم[1] فى المال وفى غير المال بمنزلة واحدة لا تتغير له فائدة ، والمعدم موضوع لمن عدم ما يحتاج إليه ، فالكبد مما يحتاج إليه ، وكذلك المحبوبة فإنما تقع هذه العبارة فى نفسك موقع الغريب من حيث إن العرف جرى فى الإعدام[2] بأن يطلق على من عدم ما جنسه جنس المال . ويؤنسك بما قلت انك لو قلت : عدم كبده — لم يكن مجازاً ، ولم تجد بينه و بين : خلا من كبده وزالت عنه كبده ، كبير فرق . ألا تراك تقول الفرس عادم للطحال ، تريد ليس له طحال . وهذا كلام لا استعارة فيه ، كما أنك لو قلت : الطحال معدوم فى الفرس — كان كذلك .

ومن اللائق بهذا الباب البين أمره ما أنشده أبو العباس فى الكامل من قول الشاعر :

لم تلق قوماً هُمُ شر لإخوتهم   منا عشية يجرى بالدم الوادى
نَقريهمُ لهذَميات نقـد بها   ما كان خاط عليهم كل زرّاد[3]

قال لأن الخياطة تضم خرق القميص والزراد يضم حلق[4] الدرع أفلا تراه بين أن جنسهما واحد ، وأن كلا منهما ضمٌ ووصل ، وإنما يقع الفرق

---

(١) العدم بالضم وبضمتين وبالتحريك : الفقدان للشىء وغاب على فقدان المال « ش » .

(٢) الاعدام مصدر أعدم وهو لازم كقولك : أعدم فلان بمعنى افتقر وهو المراد ومتعد لمفعول واحد كأعدمه الشىء إذا لم يجده وإلى مفعولين كأعدمه إياه أى أفقده إياه .

(٣) اللهذميات : جمع لهذم كجعفر وهو السنان القاطع .

(٤) الحلق : بكسر ففتح وبفتحتين جمع حلقة فهى كقصعة وقصع وخشبة وخشب .

من حيث إن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم والزرد ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينها إلا أن الشكاك[1] الذى يلزم أحد طرفى الحلقة الآخر بدخوله فى ثقبتيهما فى صورة الخيط الذى يذهب فى منافذ الإبرة[2] واستقصاء القول فى هذا الضرب والبحث عن أسراره لا يمكن إلا بعد أن تقرر الضروب المخالفة له من الاستعارة فاقتصر منه على القدر المذكور وأعود إلى القسمة .

« ضرب ثان » يشبه هذا الضرب الذى مضى و إن لم يكن إياه وذلك أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك « رأيت شمساً » تريد إنساناً يتهلل وجهه كالشمس فهذا له شبه باستعارة « طار » لغير ذى الجناح وذلك أن الشبه مراعى فى التلألؤ وهو كما يعلم موجود فى نفس الإنسان المتهلل ؛ لأن رونق الوجه الحسن من حس[3] البصر مجانس لضوء الأجسام النيرة . وكذلك إذا قلت « رأيت أسداً » تريد رجلا ، فالوصف الجامع بينهما هو الشجاعة وهى على حقيقتها موجودة فى الإنسان و إنما يقع الفرق بينه و بين السبع الذى استعرت اسمه له فيها من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان ، ور بما ادعى لبعض الكماة والبهم[4] مساواة الأسد فى

---

(١) الشكاك ككتاب : البيوت أو الخيام المصطفة ولكنه هنا مابه الشك ونظم أشياء متعددة فى نظام واحد .

(٢) الحلقات غير مفرغة فالذى يجمع بين طر فى كل حلقه هو الشكاك : يذهب هكذا فى الحلقات يجمع طر فى كل واحدة اهـ « ش » .

(٣) وفى نسخة « فى حس » .

(٤) الكماة جمع كمى على غير قياس وقيل جمع كام وجملوه لكمى لأن فاعلا وفعيلا يشتركان كثيرا كعالم وعليم والكمى الشجاع أولابس السلاح وهو الذى يشهد له =

حقيقة الشجاعة التى عمود صورتها انتفاء المخافة عن القلب حتى لا تخامره ، وتفرق خواطره ، وتحال عزيمته فى الأقدام على الذى يباطشه ويريد قهره ورب‍ما كف الشجاع عن الإقدام على العدو لا لخوف يملك قلبه ويسلبه قواه ولكن كما يكف المنهى عن الفعل لا تخونه فى تعاطيه قوة . وذلك أنه العاقل من حيث الشرع منهى عن أن يهلك نفسه ألا ترى أن البطل الكمى إذا عدم سلاحًا يقاتل به[1] فلم ينهض إلى العدو كان فاقداً شجاعته وبأسه ومتبرئًا من النجدة التى يعرف بها .

ثم إن الفرق بين هذا الضرب وبين الأول أن الاشتراك ههنا فى صفة توجد فى جنسين مختلفين مثل أن جنس الإنسان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الأسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فإنهما جنس واحد بلا شبه ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة . وحقيقة السرعة قلة تخلل السكون للحركات وذلك لا يوجب اختلافًا فى الجنس[2] (فإن قلت) : فإذن لا فرق بين استعارة « طار » للفرس

= الاشتقاق لأن كمى الشىء وكماه بالتشديد بمعنى ستره والكمى يستر نفسه بالدرع والبيضة ، والبهم بضم ففتح جمع بهمة (كغرفة وغرف) وهو الشجاع الذى يستبهم على أقرانه مأتاه .

(١) المقابلة الدفاع أى يقابل به العدو ويلقاه عندما يعتدى عليه ، وفرق بين الهجوم والدفاع فترك الهجوم لعدم السلاح لا ينافى الشجاعة كترك الدفاع والمقابلة

(٢) تقدم أن من ذلك النوع المستعار لحركة الفرس مستعاراً من انقضاض الكواكب والظاهر أن الجنس مختلف هنا والجواب أن الكلام فى اختلاف المستعار والمستعار له من حيث وجه الشبه فاختلاف الجنس واقع فى وجه الشبه أيضاً فإن تلألؤ الشمس غير تلألؤ الوجه فى الجنس وشجاعة الأسد ليست مثل شجاعة الإنسان فإن شجاعة الإنسان يدخل فيها العقل بخلاف شجاعة الأسد وأما الحركات التى ذكرها =

و بين استعارة الشفة للفرس فهلا عددت هذا فى القسم اللفظى غير المفيد ؟ ثم إنك إن اعتذرت بأن فى « طار » خصوص وصف ليس فى « عدا » و « جرى » فكذلك فى الشفة خصوص وصف ليس فى الجحفلة . (فالجواب) أنى لم أعده فى ذلك القسم لأجل أن خصوص الوصف الكائن فى « طار » يراعى فى استعارته للفرس ، ألا تراك لا تقوله فى كل حال بل فى حال مخصوصة ؟ وكذا السباحة لأنك لا تستعيرها للفرس فى كل أحوال جريه ، نعم وتأبى أن تعطيها كل فرس ، فالقطوف[1] البليد لا يوصف بأنه سابح . وأما استعارة اسم لعضو نحو الشفة والأنف فلم يراع فيه خصوص الوصف ، ألا ترى أن العجاج لم يرد بقوله « ومرسنا مسرجا » أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان لأن هذا العضو من غير الإنسان لا يوصف بالحسن كما يكون ذلك فى العين والجيد . وهكذا استعارة الفرسن للشاة فى قول عائشة رضى الله عنها : « ولو فرسن شاة »[2] وهو للبعير فى الأصل ليس

= فإنها جنس واحد والخلاف فى عرض وهو السرعة والجواب الأفضل أن الضرب الأول يكون فيه المستعار له على قرب من الشبه فى مفهوم المستعار منه لولا غلبة التفرق بالتخصيص وأما فى الضرب الثانى فذلك القرب فى وجه الشبه أتم فشجاعة البطل تدخل فى حد شجاعة الأسد لكن المستعار له لا يمكن أن يدخل فى جنس المستعار منه على وجه الحقيقة بحال ، فلا يدخل الرجل فى الأسد ولا فى الشمس الخ هذا الذى يظهر من عبارة المصنف اهـ (ش) .

(١) القطوف : سيء السير بطيئه .

(٢) الحديث « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو فرسن شاة » والفرسن بكسر الفاء والسين وهو خف البعير ويستعار لظلف الشاة كما فى الحديث . وكتب شيخنا فى حاشية نسخة الدرس : وفى الفراسن السلامى (بالضم) وهى عظام الفرسن وقصبها ثم الرسغ فوق ذلك ثم الوظيف ثم فوق الوظيف من يد البعير الذراع ثم فوق الذراع العضد ثم فوق العضد الكتف . وفى رجله بعد الفرسن الرسغ ثم الوظيف ثم الساق ثم الفخذ ثم الورك اهـ .

لأن يشبه هذا العضو من الشاة به من البعير كيف ولا شبه هناك وليس إذن فى مجىء الفرسن بدل الظلف أمر أكثر من العضو نفسه

* * *

« ضرب ثالث » وهو الصميم الخالص من الاستعارة . وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب كما جاء فى التنزيل من نحو قوله عز وجل (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وكاستعارة الصراط للدين فى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم * و إنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأنت لاتشك فىأنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجرى الفرس من الاشتراك فى عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الرجل والأسد من الاشتراك فى طبيعة معلومة تكون فى الحيوان كالشجاعة ، فليس الشبه الحاصل من النور فى البيان والحجة ونحوهما إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار فى حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، وجال فى معارفه[1] وانتشر ، وانبث فى المسافة

---

(١) معارف الإنسان مايعرف به ويتميز به من غيره فى شكل وجهه . وكتب شيخنا فى نسخة الدرس هنا مانصه :

المعارف من الضياء مايظهر فيه وأصلها مايظهر من المرأة والوجوه والمعروفون (كذا) من الناس وقد يعود الضمير فى معارفه على البصر أى جال فى الأشياء التى يعرفها البصر ، ويفسره قوله : وانبث فى المسافة الخ أو معارف البصر مايعرف منه كالمقلة اهـ

التى يسافر طرف الإنسان فيها وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل فى الخلقة ، وإنما هو صورة عقلية .

واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال فى تفننها وتصرفها ، وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب ، ولها ههنا أساليب كثيرة ، ومسالك دقيقة مختلفة . والقول الذى يجرى مجرى القانون والقسمة يغمض فيها إلا أن ما يجب أن تعلم فى معنى التقسيم لها أنها على أصول :

(أحدها) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجلة المعانى المعقولة (والثانى) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلى (والأصل الثالث) أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول . فمثال ما يجرى على الأصل الأول ما ذكرت لك من استعارة النور للبيان والحجة ، فهذا شبه أخذ من محسوس لمعقول . ألا ترى أن النور مشاهد محسوس بالبصر والبيان والحجة مما يؤديه إليك العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواس ، وذلك[1] أن الشبه ينصرف إلى المفهوم من الحروف والأصوات ، ومدلول الألفاظ هو الذى ينور القلب لا الألفاظ . هذا والنور يستعار للعلم نفسه أيضاً والإيمان ،

---

(١) قوله وذلك الخ دفع لما يقال : أن الحجة كلام والكلام أصوات محسوسة فالاستعارة فى محسوس لمحسوس (ش)

وكذلك حكم الظلمة إذا استعيرت للشبهة والجهل والكفر ، لأنه لا شبهة في أن الشبهة والشكوك من المعقول . ووجه التشبيه أن القلب يحصل بالشبهة والجهل فى صفة البصر إذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفاً[1] وإن استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبهما كمن يسعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دفع إلى هلاك وتردى فى أهوية[2] ومن ذلك استعارة القسطاس للعدل ونحو ذلك من المعانى المعقولة التى تعطى غيرها صفة الاستقامة والسداد كما استعاره الجاحظ فى فصل يذكر فيه علم الكلام فقال : « وهو العيار على كل صناعة ، والزمام على كل عبارة ، والقسطاس الذى به يستبان نقصان كل شيء ورجحانه ، والراووق الذى به يعرف صفاء كل شيء وكدره ، » وهكذا إذا قيل فى النحو إنه ميزان الكلام ومعياره فهو أخذ شبه من شيء هو جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل . ولا يدخل فى الحاسة وذلك أظهر وأبين من أن يحتاج فيه إلى فضل بيان . وأما تفننه وسعته وتصرفه من مرضى ومسخوط ومقبول ومرذول فحق الكلام فيه بعد أن يقع الفراغ من تقرير الأصول .

ومثال الأصل الثانى وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلى قول النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن »[3] الشبه مأخوذ للمرأة

---

(١) يعنى أن العقل يصير بسبب الشبهة والجهل المانعين من إدراك الحقائق العلمية كالبصر إذا اشتدت على صاحبه ظلمة الليل فلم يدر أين يذهب .

(٢) فى نسخة وقع بدل دفع والهلك بالضم اسم مصدر ، وهلك من باب ضرب هلاكا والأهوية بضم الهمزة وتشديد الياء : الوهدة العميقة .

(٣) تتمة الحديث : قيل وما ذاك ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » شبه المرأة بما ينبت فى الدمن من الكلأ يكون له غضارة وهو وبيء المرعى منتن الأصل قال زفر بن الحارث : =

من النبات كما لا يخفى وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك ولا ما يسمى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين فى العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن[1] بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ولا شيء من هذا الباب بل القصد شبه عقلى بين المرأة الحسناء فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل كما أنهم إذا قالوا :

هو عسل إذا ياسرته وإن عاسرته فهو صاب

كما قال : عسل الأخلاق ماياسرته فإذا عاسرت ذقت السلعا[2]

فالتشبيه عقلى ، إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى أنك تجد منه فى حالة الرضى والموافقة ما يملؤك سروراً وبهجة حسب ما يجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك فى حالة السخط والإباء ما يشدد كراهتك ويكسبك كرباً ويجعلك فى حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى .

ومن هذا الأصل استعارة الشمس للرجل تصفه بالنباهة والرفعة والشرف والشهرة ، وما شاكل ذلك من الأوصاف العقلية المحضة التى لا تلابسها إلا بغريزة العقل ، ولا تعلقها إلا بنظر القلب

ويظهر من ههنا أصل آخر . وهو أن اللفظة الواحدة تستعار على

= وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا
والدمنة الموضع الذى فيه السرقين (الزبل) وكذلك هو مااختلط من الماء والطين عند الحوض (ش) .

(١) سخن الماء وغيره مثلث الخاء أى جاء من جميع الأبواب .

(٢) السلع بالتحريك : شجر مر ويقال إنه ضرب من الصبر .

طريقين مختلفين ، ويذهب بها فى القياس والتشبيه مذهبين ، أحدهما يفضى إلى ما تناله العيون ، والآخر يومىء إلى ما تمثله الظنون ، ومثال ذلك قولك : « نجوم الهدى » تعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم ، فإنه استعارة توجب شبهاً عقلياً . لأن المعنى أن الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتدوا بهم فى الدين كما يهتدى السارون بالنجوم وهذا الشبه باق لهم إلى يوم القيامة فبالرجوع إلى علومهم وآثارهم وفعالهم وهديهم تنال النجاة من الضلالة ، ومن لم يطلب الهدى من جهتهم فقد حرم الهدى ووقع فى الضلال ؛ كما أن من لم ينظر إلى النجوم فى ظلام الليل ولم يتلق دلالتها على المسالك التى تفضى إلى العمارة ومعادن السلامة وخالفها وقع فى غير الطريق . وصار بتركه الاهتداء بها إلى الضلال البعيد ، والهلاك المبيد ، فالقياس على النجوم فى هذا ليس على حد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران فى الأماكن المتفرقة ، لأن الشبه هناك من حيث الحس والمشاهدة ، لأن القصد إلى نفس الضوء واللمعان والشبه ههنا من حيث العقل ، لأن القصد إلى مقتضى ضوء النجوم وحكمه وعائدته ثم ما فيها من الدلالة على المنهاج ، والأمن من الزيغ عنه والاعوجاج والوصول بهذه الجملة منها إلى دار القرار ومحل الكرامة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك ، ويديم توفيقنا للزوم ذلك الاهتداء ، والتصرف فى هذا الضياء ، إنه عز وجل ولى ذلك والقادر عليه .

ومما لا يكون الشبه فيه إلا عقلياً . قولنا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملح الأنام » وهو مأخوذ من قوله عليه السلام : « مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام . لا يصلح الطعام إلا بالملح » قالوا فكان

الحسن رحمة الله عليه . يقول : فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع ؟ فأنت تعلم أن لا وجه ههنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية . وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة و بين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً . وينطوى هذا التشبيه على وجوب موالاة الصحابة رضى الله عنهم ، وأن تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح ، كما يمزج الملح بالطعام ، فباتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه ، وتذهب عنه وخامته ، ويصير نافعاً مغذياً . كذلك بمحبة الصحابة رضى الله عنهم تصلح الاعتقادات ، وتنتفى عنها الأوصاف المذمومة ، وتطيب وتغذو القلوب ، وتنمى حياتها . وتحفظ صحتها وسلامتها . وتقيها الزيغ والضلال ، والشك والشبهة والحيرة . وأما حكمه فى حال القلب[1] من حيث العقل فحكم الفساد الذى يعرض لمزاج البدن من أكل الطعام الذى لم يصلح بالملح ، ولم تنتف عنه المضار التى من شأن الملح أن يزيلها . وعلى ذلك جاء فى صفتهم أن حبهم إيمان و بغضهم نفاق . هذا ولا معنى لصلاح الرجل بالرجل إلا صلاح نيته واعتقاده ، ومحال أن تصلح نيتك واعتقادك بصاحبك وأنت لا تراه معدن الخير ومعانه[2] . وموضع الرشد ومكانه ، ومن علمته كذلك مازجتك محبته لا محالة وسيط وده بلحمك ودمك[3] وهل تحصل من المحبة إلا على الطاعة والموافقة فى الإرادة والاعتقاد . وقياسه قياس الممازجة بين الأجسام . ألا تراك تقول

---

(١) القلب هنا مصدر قلب أى العكس وهو عدم المحبة بدل المحبة .

(٢) المعان : المباءة والمنزل .

(٣) سيط ماض مبنى للمفعول من ساط بمعنى خلط وينسب لعلى كرم الله وجهه من أبيات

وبنت محمد سكنى وعرسى مسوط لحمها بدمى ولحمى

فلان قريب من قلبي تريد الوفاق والمحبة . وعلى هذه الطريقة جرى تمثيلهم النحو بالملح في قولهم : « النحو في الكلام ، كالملح في الطعام » إذ المعنى أن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص كما لا يجدى الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهي التغذية ما لم يصلح بالملح .

فأما ما يتخيلونه من أن معنى ذلك أن القليل من النحو يغنى وأن الكثير منه يفسد الكلام كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه فتحريف وقول بما لا يتحصل على البحث . وذلك أنه لا تتصور الزيادة والنقصان في جريان أحكام النحو في الكلام . ألا ترى أنه إذا كان من حكمه في قولنا « كان زيد ذاهباً » أن يرفع الإسم وينصب الخبر لم يخل هذا الحكم من أن يوجد أو لا يوجد فإن وجد فقد حصل النحو في الكلام وعدل مزاجه به ونفى عنه الفساد وأن يكون كالطعام الذى لا يغذو البدن[1] وإن لم يوجد فيه فهو فاسد كائن بمنزلة طعام لم يصلح بالملح فسامعه لا ينتفع به بل يستضر ، لوقوعه في عمياء وهجوم الوحشة عليه كما يوجبه الكلام الفاسد العارى من الفائدة . وليس بين هاتين المنزلتين واسطة يكون استعمال النحو فيها مذموماً ، وهكذا القول في كل كلام وذلك أن إصلاح الكلام الأول بإجرائه على حكم النحو لا يغنى عنه في الكلام الثانى والثالث حتى يتوهم أن حصول النحو في جملة واحدة من قصيدة أو رسالة يصلح سائر الجمل ، وحتى يكون أفراد كل جملة بحكمها منه تكريراً له وتكثيراً لأجزائه ، فيكون مثله مثل زيادة أجزاء الملح على قدر الكفاية . وكذلك لا يتصور

---

(١) جملة وأن يكون عطف على الفساد أى ونفى عنه كونه كالطعام الخ .

فى قولنا «كان زيد منطلقاً» أن يتكرر هذا الحكم ويتكثر على هذا الكلام فيصير النحو كذلك موصوفاً بأن له كثيراً هو مذموم، وأن المحمود منه القليل، وإنما وزانه فى الكلام وزان وقوف لسان الميزان حتى ينبىء عن مساواة ما فى إحدى الكفتين الأخرى . فكما لا يتصور فى تلك الصفة زيادة ونقصان حتى يكون كثيرها مذموماً وقليلها محموداً ، كذلك الحكم فى الصفة التى تحصل للكلام بإجرائه على حكم النحو ووزنه بميزانه . فقول أبى بكر الخوارزمى «والبغض عندى كثرة الإعراب» كلام لا نحصل منه على طائل ، لأن الإعراب لا يقع فيه قلة وكثرة إن اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة وإن اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجملة مضموماً إلى إعراب تلك فهى الكثرة التى لابد منها ، ولا صلاح مع تركها ، والخليق بالبغض من ذمها[1] وإن كان أراد نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وما كان من الكلام معقداً موضوعاً على التأويلات المتكلفة فليس ذلك بكثرة وزيادة فى الإعراب بل هو بأن يكون نقصاً له ونقصاً أولى لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه ويبينه ويوضح الغرض ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة فى التقديم والتأخير زائل عن الإعراب ، زائغ عن الصواب ، متعرض للتلبيس والتعمية ، فكيف يكون ذلك كثرة فى الإعراب ؟ إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب ، لا لكثرة الإعراب ، وهـــذا هو كالاعتراض على طريق شجون الحديث ، ويحتاج إليه فى أصل كبير وهو أن من حق العاقل أن لا يتعدى

---

(١) مبتدأ وخبر

بالتشبيه الجهة المقصودة ولاسيما فى العقليات . وارجع إلى النسق .

« مثال الأصل الثالث » وهو أخذ الشبه من المعقول للمعقول . أول ذلك وأعمه تشبيه الوجود من الشىء مرة بالعدم ، والعدم مرة بالوجود ، أما الأول فعلى معنى أنه لما قل فى المعانى التى بها يظهر للشىء قدر ، ويصير له ذكر ، صار وجوده كلا وجود[1] وأما الثانى فعلى معنى أن الفانى كان موجوداً ثم فقد وعدم ، إلا أنه لما خلف آثاراً جميلة تحيى ذكره ، وتديم فى الناس اسمه ، صار لذلك كأنه لم يعدم . وأما ما عداهما من الأوصاف فيجىء فيهما طريقان (أحدهما) هذا[2] وذلك فى كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذى إذا خلت منه لم تستحق الشرف والفضل .

تفسير هذا أنك وصفت الجاهل بأنه ميت وجعلت الجهل كأنه موت على معنى أن فائدة الحياة والمقصود منها هو العلم والإحساس فمتى عدمهما الحى فكأنه قد خرج عن حكم الحى ، ولذلك جعل النوم موتاً إذ كان النائم لا يشعر بما بحضرته كما لا يشعر الميت .

والدرجة الأولى فى هذا أن يقال : فلان لا يعقل وهو بهيمة وحمار وما أشبه ذلك مما تحطه عن معانى المعرفة الشريفة ، ثم أن يقال : فلان لا يعلم ولا يفقه ولا يحس فينفى عنه العلم والإحساس جملة لضعف أمره فيه ، وغلبة

---

(١) نظم هذا المعنى بعضهم فقال :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

(٢) الطريق الثانى هو ما يأتى من قول المصنف (والطريق الثانى) فى شبه المعقول الخ فى ص ٦١ أى بعد ٤ صفحات .

الجهل عليه ، ثم تجعل التعريض تصريحاً فيقال : هو ميت خارج من الحياة وهو جماد ، توكيداً وتناهياً فى إبعاده عن العلم والمعرفة وتشدداً فى الحكم بأن لا مطمع فى انحسار غياية الجهل عنه[1] وإفاقته مما به من سكرة الغى والغفلة ، وأن يؤثر فيه الوعظ والتنبيه .

ثم لما كان هذا مستقرى فى العادة أعنى جعل الجاهل ميتاً خرج منه أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ لوجه الرشد ثم لما لم يكن علم أشرف وأعلى من العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزله على النبى صلى الله عليه وسلم جعل من حصل له[2] العلم بعد أن لم يكن كأنه إنما وجد الحياة وصارت صفة له مع وجود نور الإيمان فى قلبه وجعل حالته السابقة التى خلا فيها من الإيمان كحالة الموت التى تعدم معه الحياة وذلك قوله تعالى « أو من كان ميتاً فأحييناه » وأشباه ذلك .

ومن هذا الباب قولهم « فلان حى القلب » يريدون أنه ثاقب الفهم جيد النظر مستعد لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه ، بعيد من الغفلة التى كالموت . ويذهبون به فى وجه آخر وهو أنه حرك[3] نافذ فى الأمور غير بطىء النهوض . وذلك أن هذه الأوصاف من أمارات الصحة واعتدال المزاج وتوقد نار الحياة ، وهذا يصلح فى الإنسان والبهائم لأنه تعريض بالقدرة والقوة . والمذهب الأول إشارة إلى العلم والعقل وكلتا الصفتين أعنى القدرة والعلم مما يشرف به الحى ومما يضاده الموت وينافيه ، ولما كان الأمر كذلك صار إطلاق الحياة مرة عبارة عن العلم وأخرى عن القدرة ، وإطلاق الموت

---

(١) الغياية : كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة والغبرة .

(٢) المناسب هذا العلم .

(٣) غلام حرك : بوزن فرح : خفيف ذكى .

إشارة إلى عدم القدرة وضعفها تارة ، وإلى عدم العلم وضعفه أخرى .

والقول الجامع فى هذا ، أن تنزيل الوجود منزلة العدم إذا أريد المبالغة فى حط الشيء ، والوضع منه ، وخروجه عن أن يعتد به ، كقولهم هو والعدم سواء معروف متمكن فى العادات ، وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هى أدون منه ، حتى يقعوا فى ضرب من التهوس كقول أبى تمام :

* وأنت أنزر من لا شيء فى العدد *[1]

وقول ابن نباتة[2] :

ما زلت أعطف أيامى فتمنحنى نيلا أدق من المعدوم فى العدم

ويتفرع على هذا إثبات الفضيلة المذكور بإثبات اسم الشيء له ويكون ذلك على وجهين (أحدهما) أن يريد المدح وإثبات المزية والفضل على غاية المبالغة حتى لا يحصّل عليه مزيداً ، فإذا أردت ذلك جعلت الإثبات كأنه مقصور عليه لا يشارك فيه ، وذلك قولك : « هذا هو الشيء وما عداه فليس

---

(١) المصراع الأول من البيت (أفى تنظم قول الزور والفند) والفند بالتحريك الخطأ فى القول والرأى والكذب . ويطلق أيضاً على الخرف وإنكار العقل لهرم أو مرض . وفى نسخة : زيادة وهى وقال أيضاً :

هب من له شيء يريد حجابه ما بال لاشيء عليه حجاب

والبيت الأول من أبيات فى هجو محمد بن يزيد . والثانى من قصيدة فى هجو موسى بن إبراهيم الرافعى .

(٢) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد الملقب بالسعدى ينتهى نسبه إلى زيد مناة من تميم . كان شاعراً مجيدا جمع بين حسن السبك وجودة المعنى ومدح الملوك والوزراء والرؤساء كسيف الدولة ابن حمدان وغيره وطاف البلاد ، ولد سنة ٣٣٧ وتوفى سنة ٤٠٥ فى بغداد وهو غير ابن نباتة الخطيب وابن نباتة المصرى .

بشيء » ، أي أن ما عداه إذا قيس إليه صغر وحقر حتى لا يدخل في اعتداد وحتى يكون وجدانه كفقدانه ، فقد نزلت الوجود فيمن عدا المذكور منزلة العدم . وإما أن يكون التفضيل على توسط ، ويكون القصد الإخبار بأنه غير ناقص على الجملة ، ولا ملغى منزل منزلة المعدوم ، وذلك قولك : « هذا شيء » ، أي داخل في الاعتداد . وفي هذه الطريقة أيضاً تفاوت فإنك تقول مرة : « هذا إما لا شيء » ، تريد أن تقول إن الآخر ليس بشيء ولا اعتداد به أصلا ، وتقول أخرى : « هذا شيء » تريد شيء له قدر وخطر ، وتجرى لك هذه الوجوه في أسماء الأجناس كلها تقول : هذا هو الرجل ومن عداه فليس من الرجولية في شيء . وهذا هو الشعر فحسب : تبالغ في التفضيل وتجعل حقيقة الجنسية مقصورة على المذكور ، وتقول : « هذا رجل » تريد كامل من الرجال ، لا أن من عداه فليس برجل على الكمال ، وقد تقول : « هذا إما لا رجل » ، تريد يستحق أن يعد في الرجال ، ويكون قصدك أن تشير إلى أن هناك واحداً آخر لا يدخل في الاعتداد أصلا ولا يستحق اسم الرجل .

وإذ كان هذا هو الطريق المهيع[1] في الوضع من الشيء وترك الاعتداد به والتفضيل له والمبالغة في الاعتداد به ، فكل صفتين تضادتا ثم أريد نقص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها فجعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتاً والبصرَ والسمعَ — إذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع ويبصر ، فلم يفهم معنى المسموع ولم يعتبر بالمبصر أو لم يعرف حقيقته — عمىً وصمما ، وقيل للرجل : « هو أعمى أصم » — يراد أنه لا يستفيد شيئاً مما يسمع

(١) أي الواسع وهو من الهيع بمعنى الانبساط على وجه الأرض ، لا من الهيوع : الجبن .

ويبصر فكأنه لم يسمع ولم يبصر : وسواء عبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفها بمجرد العدم[1] ، وذلك أن فى إثبات أحد الضدين وصفاً للشىء ونفياً للضد الآخر لاستحالة أن يوجدا معاً فيه ، فيكون الشخص حياً ميتاً معاً ، أصم سميعاً فى حالة واحدة . فقولك فى الجاهل : هو ميت ، بمنزلة قولك : ليس بحى ، وأن الوجود فى حياته بمنزلة العدم . هذا هو ظاهر المذهب فى الأمر ، والحكم إذا أطلق القول . فأما إذا قيد كقوله : « أصم عما ساءه سميع » فتثبت له الصفتان معاً على الجلة . إلا أن مرجع ذلك إلى أن يقال أنه كان يفقد السمع فى حال ويعود إليه فى حال أو أنه فى حق هذا الجنس فاقد الإدراك مسلوبه ، وفيما عداه كائن على حكم السميع فلم يثبت له الصمم على الجلة إلا للحكم بأن وجود سمعه كالعدم ، إلا أن ذلك فى شىء دون شىء ، وعلى التقييد دون الإطلاق .

فقد تبين إذن أن أصل هذا الباب تنزيل الموجود منزلة المعدوم لكونه بحيث لا يعتد به وخلوه من الفضيلة .

* * *

(والطريق الثانى) فى شبه المعقول من المعقول أن لا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم ، ولكن على اعتبار صفة معقولة[2] يتصور وجودها مع ضد ما استعرت اسمه . فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشدة والصعوبة والبلوغ فى كونه مكروهاً إلى الغاية القصوى فيقال : « لقى الموت » يريدون لقى الأمر الأشد الصعب الذى هو فى كراهة النفس له كالموت .

---

(١) وفى نسخة « أو وصفتها »

(٢) الصفة المعقولة كشدة الصعوبة والكراهة ويتصور وجودها مع الحياة وهو ضد مااستعرت لها اسمه وهو الموت (ش)

ومعلوم أن كون الشيء شديداً صعباً مكروهاً ، صفة معلومة لا تنافي الحياة ولا يمنع وجودها معه كما يمنع وجود الموت مع الحياة . ألا ترى أن كراهة الموت موجودة في الإنسان قبل حصوله ؟ كيف وأكره ما يكون الموت إذا صفت مشارع الحياة ، وخصبت[1] مسارح اللذات ، فكلما كانت الحياة أمكن وأتم ، كانت الكراهة للموت أقوى وأشد ، ولم تخف كراهته على العارفين[2] ، إلا لرغبتهم في الحياة الدائمة الصافية من الشوائب بعد أن تزول عنهم هذه الحياة الفانية ، ويدركهم الموت فيها ، فتصورهم لذة الأمن منه ، قلل كراهتهم له ، كما أن ثقة العالم بما يعقبه الدواء من الصحة يهون عليه مرارته . فقد عبرت ههنا عن شدة الأمر بالموت واستعرته له من أجلها . والشدة ومحصولها الكراهة موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه ، فليس التشبيه إذن من طريق الحكم على الوجود بالعدم وتنزيل ما هو موجود كأنه قد خلع صفة الوجود ، وذلك أن هذا الحكم إنما جرى في تشبيه الجهل بالموت ، وجعل الجاهل ميتاً من حيث كان للجهل ضد ينافي الموت ويضاده وهو العلم ، فلما أردت أن تبالغ في نفي العلم الذي يجب مع نفيه الجهل ، جعلت الجهل موتاً لتؤيس من حصول العلم المذكور ، وليس لك هذا في وصف الأمر الشديد المكروه بأنه موت ؛ ألا ترى أن قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى   وإنما الموت سؤال الرجال

لا يفيد أن للسؤال ضداً ينافي الموت أو يضاده على الحقيقة ، وأن هذا القائل قصد بجعل السؤال موتاً نفي ذلك الضد ، وأن يؤيس من وجوده وحصوله بل أراد أن في السؤال كراهة ومرارة ، مثل ما في الموت . وأن نفس الحر

---

(١) خصب من بابي ضرب وعلم .

(٢) أي العارفين بالله المنصرفين لعبادته .

تنفر منه كما تنفر نفوس الحيوان جملة من الموت وتطلب الحياة ما أمكن في الخلاص منه .

فإن قلت : المعنى فيه أن السؤال يكسب الذل وينفي العز ، والذليل كالميت لفقد القدرة والتصرف ، فصار كتسميتهم خمول الذكر موتاً ، والذكر بعد الموت حياة ، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « مات خزان المال والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة » ، (قلت) إني آنس أنهم لم يقصدوا هذا المعنى في السؤال وإنما أرادوا الكراهة ، ولذلك قال بعد البيت الذي كتبته :

كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك لذل السؤال[1]

هذا ، وليس كل ما يعبر عنه بالموت لأنه يكره ويصعب ولا يستسلم له العاقل إلا بعد أن تعوزه الحيل فإنه يحمل هذا المحمل وينقاد لهذا التأويل ، أترى المتنبي في قوله :

وقدمت أمس بها[2] موتة ولا يشتهي الموت من ذاقه

أراد شيئاً غير أنه لقي شدة ، وأما العبارة عن خمول الذكر بالموت فإنه وإن كان يدخل في تنزيل الوجود منزلة العدم من حيث يقال إن الخامل لما لم

---

(١) وفي نسخة : أشد من ذاك على كل حال .

(٢) الضمير راجع إلى الخمر فإن الكلام فيها ، قال قبل البيت :

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه
تسيء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وأنفس ما للفتى لبه وذو اللب يكره إنفاقه

قال شيخنا في قوله تسيء من المرء تأديبه الخ : أي تغلبه فتخرجه عن قيود الحشمة في اللفظ والحركات ، ولكنها تغلب منه الخوف والبخل فيشجع ويسخو وهذا ما يريده من تحسينها لأخلاقه .

يذكر ولم يبن منه ما يتحدث به صار كالميت الذى لا يكون منه قول بل ولا فعل يدل على وجوده ، فليس دخوله فيه ذلك الدخول ، وذلك أن الجهل ينافى العلم ويضاده كما لا يخفى ، والعلم إذا وجد فقد وجدت الحياة حتما واجباً ، وليس كذلك خمول الذكر والذكرُ ، لأنه ليس إذا وجد الذكر فقد وجدت الحياة لأنك تحدث عن الميت بأفعاله التى كانت منه فى حال الحياة فيتصور الذكر ولا حياة على الحقيقة ، ولا يتصور العلم ولا حياة على الحقيقة ، وهكذا القول فى الطرف الآخر وهو تسمية من لا يعلم ميتاً وذلك أن الموت ها هنا عبارة عن عدم العلم وانتفائه : وعدم العلم على الإطلاق حتى لا يوجد منه شىء أصلا وحتى لا يصح وجوده يقتضى وجود الموت على الحقيقة ، ولا يمكن أن يقال إن خمول الذكر يوجب الموت على الحقيقة فأنت إذن فى هذا تنزل الوجود منزلة العدم على وجه لا ينصرف إلى الحقيقة ولا يصير إليها وإنما يمثل ويخيل ، وأما فى الضرب الأول وهو جعل من لا يعلم ميتاً ومن يعلم هو الحى فإنك تلاحظ الحقيقة وتشير إليها وتحطب فى حبلها[1] فاعرفه .

وأما قولهم فى الغنى إذا كان بخيلا لا ينتفع بماله « إن غناء فقر » فهو فى الضرب الأول أعنى تنزيل الوجود منزلة العدم لعرى الوجود مما هو المقصود منه ، وذلك أن المال لا يراد لذاته وإنما يراد للانتفاع به فى الوجوه التى تعدها العقلاء انتفاعاً ، فإذا حرم مالكه هذه الجدوى وهذه الفائدة فملكه له وعدم الملك سواء ، والغنى إذا صرف إلى المال فلا معنى له سوى ملك الإنسان الشىء الكثير منه ، ألا تراه يذكر مع الثروة فيقال

---

(١) أى تنصرها وتميل إليها (ش) وحطب من باب ضرب .

« غنى مثر مكثر » . فإذا تبين بالعلة التى مضت أنه لا يستفيد بملكه هذا المال معنى ، وأن لا طائل له فيه ، فقد ثبت أن غناه والفقر سواء ، لأن الفقر أن لا يملك المال الكثير . وأما قول اللؤماء : إن انتفاعه فى اعتقاده أنه متى شاء انتفع به ، وما يجد فى نفسه من عزة الاستظهار ، وأنه يهاب ويكرم من أجله ، فمن أضاليل المنى ، وقد يهان ويذل ، ويعذب بسببه حتى تنزع الروح دونه .

ثم إن هذا الكلام وضعه العقلاء الذين عرفوا ما الانتفاع ، وهذا المخالف لا ينكر أن الانتفاع لو عدم كان ملكه الآن للمال وعدم ملكه سواء ، وإنما جاء يتطلب عذراً ، ويرخى دون لؤمه ستراً ، ونظير هذا أنك ترى الظالم المجترىء على الأفعال القبيحة يدعى ، لنفسه الفضيلة بأنه مديد الباع طويل اليد ، وأنه قادر على أن يلجىء غيره إلى التطامن له ، ثم لا يزيده احتجاجه إلا خزياً وذلا عند الله وعند الناس . وترى المصدق له فى دعواه أذم له وأهجى من المكذب لأن الذى صدقه أيس من أن ينزع إلى الإنسانية بحال ، والذى كذب رجا أن ينزع عند التنبيه والكشف عن القبيح .

وأما قولهم فى القناعة إنها الغنى : كقوله : * إن القنوع[1] الغنى لا كثرة المال . يريد القناعة ، وكما قال الآخر :

إن القناعة فاعلمنّ غنى والحرص يورث أهله الفقرا

(١) القنوع — بالضم — السؤال ، فقنع يقنع كسأل يسأل وزناً ومعنى . ومنه (وأطعموا القانع والمعتر) أى السائل والمعترض الذى يطيف ولا يسأل ، وأما القناعة فهى ضد القنوع ، ومعناها الرضى بما قسمه الله تعالى وعدم السؤال والاستشراف وفعلها من باب فرح قنعا — بالتحريك — وقناعة فهو قنع — كفرح — وقنوع قال شيخنا : ومن دعائهم : نسأل الله القناعة ونعوذ به من القنوع . وفى الأساس : العز فى القناعة والذل فى القنوع ، وهو السؤال .

وجعلهم الكثير المال[1] إذا كان شرهاً حريصاً على الازدياد فقيراً . فيما يرجع إلى الحقيقة المحضة ، وإن كان فى ظاهر الكلام كالتشبيه والتمثيل . وذلك أن حقيقة الغنى هو انتفاء الحاجة ، والحاجة أن تريد الشيء ولا تجده ، والكثير المال إذا كان الحرص عليه غالباً ، والشره له أبداً صاحباً ، وكان حاله كحال من به كَلَب الجوع يأكل ولا يشبع ، أو من به البغر[2] يشرب ولا يروى ، فكما أن إصابته من الطعام والشراب القدر الذى يشبع ويروى — إذا كان المزاج معتدلا والصحة صحيحة — لا تنفى عنه صفة الجائع والظمآن لوجود الشهوة ودوام مطالبة النفس وبقاء لهيب الظمأ وجهد العطش وكذلك الكثير المال ، له لا تحصل صفة الغنى ولا تزول عنه صفة الفقر ، مع بقاء حرصه الذى يديم له القرَم[3] والشهوة والحاجة والطلب والضجر حين يفقد الزيادة التى يريدها وحين يفوته الربح من تجاراته ، وسائر متصرفاته ، حتى لا يكاد يفصل بين حاله وقد فاته ما طلب ، وبينها وقد أخذ بعض ماله وغصب ، ومن أين تحصل حقيقة الغنى لذى المال الكثير وقد تراه من بخله وشحه كالمقيد دون ما ملكه ، والمغلول اليد يموت صبراً ويعانى بؤساً ولا تمتد يده إلى ما يزعم ، أنه يملكه فينفقه فى لذة نفس ، أو فيما يكسب حمداً اليوم وأجراً غداً ؟ ذاك لأنه عدم كرماً يبسط أنامله ، وجوداً ينصر آمله ، وعقلا ينصره ، وهمة تمكنه مما لديه ، وتسلطه عليه ، كما قال البحترى .

وواجد مال أعوزته سجية تسلطه يوماً على ذلك الوُجد

---

(١) هذا مقابل ماسبق من عدم الانتفاع بالمال ، فإن ذلك مجازه إذا سمى فقيرا وأما الحريص مع كثرة المال إذا سمى فقيراً فهو حقيقة (كتبه ش) .

(٢) البغر بالغين المعجمة محركا عطش يصيب الإبل فتشرب ولا تروى ، وفعله كفرح ومنع .

(٣) القرم شدة شهوة أكل اللحم ، وتجوز به عن الشوق الشديد للشيء .

فقولهم إذن « إن القناعة هى الغنى لا كثرة المال » إخبار عن حقيقة نفذت بها قضايا العقول وصححتها الخبرة والعبرة ، ولكن رب قضية من العقل نافذة قد صارت كأنها من الأمور المتجوز فيها أو دون ذلك فى الصحة لغلبة الجهل والسفه على الطباع ، وذهاب من يعمل بالعقل ويذعن له ، ويطرح الهوى ويصبو إلى الجميل ، ويأنف من القبيح ، ولذهاب الحياء وبطلانه ، وخروج الناس من سلطانه ، ويأس العاقل من أن يصادف عندهم — إن نبّه أو ذكر — سمعاً يعى ، وعقلاً يراعى ، فجرى الغنى على كثرة المال والفقر على قلته مما يزيله العرف عن حقيقته فى اللغة . ولما كان الظاهر من حال الكثير المال أنه لا يعجز عن شىء يريده من لذاته وسائر مطالبه سمى المال الكثير غنى ، وكذلك لما كان من قل ماله عجز عن إرادته سمى قلة المال فقراً ، فهو من جنس تسمية السبب باسم المسبب ، وإلا فحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج وحقيقة الفقر الاحتياج ، والله تعالى الغنى على الحقيقة ، لاستحالة الاحتياج عليه جل وتعالى عن صفات المخلوقين . وعلى ذاك ماجاء فى الخبر من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع » قال : « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وزكاته وصيامه ، فيأتى وقد شتم هذا وأكل مال هذا وقذف هذا وضرب هذا وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » وذاك أنه صلى الله عليه وسلم بين الحكم فى الآخرة فلما كان الإنسان إنما يعد غنيا فى الدنيا بماله لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم فى الآخرة للعمل الصالح ، ثبت لا محالة أن يكون

الخالى — نعوذ بالله — من ذلك : هو المفلس ، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالى من المال فى الدنيا مفلساً ، وهو ما يوصله إلى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والعذاب ، نسأل الله التوفيق لما يؤمن من عقابه .

وإذا كان البحث والنظر يقتضى أن الغنى والفقر فى هذا الوجه دالان على حقيقة هذا التركيب فى اللغة[1] كقولك غنيت عن الشىء واستغنيت عنه إذا لم تحتج إليه ، وافتقرت إلى كذا إذا احتجت إليه ، وجب أن لا يعدواها ههنا فى المستعار والمنقول عن أصله .

فصل

إن قال قائل : إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه فى شىء لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك أو حكماً من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء . وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى هو معدوم أو قلت هو والعدم سواء فلست تأخذ له شبهاً من شىء ولكنك تنفيه وتبطل وجوده كما أنك إذا قلت : ليس هو بشىء أو ليس برجل كان كذلك . وكما لا يسمى أحد نحو قولنا « ليس بشىء » تشبيهاً ، كذلك ينبغى أن لا يكون قولك وأنت تقلل الشىء أخبرت عنه « معدوم » تشبيهاً . وكذلك إذا جعلت المعدوم موجوداً ، كقولك مثلا للمال يذهب ويفنى ويثمر صاحبه ذكراً جميلا وثناء حسناً

(١) قوله « حقيقة هذا التركيب » أى الحاجة إلى الشىء أو عدم الحاجة إليه قال شيخنا والمراد من هذا التركيب ماذكره بقوله . غنيت عن الشىء واستغنيت عنه .

« إنه باق لك موجود » لم يكن ذلك تشبيهاً بل إنكاراً لقول من نفى عنه الوجود ، حتى كأنك تقول عينه باقية كما كانت : وإنما استبدل بصورة صورة فصار جمالا ، بعد ما كان مالا ، ومكارم ، بعد أن كان دراهم . وإذا ثبت هذا فى نفس الوجود والعدم ثبت فى كل ما كان على طريق تنزيل الصفة الموجودة كأنها غير موجودة ، نحو ما ذكرت من جعل الموت عبارة عن الجهل ، فلم يكن ذلك تشبيهاً لأنه إذا كان لا يراد بجعل الجاهل ميتاً إلا نفى الحياة عنه مبالغة ونفى العلم والتمييز والإحساس الذى لا يكون إلا مع الحيـــاة كان محصوله أنك لم تعتد بحياته ، وترك الاعتداد بالصفة لا يكون تشبيهاً إنما هو نفى لها وإنكار لقول من أثبتها .

فالجواب : أن الأمر كما ذكرت ، ولكن تتبعت فيما وضعته ظاهر الحال ونظرت إلى قولهم « موجود كالمعدوم ، وشىء كلا شىء ، ووجود شبيه بالعدم » فإن أبيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضايق فيه إلا أن من حقك أن تعلم أنه لا غنى بك عن حفظ الترتيب الذى رتبته فى إعطاء المعقول اسم معقول آخر أعنى لا بد من أن تعلم أنه يجىء على طريقين . أحدهما : تنزيل الوجود منزلة العدم كما مضى من أن جعل الموت عبارة عن الجهل وإيقاع اسمه عليه يرجع إلى تنزيل حياته الموجودة كأنها معدومة . والثانى : أن لا يكون هذا المعنى ولكن على أن لأحد المعنيين شبهاً بالآخر ، نحو أن السؤال يشبه فى كراهته وصعوبته على نفس الحر : الموت .

واعلم أنى ذكرت لك فى تمثيل هذه الأصول الواضح الظاهر ، القريب المتناول ، الكائن من قبيل المتعارف فى كل لسان ، وما تجد اعترافاً به وموافقة عليه من كل إنسان ، أو ما يشابه هذا الحد ويشاكله ،

ويداخل هذا الضرب ويشاركه ، ولم أذكر مايدق ويغمض ، ويلطف ويغرب ، وما هو من الأسرار التى أثارتها الصنعة ، وغاصت عليها فكرة الأفراد من ذوى البراعة فى الشعر ، لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس ، ووضع قواعد للقياس ، كان الأولى أن يعمد إلى ما هو أظهر وأجلى من الأمثلة لتكون الحجة بها عامة ، لا يصرف وجهها بحال ، والشهادة تامة لا تجد من السامعين غير قبول وإقبال ، حتى إذا تمهدت القواعد ، وأحكمت العرى والمعاقد ، أخذ حينئذ فى تتبع ما اخترعته القرائح ، وعمد إلى حل المشكلات عن ثقة بأن هيئت المفاتح .

هذا — وفى الاستعارة بعد من جهة القوانين والأصول شغل الفكر ، ومذهب القول ، وخفايا ولطائف تبرز من حجبها بالرفق ، والتدريج والتلطف والتأتى . ولكنى أظن أن الصواب أن أنقل الكلام إلى القول على التشبيه والتمثيل وحقيقتهما ، والمراد منهما ، خصوصاً فى كلام من يتكلم على الشعر ، ونتعرف : أهما متساويان فى المعنى أو مختلفان ؟ أم جنسهما واحد إلا أن أحدهما أخص من الآخر ؟ وأنا أضع لك جملة من القول نبين بها هذه الأمور .

التشبيه والتمثيل

التشبيه وأقسامه

اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول .

والآخر : أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول . فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار . وتشبيه سقط النار[1] بعين الديك ، وما جرى في هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور ، والنرجس بمداهن[2] در حشوهن عقيق . وكذلك التشبيه من جهة الهيئة ، نحو أنه مستو منتصب مديد ، كتشبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن . ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح[3] ونحو ذلك . وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره ، كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج ، كما قال :

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس إنقاض الفراريج[4]

تقدير البيت : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله « من إيغالهن » وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي ، كما قال :

---

(١) السقط — مثلثة والكسر أشهر — مايسقط بين الزندين عند القدح ، وزاد بعضهم : قبل استحكام الورى .

(٢) المداهن — جمع مدهن — بضمتين وهو مايجعل فيه الدهن ووزنه شاذ والقياس الكسر ، لأنه من أسماء الآلة .

(٣) الأريحية بسكون الراء حالة يرتاح معها إلى البذل والبارح الريح الشديدة

(٤) الميس شجرة تتخذ منه الرحال للينه وقوته ويطلق على الرحال نفسها وهو المراد هنا .

كأن على أنيابها كل سحرة صياح البوازى من صريف اللوائك[١]

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له . وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر ، وتشبيه اللين الناعم بالخز والخشن بالمسح[٢] ، أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور أو رائحة بعضها ببعض كما لا يخفى ، وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة والذئب فى النكر . والأخلاق كلها تدخل فى الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم . وكذلك تشبيه الرجل بالرجل فى الشدة والقوة وما يتصل بها .

فالشبه فى هذا كله بين لا يجرى فيه التأول ولا يفتقر إليه فى تحصيله ، وأى تأول يجرى فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد كما تعلمها فى الرجل .

— ومثال الثانى وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول — كقولك هذه حجة كالشمس فى الظهور ، وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشىء بالشىء ، من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول . وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين

---

(١) السحرة — بالضم — : السحر الأعلى وهو ماقبل انصداع الفجر ، والسحر الآخر عند انصداعه والاوائك المواضغ جمع لائكة اسم فاعل مؤنث من اللوك وهو المضغ أو أهونه كمضغ البعير .

(٢) المسح — بالكسر — البلاس وهو ثوب من الشعر غليظ كما فى التهذيب (ش) وجمع المسح مسوح كحمل وحمول ، والبلاس بالفتح فارسى معرب . ويتخذ بساطاً وكساء .

العين و بين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك و بينه ذلك الحجاب .

ثم تقول : إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه ، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه . ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذى يروم القلب إدراكه ، و يصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم . قيل : هذا ظاهر كالشمس ، أى ليس ههنا مانع عن العلم به ، ولا للتوقف والشك فيه مساغ ، وأن المنكر له إما مدخول فى عقله أو جاحد مباهت ومسرف فى العناد ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له فى إنكاره . فقد احتجت فى تحصيل الشبه الذى أثبته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأويل كما ترى .

ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً . فمنه ما يقرب مأخذه و يسهل الوصول إليه و يعطى المقادة طوعاً ، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذى ليس من التأول فى شيء ، وهو ما ذكرته لك . ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل ، ومنه ما يدق و يغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة .

فما يشبه الذى بدأت به فى قرب المأخذ وسهولة المأتى قولهم فى صفة الكلام : ألفاظه كالماء فى السلاسة ، وكالنسيم فى الرقة ، وكالعسل فى الحلاوة . يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يستنكره لكونه غير مألوف ،

أو ما ليس فى حروفه تكرير وتنافر ، يكد اللسان من أجلهما[1] فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق ، والنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهدى إلى القلب روحاً ويوجد فى الصدر انشراحاً ، ويفيد النفس نشاطاً ، وكالعسل الذى يلذ طعمه ، وتهش النفس له ، ويميل الطبع إليه ، ويحب وروده عليه . فهذا كله تأول ورد شىء إلى شىء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلا فى حقيقة التأول ، وأقوى حالا فى الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس .

وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، فنحو قول كعب الأشقرى ، وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة . قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم[2] ؟ قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات[3] . قال : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها[4] . فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر

---

(١) الكد الاتعاب ، ويقال كد لسانه تجوزا ، كما فى الأساس .

(٢) أى فى القوم المحاربين .

(٣) السرح المال السائم من الانعام . وأليلوا — كأكرموا — دخلوا فى الليل والبيات الهجوم على العدو ليلا . قال شيخنا أى يقظون لا يطرقهم طارق إلا كانوا على صهوات خيولهم لملاقاته وأنهم يتبعون العدو ليلا فيفجعونه اهـ .

(٤) هذا المثل من كلام فاطمة بنت الخرشب — بضم فسكون فضم — الانمارية إحدى المنجبات فى الجاهلية وهى أم الكملة من بنى عبس : الربيع وعمارة وأنس الفوارس وإخوتهم . سألها أبو سفيان حين قدمت عليه مكة حاجة فى الجاهلية « أى بنيك أفضل ؟ » فقالت : الربيع لا بل عمارة لا بل أنس الفوارس ، ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة الخ . فقد أخذه كعب الأشقرى ووصف به بنى المهلب .

يرتفع به عن طبقة العامة . وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس ، فإنه كالمشترك البين الاشتراك ، حتى يستوى فى معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل .

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده فى كلام العامى . فأما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب قوله « هم كالحلقة » فلا تراه إلا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين ، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا . فأنت تقول فى قول قيس ابن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى كعنقود مُلاحِيَّةٍ حين نوَّرا[1]

إنه تشبيه حسن . ولا تقول هو تمثيل ، وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول، كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن دُرٍّ حشوهن عقيق

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدد من ثياب حداد

وقوله :

وتروم الثريا فى الغروب مراما
كانكباب طِمِرٍّ كاد يلقى اللجاما[2]

(١) الملاحى — بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها — عنب أبيض طويل ، ونور الزرع تنويرا : أدرك ، والتمر خلق فيه النوى .

(٢) الطمر — بكسرتين وراء مشددة — : الفرس الجواد أو المستعد للوثب والعدو

وقوله :

قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيـد
يتلو الثريا كفـاغر شره يفتح فاه لأكل عنقـود

وقوله :

لما تعرى أفق الضياء مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلماء قُدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقـاء ويعرف الزجر من الدعاء
بإذنـ ساقطة الأرجاء كورد السوسنة الشهباء(١)
ذا برثن كثقب الحـذّاء ومقلة قليـلة الأقذاء
* صافية كقطرة من ماء *(٢)

(١) فى رواية : الشهلاء ، بدل الشهباء .

(٢) هذا ماوجد فى الكتاب باتفاق النسختين ، والذى فى ديوان ابن المعتز بعد قوله « داهية محذورة اللقاء » هو :

شائلة كالعقرب السمراء مرهفة مطلقة الأحشاء كمدة من قلم سوداء
أو هدبة من طرف الرداء تحملها أجنـة الهواء تستلب الخطو بلا إبطاء
عشى الانكب فى الرمضاء أسرع من جفن إلى إغضاء وخطفاً موثق الأعضاء
خالفها بجلدة بيضاء كأثر الشهاب فى السماء

وللكلام تتمة أيضاً بعد ما أورده المصنف وهى :

ينساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حية رقطاء آنس بين الصفح والفضاء
سرب ظباء رتع الأطلاء فى عازب منور خلاء أحوى كبطن الحية الخضراء
فيه كنقش الحية الرفشاء كأنها صنفارُ الشمطاء يصطاد قبل الاين والعناء
خمسين لاتنقص فى الاحصاء

الرجز فى الصيد ووصف كلبة وكلب من جوارحه واللمياء السمراء ، أو اللعساء أى الموشومة . وقوله « وشمطت » الخ الشمط محركة احتلاط الشعر الأسود والأبيض =

وما كان من هذا الجنس ولا تريد، نحو قوله[1] :

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وذلك إن إحسانه فى النوع الأول أكثر، وهو به أشهر . وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضا فلا يقال : ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التى قدمتها ، وإنما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال فى شعره يراد نحو قوله :

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً بعد الذى أبصرت من يبسه

= يريد أول ظهور نور الفجر فى ظلمة الليل — وقدنا بوزن قلنا — من القود والقيادة والعين بكسر العين جمع أعين وهو اسم لثور بقر الوحش غلب عليه لاتساع عينه وسوادها والانثى عيناء . وقوله « داهية » شروع فى وصف الكلبة والشائلة التى تشول بذنبها أى ترفعه والعقرب شائلة دائما والناقة الشائل والشائلة ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وخف لبنها . وقوله تمشى الانكب أى تتمشى تمشى الانكب — وهو البعير ذو النكب — وهو بالتحريك الظلع فى المشية وقيل داء عنه الظلع . وهكذا تمشى الكلاب السلوقية وهذا الوصف لاينافى السرعة فيه .
وقوله « ومخطفا » شروع فى وصف الكلب وهو بضم الميم وفتح الطاء منطوى الأحشاء . وموثق الأعضاء بالتشديد محكمها . وخالفها أى خالف الكلبة . ومثقب الحذاء : الاسكاف ، معروف . وآنس أبصر الرتع جمع الراتع ، أى الراعية والاطلاء جمع طلى بالفتح وهو ولد الظبى ساعة يولد والعازب الكلأ فى فلاة لازرع فيها ولا تصل إليه الماشية وأراد مكانه ، والمنور اسم فاعل من نور الزرع بمعنى أدرك ، و لأحوى الضارب إلى السواد من شدة خضرته وكذا الأحمر الضارب إلى السواد . والأين الأعياء

(١) « وما كان » الخ عطف على « تشبيه المبصرات » . وكل ما لا يوجد الخ » فى ص ٧٥ وقوله « ولا تريد » الخ عطف على « تعنى تشبيهه قبله . أعنى أن هذا المعطوف على الفعل « تعنى » وما قبله معطوف على مفعوله .

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول ، ولكن إن قلت فى قول ابن المعتز :

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه تمثيل ، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال ، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التى لا تمدُّ بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة .

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل . وفى تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق .

فصل

اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام أن الاشتراك فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة فى حكم لها ومقتضى ، فالخد يشارك الورد فى الحمرة نفسها ، وتجدها فى الموضعين بحقيقتها ، واللفظ يشارك العسل فى الحلاوة لا من حيث جنسه بل من جهة حكم وأمر يقتضيه ، وهو ما يجده الذائق فى نفسه من اللذة ، والحالة التى تحصل فى النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع ويقع منه بالموافقة ، فلما كان كذلك احتيج لا محالة — إذا شبه اللفظ بالعسل فى الحلاوة — أن يبين أن هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها ، ولكن من مقتضى لها ، وصفة تتجدد فى النفس بسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه حالة فى نفسه شبيهة بالحالة التى يجدها

الذائق للحلاوة من العسل حتى لو تمثلت الحالتان للعيون لـكانتا تريان على صورة واحدة ولوجدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد ، وليس ههنا عبارة أخص بهذا البيان من التأول ، لأن حقيقة قولنا « تأولت الشيء » أنك تطلبت ما يؤول إليه من الحقيقة أو الوضع الذى يؤول إليه من العقل لأن « أولت وتأولت » — فعلت وتفعّلت من آل الأمر إلى كذا يؤول إذا انتهى إليه والمـآل المرجع . وليس قول من جعل أوّلت وتأوّلت « من أول » بشيء لأن ما فاؤه وعينه من موضع واحد ككوكب وددَن لا يصرف منه فعل ، و « أول » أفعل بدلالة قولنا « أول منه » كقولنا « أسبق منه وأقدم » فالواو الأولى فاء والثانية عين[1] وليس هذا موضع الـكلام فى ذلك فيستقصى .

وأما الضرب الأول فإذا كان المثبت من المشبه فى الفرع من جنس المثبت فى الأصل كان أصلا بنفسه ، وكان ظاهر أمره و باطنه واحداً ، وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت فى هذا وذاك حمرة والجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد فى شيئين . و إنما يتصور فيه التفاوت بالـكثرة والقلة والضعف والقوة ، نحو أن حمرة هذا الشيء أكثر وأشد من حمرة ذاك .

و إذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقى الأصلى هو الضرب الأول ، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه . و يزيد ذلك بياناً أن مدار التشبيه على أنه يقتضى ضرباً من الاشـتراك ومعلوم أن الاشـتراك فى نفس الصفة أسبق فى التصور من الاشتراك فى مقتضى

(١) أصل أول قيل : أوأل على أفعل أو فوعل — أو — ووأل أى فعأل وعلى هذا يكون ما ذكره الشيخ رأيا آخر (ش) .

الصفة كما أن الصفة نفسها مقدمة فى الوهم على مقتضاها ، فالحلاوة أولا ثم إنها تقتضى اللذة فى نفس الذائق لها . وإذا تأملنا متصرف[1] تركيبه وجدناه يقتضى أن يكون الشيئان من الاتفاق والاشتراك فى الوصف بحيث يجوز أن يتوهم أن أحدهما الآخر . وهكذا تراه فى العرف والمعقول فإن العقلاء يؤكدون أبداً أمر المشابهة بأن يقولوا لا يمكنك أن تفرق بينهما ولو رأيت هذا بعد أن رأيت ذاك لم تعلم أنك رأيت شيئاً غير الأول حتى تستدل بأمر خارج عن الصورة ، ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الاطلاق والوجود الحقيقى فى الضرب الأول . وأما الضرب الثانى فإنما يجىء فيه على سبيل التقدير والتنزيل ، فاما أن لا تجد فصلا بين ما يقتضيه العسل فى نفس الذائق ؛ وما يحصل باللفظ المرضى والكلام المقبول فى نفس السامع ، فما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فأما على التحقيق والقطع فلا . فالمشابهات المتأولة التى ينتزعها العقل من الشيء للشيء لا تكون فى حد المشابهات الأصلية الظاهرة بل الشبه العقلى كان الشيء[2] به يكون شبيهاً بالمشبه به .

فصل

ثم إن هذا الشبه العقلى ربما انتزع من شيء واحد كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل . وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها الى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما فى حال الافراد لا سبيل

---

(١) وفى نسخة منصرف بالنون .

(٢) وفى نسخة « كاد الشيء » بدل كان الشيء .

الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما . ومثال ذلك قوله عز وجل (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جنبيه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض .

بيان ذلك أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث ذلك بجهل الحمار ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود . ثم إنه لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثانى ويدخل الثانى فى الأول ، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ، ثم لايتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره ، فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد بل تبطل صورها المفردة التى كانت قبل المزاج وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عهدت ويحصل مذاقها[1] حتى لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج فرضت[2] مالا يكون — لم يتم المقصود[3] ولم تحصل النتيجة المطلوبة وهى الذم بالشقاء فى شىء

(١) وفى نسخة : وتحصل بذاتها

(٢) فرضت جواب لو فرضت .

(٣) لم يتم إلخ جواب فما لم تجعله كالخيط الخ (ش) .

يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً إلى نيل شيء من تلك المنافع والنعم .

ومثال ما يجيء فيه التشبيه معقوداً على أمرين إلا أنهما لا يتشابكان هذا التشابك قولهم « هو يصفو ويكدر ويمر[1] ويحلو ويشج ويأسو ويسرج ويلجم[2] » لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى لأنك لو قلت هو « يصفو » ولم تتعرض لذكر الكدر أو قلت « يحلو » ولم يسبق ذكر « يمر » وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصفاء وبالعسل فى الحلاوة بحاله وعلى حقيقته ، وليس كذلك الأمر فى الآية لأنك لو قلت كالحمار يحمل أسفاراً ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقروناً بحمله وأن يكون متعدياً إلى ما تعدى إليه الحمل لم يتحصل لك المغزى منه وكذلك لو قلت هم كالحمار فى أنه يجهل الأسفار ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقروناً بجهله لها لكان كذلك . وكذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذى هو الأسفار فقلت هو كالحمار فى أنه يحمل ويجهل ، وقعت من التشبيه المقصود فى الآية بأبعد البعد . والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن به الكدر

---

(١) كدر مثلث الدال من باب قعد وحسن وتعب : ويمر بفتح الميم وبضمها .

(٢) لو قال يشرح أى يقطع ويلحم أى .. لكانت كما قبلها كتبه شيخنا على نسخة الدرس وذهب منه تفسير يلحم وهو بضم الياء من ألحم . فأما شرح اللحم وهو المراد فمعناه قطعه طولا ويقال ألحم العظم إذا اعترق اللحم الذى عليه كعرقه ولحمت الرجل وألحمته أطعمته اللحم .

ولذلك لو قلت يصفو ولا يكدر لم تزدد فى صميم التشبيه وحقيقته شيئاً وإنما استدمت الصفة كقولك يصفو أبداً وعلى كل حال .

فصل

اعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف لم يخل من وجهين أحدهما أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه والآخر أن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه فالأول ما مضى فى نحو تشبيه الكلام بالعسل فى الحلاوة وذلك أن وجه التشبيه هناك أن كل واحد منهما يوجب فى النفس لذة وحالة محمودة ويصادف منها قبولا وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هى حلاوة أو للعسل من حيث هو عسل .

وأما الثانى وهو ما ينتزع منه التشبيه لأمر لا يرجع إلى نفسه فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شيء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص نحو كونه واقعاً فى موقعه وعلى الصواب أو واقعاً غير موقعه كقولهم « هو كالقابض على الماء والراقم فى الماء » فالشبه ههنا منتزع مما بين القبض والماء وليس بمنتزع من القبض نفسه وذلك أن فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها فإذا كان الشيء مما لا يتماسك فعلك القبض فى اليد لغو وكذلك القصد فى الرقم أن يبقى أثر فى الشيء وإذا فعلته فيما لا يقبله كان فعلك كلا فعل وكذلك قولهم « يضرب فى حديد بارد وينفخ فى غير فحم » .

وإذا ثبت هذا فكل شبه كان هذا سبيله فإنك لا تجد بين المعنى المذكور وبين المشبه إذا أفردته ملابسة البتة . ألا تراك تضرب الرقم فى الماء والقبض عليه لأمور لا شبه بينهما وبينها البتة من حيث هما رقم وقبض .

وإذ قد عرفت هذا فالحمل فى الآية من هذا القبيل أيضاً لأنه تضمن

الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين أحدهما تعديه إلى الأسفار والآخر اقتران الجهل للأسفار به ، وإذا كان الأمر كذلك كان قطعك الحمل عن هذين الأمرين فى البعد من الغرض كقطعك القبض والرقم عن الماء فى استحالة أن يعقل منهما ما يعقل بعد تعديهما إلى الماء بوجه من الوجوه فاعرفه .

فإن قلت ففى اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال وذلك أن الحافظ للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره ، وعلى ذلك يقال حملة الحديث وحملة العلم كما جاء فى الأثر « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله[1] ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا وإنما قصد ما يوجبه تعدى الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بها به وهو العناء بلا منفعة . يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل فى كمه أبداً دفاتر علم وهو بليد لا يفهم أو كسلان لا يتعلم : إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضاً قد يحمل تريد أن تبطل دعواه أن له فى حمله فائدة وأن تسوي بينه وبين الحمار فى فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود فى المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لا ينصرف

---

(١) هذا حديث وما بعده حديث آخر . أما الأول فقد رواه ابن منده وغيره مرفوعاً من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى وهو مختلف فى صحبته ولفظه « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريك الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » والبيهقى فى المدخل مرسلا وضعفه الكثيرون ، وروى عن أحمد تصحيحه ، وكتب شيخنا على حاشية نسخته ، قال القعنبي : سمعت رجلا يحدث مالكا هذا الحديث فأعجبه . والخلف بالتحريك والسكون كل من يجئ بعد من سبقه ، إلا أنه بالتحريك فى الخير وبالتسكين فى الشر ، وأما الآخر فهو من ضمن حديث رواه الترمذى والضياء عن زيد بن ثابت بسند صحيح .

إليه من حيث هو حمل وإنما ينصرف إلى ما ذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعاً إلى الحمل من حيث هو حمل حيث يوصف الرجل مثلا بكثرة الحفظ للوظائف أو جهد النفس فى الأشغال المتراكمة وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه .

ومن هذا الباب قولهم « أخذ القوس باريها » وذلك أن المعنى على وقوع الأخذ فى موقعه ووجوده من أهله فلست تشبه من حيث الأخذ نفسه وجنسه ولكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من بارى القوس على القوس . وكذلك قولهم « ما زال يفتل منه فى الذروة والغارب » الشبه مأخوذ بين الفتل وما تعدى إليه من الذروة والغارب ولو أفردته لم تجد شبهاً بينه وبين ما يضرب هذا الكلام مثلا له ، لأنه يضرب فى الفعل أو القول يصرف به الإنسان عن الامتناع إلى الإجابة ، وعن الإباء عليك فى مرادك إلى موافقتك والمصير إلى ما تريد منه . وهذا لا يوجد فى الفتل من حيث هو فتل وإنما يوجد فى الفتل إذا وقع فى الشعر من ذروة البعير وغاربه[1] .

واعلم أن هذا الشبه حكمه واحد سواء أخذته ما بين الفعل والمفعول الصريح أو ما يجرى مجرى المفعول . فالمفعول كالقوس فى قولك « أخذ القوس باريها » وما يجرى مجرى المفعول الجار مع المجرور كقولك « كالرقم

(١) فى حديث الزبير « سأل عائشة الخروج إلى البصرة فأبت عليه فما زال يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابته » جعل وبر ذروة البعير وغاربه مثلا لإزالتها عن رأيها كما يفعل بالجمل النفور إذ أريد تأنيسه وإزالة نفاره . والذروة أعلى السنام من البعير ، والغارب الكاهل من (ذى) الخف وهو ما بين السنام والعنق اهـ (ش) .

فى المـاء . وهو كمن يخط فى الماء » وكذلك الحال[1] كقولهم : « كالحادى وليس له بعير » فقولك : وليس له بعير — جملة من الحال وقد احتاج الشبه إليها لأنه مأخوذ ما بين المعنى الذى هو الحدو و بين هذه الحـال كما كان مأخوذاً بين الرقم والماء وما بين الفتل والذروة والغارب . وقد تجد بك حاجة إلى مفعول وإلى الجـار مع المجرور كقولك : وهل يجمع السيفان فى الغمد ؟ وأنت كمن يجمع السيفين فى غمد . ألا ترى أن الجمع فيه لا يغنى بتعديه إلى السيفين حتى يشترط كونه جمعاً لهما فى الغمد فمجموع ذلك كله يحصل الغرض وهكذا نحو قول العامة : هو كثير الجور على إلفه ، وقولهم : كمبتغى الصيد فى عِرِّيسة الأسد » لأن الصيد مفعول وفى عريســة جار مع المجرور .

فإذا ثبت هذا ظهر منه أنه لابد لك فى هذا الضرب من الشــبه من جملة صريحة أو حكم الجملة فالجملة الصريحة قولك : أخذ القوس باريها . وحكم الجملة أن تقول : هذا منك كالرقم فى المـاء والقبض على المـاء ، فتأتى بالمصدر أو تقول : كالراقم فى المـاء وكالقابض على المـاء فتأتى باسم الفاعل . وذاك أن المصــدر واسم الفاعل ليسا بجملتين صريحاً ولــكن حكم الجملة قائم فيهما وهو أنك أعملتهما عمل الفعل ، ألا ترى أنك عديتهما على حســب ما تعدى الفعل وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضــبط وقد وقفتك على الطريقة .

فهذا أحد الوجوه التى يكون الشبه العقلى بها حاصلا لك من جملة من الـكلام وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه .

---

(١) أى والحال النحوية مثل ما تقدم من المفعول والظرف .

وعلى الجملة فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيق والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل (إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس) كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت . وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه :

ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعد التشبيهات التى يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التى كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل تنسق ثانية منها على أولة وثالثة على ثانية وهكذا . فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما . ألا ترى أنك إذا قلت زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء ، لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاماً مخصوصا بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به فى الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد فى الشجاعة كان المعنى بحاله ، وقوله :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم[١]

إنما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشعر فأما أن تكون هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل فى الآية وواجباً فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء إذا رتبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صورة خاصة فلا[٢] .

وقد يجىء الشىء من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيها وتمثيلا ثم لا يكون كذلك عند حسن التأمل . مثال ذلك قوله :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت[٣]

هذا مثل فى أن يظهر للمضطر إلى الشىء الشديد الحاجة إليه أمارة وجوده ثم يفوته ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح . وقد يمكن أن يقال إن قولك « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت فى إفادة المقصود الذى هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة ، إلا أنه وإن كان كذلك فإن حقنا أن ننظر فى مغزى المتكلم فى تشبيهه . ونحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداءاً مطمعا بانتهاء مؤيس وذلك يقتضى وقوف الجملة الأولة على ما بعدها من تمام البيت . ووزان هذا أن الشرط والجزاء جملتان ولكنا نقول إن حكمهما حكم جملة واحدة .

---

(١) النشر : الريح الطيبة أو أعم . والعنم بالتحريك شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب .

(٢) وفى نسخة زيادة لفظ (مقررة) بعد خاصة .

(٣) وفى رواية النسخة الأخرى (رجوها) بدل رأوها وأقشعت انجلت يقال قشعت الريح السحاب (من باب منع) كشفته كأقشعته فأقشع وانقشع وتقشع ، مطاوع كتجلى وانجلى مطاوع جلاه وجلاه بمعنى أذهبه .

من حيث دخل فى الـكلام معنى يربط إحداها بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الإسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة . فلو قلت « إن تأتنى » وسكت لم يفد كما لا يفيد إذا قلت « زيد » وسـكت فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلا ولا كان منوياً فى النفس معلوماً من دليل الحال . ثم إن الأمر وإن كان كذلك فقد يجوز أن يخرج الـكلام عن الجزاء فتقول « تأتينى » فتعود الجملة على الإفادة لإغنائك لهـا عن أن ترتبط بأخرى وإزالتك المعنى الذى أوجب فقرها إلى صاحبة لها ، إلا أن الغرض الأول يبطل والمعنى يتبدل فـكذلك الاقتصار على الجـلة التى هى « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تخرج عن غرض الشاعر .

فإن قلت فهذا يلزمك فى قولك « هو يصفو ويكدر » وذلك أن الاقتصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل — وقصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين وأن الصفاء لا يدوم . فالجواب : أن بين الموضعين فرقاً وإن كان يغمض قليلا وهو أن الغرض في البيت أن يثبت ابتداء مطمعاً مؤنساً أدى إلى انتهاء مؤيس موحش ، وكون الشيء ابتداء لآخر هو له انتهاء معنى زائد على الجمع بين الأمرين والوصف بأن كل واحد منهما يوجد فى المقصود ، وليس لك فى قولك : يصفو ويكدر ، أكثر من الجمع بين الوصفين . ونظير هذا أن تقول هو كالصفو بعد الـكدر في حصول معنى يجب معه[1] ربط أحد الوصفين بالآخر فى الذكر ويتعين به العرض حتى لو قلت يكدر ثم يصفو لجئت بثم التى توجب الثانى مرتباً على الأول وأن أحدهما مبتدأ والآخر بعده — صرت بالجملة إلى حد مانحن عليه

---

(١) وفى نسخة يوجب بدل يجب .

من الارتباط ووجوب أن يتعلق الحكم بمجموعهما ويوجب الشبه إن شبهت ما بينهما على التشابك والتداخل ، دون التباين والتزايل .

ومن الواضح فى كون الشبه معلقاً بمجموع الجملتين حتى لا يقع فى الوهم تميز إحداهما على الأخرى قوله[١] « بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » وذلك أن المقصود من هذا الكلام التردد بين الأمرين وترجيح الرأى فيهما ، ولا يتصور التردد والترجيح فى الشىء الواحد ، فلو جهدت وهمك أن تتصور لقولك « تقدم رجلا » معنى وفائدة مالم تقل « وتؤخر أخرى » أو تنوه فى قلبك كلفت نفسك شططاً .

وذكر أبو أحمد العسكرى أن هـذا النحو من الكلام يسمى المماثلة . وهذه التسمية توهم أنه شىء غير المراد بالمثل والتمثيل ، وليس الأمر كذلك ، كيف وأنت تقول « مثلك مثل من يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ووزان هـذا أنك تقول : زيد الأسـد ، فيكون تشبيهاً على الحقيقة وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه ومثله أنك تقول : أنت ترقم فى الماء ، وتضرب فى حديد بارد ، وتنفخ فى غير فحم ، فلا تذكر مايدل صريحاً على أنك تشبه ولـكنك تعـلم أن المعنى على قولك : أنت كمن يرقم فى المـاء وكمن يضرب فى حديد بارد وكمن ينفخ فى غير فحم ، وما أشبه ذلك مما تجىء فيه بمشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال فى صفة اسمه أو صفته[٢] .

---

(١) قائله يزيد بن الوليد وكان كتب إلى محمد بن مروان وهو عامله بأرمينية يطالبه بالبيعة لجاء بكتاب غير صريح فيما يريد فكتب إليه : إنى أراك الخ (ش)

(٢) بأن يقال كعابث يرقم فى الماء ! وصفة اسمه بأن يقال كرجل الخ (ش)

واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهاً به ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة .

بيان هذا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة »[1] لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذي هو الإبل . فلو قلت الناس لا تجد فيهم راحلة أو لا تجد في الناس راحلة كان ظاهر التعسف . وههنا ما هو أشد اقتضاء للمحافظة على ذكر ما تعلق الجملة به وتسند إليه وذلك مثل قوله عز وجل : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية . لو أردت أن تحذف الماء الذي هو المشبه به وتنقل الكلام إلى المشبه الذي هو الحياة أردت ما لا تحصل منه على كلام يعقل لأن الأفعال المذكورة المحدث بها عن الماء لا يصح إجراؤها على الحياة ، فاحفظ هذا الأصل فإنك تحتاج إليه وخصوصاً في الاستعارة على ما يجيء القول فيه إن شاء الله تعالى .

والجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة كقولك : أنت الذي من شأنه كيت وكيت ، كقوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله)

---

(١) الحديث رواه مسلم عن ابن عمر بلفظ « تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » واختلفوا فيه على أقوال : قال النووي أجودها أن المرضى الأحوال الكامل من الناس قليل فيهم جداً كقلة الراحلة في الإبل ، قال قالوا والراحلة هي البعير الكامل الأوصاف الحسن المنظر القوي على الأحمال والأسفار ، سميت راحلة لأنها ترحل أي يجعل عليها الرحل ، فهي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية بمعنى مرضية ونظائره اهـ

(والثانى) أن يكون المشبه به نكرة تقع الجملة صفة له كقولنا : أنت كرجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » وأشباه ذلك .

(والثالث) أن تجىء الجملة مبتدأة وذلك إذا كان المشبه به معرفة ولم يكن هناك الذى كقوله تعالى (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) .

فصل

فى مواقع التمثيل وتأثيره

واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه[1] ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها

---

(١) يقول إن للتمثيل مظهرين ، ويتجلى للأنظار فى ثوبين (أحدهما) أن يجىء المعنى ابتداء فى صورة التمثيل ، وهو النادر القليل . ولكنه على قلته فى كلام البلغاء كثير فى القرآن العزيز ، فمنه قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) الآية وقوله بعدها (أو كصيب من السماء) الآية . وقوله عز وجل (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) وقوله تبارك وتعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) الآية وقوله تبارك اسمه (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) الآية ، وغير ذلك (وثانيهما) مايتأثر المعانى ويجىء فى أعقابها لا يضاحها وتقريرها فى النفوس وإيداعها التأثير المخصوص ، وهو الذى جعله المصنف أولا ، ومثاله من القرآن قوله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) فقد أورده بعد ماقرر أمر التوحيد من أول السورة وشنع على الذين اتخذوا من دونه أولياء يقربونهم إليه زلفى ، ونصب الدلائل على نفى هذا الشرك وذكر الجزاء . ومثله من الشعر مايجىء فى ضروب الكلام الآتية .

أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً .

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعِطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغُرِّ المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر[1] .

وإن كان ذماً كان مَسُّه أوجع ، ومِيسمه ألذع ، ووقعه أشد وحده أحد[2] .

---

(١) مثاله من القرآن قوله تعالى فى وصف الصحابة (ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ومن الشعر قولنا فى المقصورة :

وإن قسا وديده لان وإن	يكدر عليه راق ورداً وصفا
يؤمن منه الطيش فى شرته	والحلم والإغضاء منه يرتجى
تواضع عن شمم ورفعة	ورقة من غير عجز ونى
ألم تر الهواء فى رقته	ولطفه أوتى شدة القوى
يكاد يلمس الثريا رفعة	من حيث تلقاه يصافح الثرى

والتمثيل فى البيتين الأخيرين وهو من النوع الأول ، ومنها قول بعضهم :

فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(٢) مثاله من القرآن قوله تعالى فى الذى أوتى الآيات فانسلخ منها (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى يخرج لسانه من العطش أو التعب وهو من باب منع ، وقوله تعالى (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ومقمحون =

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر[١] .

وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد[٢] .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ، ولغرب الغضب أفل ، وفى عُقَد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث[٣] ،

= من أقمح الغل الأسير . ترك رأسه مرفوعاً لضيقه ، ومن الشعر قوله :

رأيتكم تبدون للحرب عـدة ولا يمنع الأسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ولا يمنع الخراف ماهو حامل

الخراف بالتشديد صيغة مبالغة اسم الفاعل من خرف الثمار إذا جناها ومنه المثل :

ولو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس يالك من حمار

(١) مثاله من القرآن ماتقدم من الآيات فى بيان طريقق التمثيل ومن الشعر قول أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لاتجرى على اليبس

وقول غيره :

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد

ومن الأمثال « إن العوان لاتعلم الخمرة » وهى بكسر المعجمة الهيئة من الخمار والعوان بالفتح النصف من النساء أى التى بين الشابة والعجوز ، والمثل يضرب فى المجرب العارف المستغنى عن التعليم ، ومنها « كدابغة وقد حلم الأديم » أى أفسده الحلم وهو بالتحريك دود صغير وقيل : الحلمة الصغيرة من القردان والضخمة ضد

(٢) الشأو السبق والغاية والأمد . وقوله أجد أى أعظم . والألد الشديد الخصومة . مايجىء فى القرآن من بيان عظمة الله تعالى وكماله لايسمى افتخاراً ومثال هذا الضرب من الكلام العزيز وإن اختلفت التسمية قوله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ومثاله من الشعر قول عبد المطلب :

لاينزل المجد إلا فى منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(٣) السخائم الضغائن ؛ وسلها : نزعها واستخراجها ، وغرب السيف . حده وفل السيف : ثلمه . والنفث فى العقد هو النفخ فيها مع إلقاء شىء من الريق عليها لأجل =

وإن كان وعظاً كان أشفى للصـــدر ، وأدعى إلى الفـكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلي الغياية[1] ، ويبصر الغـاية ، ويبرىء

= تسهيل حلها . ومنه نفث الراقي في العقدة التي يعقدها ثم يحلهـا يوهم بذلك الناس أنه أبرم بعقدها رابطة المحبة بين فلان وفلانة وبحلها أنه حل ذلك العقد وأبطل ذلك الارتباط بسحره ؟ وإن الـكلام البليغ ليفعل بحسن التمثيل في حل عقد العقود مالا يفعل السحر ، وإن من البيان لسحراً والاعتذار لايوجد في القرآن إلا حكاية عن أصحاب المعاذير الـكاذبة ليـكون الاعتذار حجة عليهم فهو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى وأثره ماذكر في الاحتجاج دون ماذكر هنا كقوله تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) وأما أمثلته في الشعر فـكثيرة منها :

لاتحسبوا أن رقصى بينكم طرب   فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

ومنها في الاعتذار عن صدود الحبيب :

بأبي حبيباً زارني في غفلة   فبدا الوشاة له فولى معرضاً
فـكأنني وكأنه وكأنهم   أمل ونيل حال بينهما القضا

ومن الاعتذار بذكر التمثيل ماوقع لأبي تمام في قصيدة يمدح بها أحمد بن المعتصم قيل : إنه كان ينشده إياها فبلغ قوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إياس

فلامه بعض الناس قائلا : قد شبهت ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم بأجلاف العرب (أو ماهذا معناه) فأطرق هنيهة وقال ولم يكونا من القصيدة :

لاتنـكروا ضربي له من دونه   مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وعمرو هذا هو ابن جابر بن هلال الفزاري ويقال العمران له ولبدر بن عمرو ابن جؤية الفزاري — ومما يصلح للاعتذار من الأمثال قولهم * كل امرئ في بيته صبي يعتذر به عن الدعابة والاسترسال في المباسطة في الخلوة وقولهم « لو ترك القطا ليلا لنام » .

(١) الغياية بياءين مثناتين كل ماأظلك من فوق رأسك

العليل ويشفى الغليل[١]

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه[٢] ، وإن أردت أن تعرف ذلك ، وإن كان تقل الحاجة فيه

---

(١) مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى فى وصف نعيم الدنيا (كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون (حطاماً) الكفار الزراع لأنهم يكفرون الحب أى يسترونه بالتراب ، وقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) الآية . وقوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) وقوله عز وجل : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وقوله سبحانه : (فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وقوله : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وقوله فى الآية الأخرى : (كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل) وقوله فى تمثيل من يحبط عمله الصالح بالإيذاء أو الرياء (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) وفى معناه قوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك ذلك هو الضلال البعيد) .

ومن الأمثال حديث : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وحديث : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، ومن الشعر قول ابن النبيه :

النـاس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وقول غيره :

وغير تقى يأمر النـاس بالتقى طبيب يداوى والطبيب مريض

(٢) يشير المصنف إلى سائر مناحى الكلام كالغزل والرثاء والوصف والشكوى وهى مع الذى ذكر وشائج متشابكة ، وأمشاج متمازجة . وأعمها الوصف فهو الطويل الذيل ، المتدفق السيل ، ومن أمثلته فى القرآن قوله تعالى : (ثم استوى =

إلى التعريف ويستغنى فى الوقوف عليه عن التوقيف فانظر إلى نحو قول البحترى

= إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) .
ومثله قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى) الآية ومنها قوله تعالى :
(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء
تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وقوله بعده : (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة
اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) ، وهكذا الحق يثبت والباطل يزهق . ومن
ذلك الرؤى فإنها تمثيل للواقع الذى تعبر به كالرؤى المذكورة فى سورة يوسف
عليه السلام . ومثاله من الشعر قول ابن النبيه :

والليل تجرى الدرارى فى مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره

وقول بعضهم فى وصف الكاس يعلوها الحباب والساقى (أو هذا من تعدد التشبيه) :

وكأنها وكأن حامل كأسها ... إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها ... بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وفى وصف الأمير والجيش :

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب

ومنه قولنا فى المقصورة فى وصف الوفاق :

لم تختلف فى مبتدا مسألة ... إلا وكان للوفاق المنتهى
كمن على المحيط من دائرة ... أنى تفارقا فبعد ملتقى

وقولنا منها فى وصف روضة :

والشمس تبدو من خلال دوحها ... آونة تخفى وطوراً تجتلى
كغادة وضاحة قد أتلعت ... من خلل السجوف ترنو والكوى
تلقى على الروض نثير عسجد ... فتحسب الروض عروساً تجتلى

وقولنا منها :

والباسقات رفعت أكفها ... تستنزل الغيث وتطلب الندى

ثبت فى العلوم الطبيعية أن الأشجار تكون سبباً لنزول المطر فمثلت هنا بحال
المستسقين يجاب دعاؤهم ويليه قولنا :

تمتلج الكربون من ضرع الهوا ... تؤثرنا بالأكسجين المنتقى =

دانٍ على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب[1]
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جدُّ قريب[2]

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يملى على الإنسان عيناه ، ويؤدى إليه ناظراه ، ثم قسمهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك ، وشدة تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتحببه إليك ، ونبله فى نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت ،

= ومعناه : أن الأشجار الباسقة ترضع غاز الكربون وتمتصه من الهواء تتغذى به وهو سام لنا وتترك لنا أكسجين الهواء المطهر للدم فى أبداننا باستنشاقنا له فى الهواء فمثلت بحال حى عاقل ينتزع ما يضر الناس ويؤثرهم بما ينفعهم .

وقول ابن دريد فى وصف النوق :

يرسبن فى بحر الدجى وفى الضحى يطفون فى الآل إذا الآل طفا

ومن أحسن ما يدخل من التمثيل فى باب الغراميات قول المجنون :

وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل بى النقض والإبرام حتى علانيا

وقوله :

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

وقول بعضهم :

ويلاه إن نظرت وإن هى أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

وقول الآخر :

إنى وإياك كالصادى رأى نهلا ودونه هوة يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماء عزّ مورده وليس يملك دون الماء منصرفا

ومن الأمثال التى تدخل من باب الشكوى : « ليس لها راع ولكن حلبة » حلبة بالتحريك جمع حالب ، والمثل يضرب للأمة المظلومة . و « لو كويت على داء لم أكره » يضرب لمن يعاقب على غير ذنب . و « سال بهم السيل وجاش بنا البحر »

(١) الضريب : المثل والنظير . (٢) أى بالغ الغاية فى القرب .

والحق فيما ادعيت »[1] .

وكذلك فتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً ، وتسكت . وبين أن تتلو الآية وتنشد قول الشاعر[2] :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر[3]
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الغرائر

والفصل بين أن تقول « أرى قوماً لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل فى الأخلاق دقة ، وفى الكرم ضعف وقلة ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء .

وقول ابن لَنْكَك :

فى شجر السرو منهم مثل له رُواء وما له ثمر

وقول ابن الرومى :

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ن ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول الآخر :

فإن طرة راقتك فانظر فربما أمرّ[4] مذاق العود والعودُ أخضر

وانظر إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ، ويَفتر ثغره ويبسم ، وكيف تشتار الأرى من مذاقته[5] ، كما ترى الحسن فى شارته[6] وأنشد قول ابن لنكك :

---

(١) مثال المدح ويتلوه مثال الذم .

(٢) الآية قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » . والشاعر مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة يهجو قوماً من رواة الشعر ، رواه ابن برى (ش) .

(٣) الزوامل : جمع زاملة وهى التى يحمل عليها من الإبل وغيرها ، والأباعر جمع بعير . (٤) أمر صار مراً كمر الثلاثى . (٥) الأرى : العسل . واشتياره : اجتناؤه . (٦) تطلق الشارة على الهيئة واللباس .

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا رأيت صورته من أقبح الصور

وتبين المعنى واعرف مقداره ثم أنشد البيت بعده :

وهبك كالشمس فى حسن ألم ترنا نفر منها إذا مالت إلى الضرر

وانظر كيف يزيد شرفه عندك ، وهكذا فتأمل بيت أبى تمام(١) :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعاً عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقص فى تعرف قيمته ، على وضوح معناه وحسن مزيته(٢) ثم أتبعه إياه :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته ، وأظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطرك بعرف عوده ، وأراك النضرة فى عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير ، وما فيه من التمثيل والتصوير .

وكذلك فرق فى بيت المتنبى :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه فى الصواب أنه خطأ . هل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه(٣) وقمعه وردعه ، والتهجين له والكشف عن نقصه ، ما بلغ التمثيل فى البيت وينتهى إلى حيث ينتهى .

---

(١) شروع فى مثال الحجاج

(٢) وفى نسخة بزته .

(٣) وقم الرجل : قهره وأذله ورده عن حاجته أقبح الرد ، والوقذ الضرب القاتل بغير محدد يكون أطول ألماً وأشد تعذيباً ولأجله حرمت الموقوذة ويسند إلى الكلام تجوزاً

وإن أردت[١] اعتبار ذلك فى الفن الذى هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول : إن الذى يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ، — وتقتصر عليه — وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء فى الخبر من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه » ويروى « مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق نفسها »[٢] وكذا فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه « إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك » وتمسك . وبين أن تقول فى أثره « إنك لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع » وأشباه ذلك . وكذا بين أن تقول : لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه . وبين أن تقول لا تنثر الدر قدام الخنازير . أو لا تجعل الدر فى أفواه الكلاب » وتنشد نحو قول الشافعى رحمه الله * أأنثر دراً بين سارحة الغنم *[٣] وكذا بين أن تقول : الدنيا لا تدوم ولا تبقى وبين أن تقول « هى ظل زائل ، وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع » وتذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم « من فى الدنيا ضيف وما فى يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » وتنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع   ولابد يوماً أن ترد الودائع

وقول الآخر :

إنما نعمة قوم متعة   وحياة المرء ثوب مستعار

---

(١) شروع فى أمثلة الوعظ ولم يمثل للافتخار والاعتذار .
(٢) بهذا اللفظ رواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن أبى برزة بسند حسن
(٣) المصراع الثانى « وأنثر منظوماً لراعية النعم * وهى أبيات قالها بمصر فى أثر مجيئه إليها لما كلمه بعض أصحاب مالك وآخرها :

فمن منح الجهال علماً أضاعه   ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فهذه جملة من القول تخبر عن صيغ التمثيل وتخبر عن حال المعنى معه ، فأما القول فى العلة والسبب : لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟ و بيان جهته ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه ، فغيرها . وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسباباً وعللاً كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكمل ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شى آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ؛ وعما يعلم بالفكر ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ؛ وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة[1] ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الألف كما قيل :

* ما الحب إلا للحبيب الأول *

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أمس بها رحماً ، وأقوى لديها ذمماً ، وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها فى الشىء بمثله عن

---

(١) هذه الجملة حديث نبوى رواه الطبرانى فى الأوسط والخطيب عن أبى هريرة ورويناه مسلسلا بالاشراف عن شيخنا أبى المحاسن القاوقجى ولا أذكر له رواية بزيادة ولا الظن كاليقين ورواه أحمد والحاكم والطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس بزيادة : « إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » .

المدرك بالعقل المحض ، وبالفكرة فى القلب ، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع ، وعلى حد الضرورة ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر ، إذا وقع المعنى فى نفسك غير ممثل ، ثم مثله كمن يخبر عن شىء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول ها هو ذا ، فأبصره تجده على ما وصفت .

(فإن قلت) إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك فى الأكثر ، أفتقول إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة ، ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك ؟ فالجواب أن المعانى التى يجىء التمثيل فى عقبها على ضربين غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدّعى امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب ، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس فى الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له حاجة إلى أن يصحح دعواه فى جواز وجوده على الجملة ، إلى أن يجىء إلى وجوده فى الممدوح . فإذا قال . « فإن المسك بعض دم الغزال » . فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلا فى الوجود ، وبرأ نفسه من صفة الكذب وباعدها من سفه المُقدِم على غير بصيرة ، والمتوسع فى الدعوى من غير البينة ، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته ، حتى لا يعد فى جنسه ،

إذ لا يوجد فى الدم شىء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه ، لا ما قل ولا ما كثر ، ولا فى المسك شىء من الأوصاف التى كان لها الدم دماً ألبتة .

(والضرب الثانى) أن لا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج فى دعوى كونه على الجملة إلى بينة وحجة و إثبات . نظير ذلك أن ينفى عن فعل من الأفعال التى يفعلها الإنسان الفائدة ، ويدعى أنه لا يحصل منه على طائل ثم يمثله فى ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه ، فالذى مثلت ليس بمنكر مستبدع ، إذ لا ينكر خطأ الإنسان فى فعله أو ظنه وأمله وطلبه . ألا ترى أن المغزى من قوله[1] :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

أنه قد خاب فى ظنه أنه يتمتع بها ، ويسعد بوصلها ، وليس بمنكر ولا عجيب ولا ممتنع فى الوجود ، خارج من المعروف المعهود ، أن يخيب ظن الإنسان فى أشباه هذا من الأمور ، حتى يستشهد على إمكانه ، وتقام البينة على صدق المدعى لوجدانه .

و إذا ثبت أن المعانى الممثلة تكون على هذين الضربين ؛ فإن فائدة التمثيل وسبب الأنس فى الضرب الأول بين لائح ، لأنه يفيد فيه الصحة ، وينفى الريب والشك ، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهجم المنكر وتهكم المعترض ، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر ، ويعلم كونه على ما أثبته عليه موازنة ظاهرة صحيحة .

وأما الضرب الثانى فإن التمثيل و إن كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة ، فهو يفيد أمراً آخر يجرى مجراه ، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى

(١) وفى نسخة المغزى فى قوله .

إقامة الحجة على صحة وجوده فى نفســه ، وزيادة التثبيت والتقرير فى ذاته وأصــله ، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر أولا إلى التشبيه الصريح الذى ليس بتمثيــل كقياس الشىء على الشىء فى اللون مثلا « كحنك الغراب[1] » تريد أن تعرف مقدار الشدة لا أن تعرف نفس السواد على الإطلاق .

وإذا تقرر هذا الأصل فإن الأوصاف التى ترد السامع فيهــا بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس وهى فى أنفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هل هى ممــكنة موجودة أم لا فإنهــا وإن غَنيتْ من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات ، فإنها تفتقر إليه من جهة المقــدار ، لأن مقاديرها فى العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال فى الفعل إنه من حال الفائدة على حدود مختلفة فى المبالغة والتوسط ، فإذا رجعت إلى ما تبصر وتحس عرفت ذلك بحقيقته وكما يوزن بالقسطاس ، فالشاعر لمــا قال : « كقابض على المــاء خانته فروج الأصابع » أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ فى خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ ، وانتهى فيه إلى أبعد الغايات ، حتى لم يحظ لا بما قل ولا ما كثر .

فهذا هو الجواب ونحن[2] بنوع مــن التسهيل والتسامح نقع على أن الأنس الحــاصل بانتقالك فى الشىء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

فأما إذا رجعنا إلى التحقيق فإنا نعــلم أن المشاهدة تؤثر فى النفوس مع

---

(١) حنك الغراب بالتحريك : منقاره أو سواده قالهما (ش) .
(٢) الجملة حالية .

العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى قوله (قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) والشواهد فى ذلك كثيرة والأمر فيه ظاهر . ولولا أن الأمر كذلك لما كان لنحو قول أبى تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

معنى . وذلك أن هذا التجدد لا معنى له إن كانت الرؤية لا تفيد أنساً من حيث هى رؤية وكان الأنس لنفيها الشك والريب أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل . وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت للرجل أنت مضيع للحزم فى سعيك ومخطىء وجه الرشاد وطالب لما لا تناله إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة ، ثم عقبته بقولك « وهل يحصل فى كف القابض على الماء شىء مما يقبض عليه » فلو تركنا حديث تعريف المقدار فى الشدة والمبالغة ونفى الفائدة من أصلها جانباً بقى لنا ما تقتضيه الرؤية للموصوف على ما وصف عليه من الحالة المتجدده مع العلم بصدق الصفة . يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهر فى وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شىء فأدخل يده فى الماء وقال أنظر هل حصل فى كفى من الماء شىء ؟ فكذلك أنت فى أمرك — كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل[1] ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلا فى تنافى الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال : هل يجتمع الماء والنار ؟ وذلك الذى تفعل

(١) جملة كان لذلك الخ جواب « لو كان الرجل مثلا » الخ

المشاهدة من التحريك للنفس ، والذى يجب بها من تمكن المعنى فى القلب * إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفة حيث تتصرف العينان ، وإلا فلا حاجة بنا فى أن الماء والنار لا يجتمعان ، إلى ما يؤكده من رجوع إلى مشاهدة ، واستيثاق بتجربة .

ومما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنساً ، وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى أو بيان لمقدار المبالغة فيه ، انك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التى تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع فى النفوس منزعاً ، نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم * وكأنه لا آخر له . وما شاكل ذلك من نحو قوله :

فى ليل صول تناهى العرض والطول   كأنما ليله بالحشر موصول[1]

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله :

* ويوم كظل الرمح قصر طوله[2] *

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى فى المبالغة من هذا ؛ فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته ، وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له ، وكذلك تقول : يوم كأقصر ما يتصور ، وكأنه ساعة وكلمح البصر و « كلا ولا » فتجد هذا مع كونه تمثيلا لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام كأباهيم القطا[3] . وقول ابن المعتز :

(١) البيت لحندج (كقنفذ) المرى . وصول بالضم بلدة إبراهيم الصولى المشهور والرواية الصحيحة فى الشطر الثانى * كأنما ليله بالليل موصول * أى كأن الأنهار بين لياليه .

(٢) البيت لشبرمة بن الطفيل وتمامه * دم الزق عنا واصطفاق المزاهر * ويروى : واصطكاك المزاهر . وشبرمة كقنفذة والطفيل بكسر فسكون ففتح .

(٣) ويقال أباهم أيضاً

بدّلت من يوم كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير موات(١)

وقول آخر :

ظللنا عند باب أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب(٢)

وكذا تقول فلان إذا هم بالشىء لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شىء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لا ترى فى نفسك له هزة ، ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثاً ساذجاً وخبراً غفلا(٣) ، حتى إذا قلت :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه(٤)

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة — كما يقول القاضى أبو الحسن — لا تملك دفعها عنك ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئاً منه فليس الأصل له بل لأن أراك العزم واقفا(٥) بين العينين ، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك باباً من العين .

وههنا — إذا تأملنا — مذهب آخر فى بيان السبب الموجب لذلك هو ألطف مأخذاً وأمكن فى التحقيق ، وأولى بأن يحيط بأطراف الباب . وهو أن لتصور الشبه من الشىء فى غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك له من

---

(١) واتاه يواتيه : طاوعه فهو موات وأصله الهمز .

(٢) السالفة : ناصية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة ومن الفرس هاديه أى ما تقدم من عنقه (ش) وقوله قلت الترقوة القلت بالفتح النقرة فى الجبل والمراد هنا نقرة الترقوة .

(٣) الغفل بالضم يوصف به ما يخلو من سمات كماله وحسنه يقال : فلاة غفل أى لا علم بها ، ورجل غفل لم تسمه التجارب ومصحف غفل إذا جرد عن العواشر ونحوها من المحسنات ، وكتاب غفل لم يسم واضعه . والكلام الغفل هنا ما ليس فيه من الحسن ما يؤثر فى النفس ويحرك الوجدان

(٤) الشطر لسعد بن ناشب وتمامه * ونكب عن ذكر العواقب جانبا *

(٥) وفى نسخة واقعاً .

غير محلته ، واجتلابه إليه من النيق البعيد[1] باباً آخر من الظرف واللطف ، ومذهباً من مذاهب الإحسان لايخفى موضعه من العقل . وأحضر شاهداً لك على هذا أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض فإن التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة ، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لا يقع بها اعتداد ، ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين فى الجنس ، فتشبيه العين بالنرجس عامى مشترك معروف فى أجيال الناس جار فى جميع العادات ، وأنت تنظر إلى بعد ما بين العينين و بينه من حيث الجنس . وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم المنور ، واللجام المفضض ، والوشاح[2] المفصل ، وأشباه ذلك — خاصى ، والتباين بين المشبه والمشبه به فى الجنس على مالا يخفى .

وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ؛ وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقة الإنسان وخلال الروض ، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعت هذه اللمحة[3] ولذلك تجد تشبيه البنفسج

---

(١) النيق بالنيق بالكسر أرفع موضع فى الجبل .

(٢) الوشاح بالضم وبالكسر كرسان من اللؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما عن الآخر — وأديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها والمراد هنا الثانى (ش) .

(٣) اللمحة بالفتح إما واحدة اللمح وهو اختلاس النظر ، وإما واحدة اللامح وهى محاسن الوجه (ش) .

فى قوله[1] :

ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من تشبيه النرجس ، بمداهن درحشوهن عقيق ، لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف[2] وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف[3] بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف[4] ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء فى إثارة التعجب ، وإخراجك إلى روعة[5] المستغرب ، وجودك الشيء فى مكان ليس من أمكنته ، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله فى ذاته وصفته ، ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبهاً فى شيء من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ .

---

(١) أى ابن المعتز ويروى البيتان هكذا .

بنفسج جمعت أوراقه فحكى كحلا تشرب دمعاً يوم تشتيت
كأنه وضعاف القضب تحمله أوائل النار فى أطراف كبريت

ويروى الشطر الثالث هكذا مع تأنيث الضميرين كما فى الرواية الأولى .

(٢) رف لونه يرف بضم الراء وكسرها رفا ورفيفاً برق وتلألأ . ورف النبات اهتز واضطربت أغصانه .

(٣) إما من شف يشف شفوفا إذا رق فحكى ما تحته ، أو من شف يشف شفا إذا تحرك (ش) .

(٤) الكلف بالتحريك لون بين السواد والحمرة ، وحمرة كدرة تعلو الوجه .

(٥) الروعة بالفتح الفزعة والمسحة من الجمال (ش) .

وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين فى الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ، ويثير الكامن من الاستظراف ، فإن التمثيل أخص شىء بهذا الشان ، وأسبق جار فى هذا الرهان ، وهذا الصنيع صناعته التى هو الإمام فيها ، والبادىء لها والهادى إلى كيفيتها ، وأمره فى ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه ، وعد محاسنه فى هذا المعنى ، والبدع التى يخترعها بحذقه ، والتأليفات التى يصل إليها برفقه ازدحمت عليك ، وغمرت جانبيك ، فلم تدر أيها تذكر ، ولا عن أيها تعبر ، كما قال :

إذا أتاها طالب يستامها تكاثرت فى عينه كرامها

وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق[1] وهو يريك المعانى الممثلة بالأوهام شبهاً فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين ، كما يقال فى الممدوح هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشىء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كما قال :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا سد ماء جار مع الإخوان

وكما يجعل الشىء حلواً مراً ، وصاباً عسلا ، وقبيحاً حسناً ، كما قال :

حسن فى عيون أعدائه أق بح من ضيفه رأته السوام[2]

---

(١) المشئم من أتى الشام ، والمعرق من أتى العراق .

(٢) وفى نسختنا وجوه أعدائه ولكن قال شيخنا : إن الرواية الصحيحة عيون أعدائه وإن قوله حسن خبر لمحذوف هو الممدوح ، وفى عيون صفة لأقبح الذى هو خبر ثان ، والسوام : الماشية .

ويجعل الشىء أسود أبيض فى حال كنحو قوله :

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع[1]

ويجعل الشىء كالمقلوب إلى حقيقة ضده كما قال :

غرة بهمة ألا إنما كنـ ـت أغرا أيام كنت بهيما[2]

ويجعل الشىء قريباً بعيداً معاً كقوله : * دان على أيدى العفاة وشاسع *
وحاضراً وغائباً كما قال :

أيا غائباً حاضراً فى الفؤاد سلام على الحاضر الغائب

ومشرقاً مغرباً كقوله :

له إليكم نفس مشرقة إن غاب عنكم مغرباً بدنه

وسائرا مقيما كما يجىء فى وصف الشعر الحسن الذى يتداوله الرواة وتتهاداه الألسن كما قال القاضى أبو الحسن :

وجوابة الأفق موقوفة تسير ولم تبرح الحضرة

---

(١) الأسفع : الأسود المشرب بحمرة والاسم السفعة بالضم

(٢) يصف الشيب بأنه غرة شديدة ، وإنما كان أغر فى الوقت الذى كان فيه بهيما أى أسود الشعر ، وفى رواية أبى هلال مرة بدل بهمة . هذا ما كتبته على البيت فى حاشية الطبعة الأولى وأجازه شيخنا إلا أنه علق على نسخة الدرس بازاء قوله غرة بهمة : أراد من الشدة أنها صعبة الاحتمال اه . ولم يظهر لى الآن وجه تفسير البهمة بالشديدة . ومن المعلوم أن الغرة فى الأصل البياض فى جبهة الفرس فوق قدر الدرهم ومنه فرس أغر والبهمة كالظلمة وزناً ومعنى . والبهيم الذى لا شية فيه من غير لونه ، ومنه ، ليل بهيم لا ضوء فيه ويطلق الأغر على الحسن والأبيض من كل شىء وعلى السيد الكريم ، فإذا كان يصف شيبه فهو يقول إنه أو أن لمته غرة كالظلمة فى قبحها وكراهته هو أو كراهة الحسان لها ، وأنه إنما كان رجلا أغر فى الوقت الذى كان شعره أسود بهيما

وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ، وأنت تجد إصابة الرجل فى الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مُثلت تارة بالهناء ومعالجة الإبل الجربى به[١] وأخرى بحز القصاب اللحم وإعماله السكين فى تقطيعه وتفريقه فى قولهم : « يضع الهناء مواضع النُقبَ (وهو الجرب) ويطبق المفصل[٢] » فانظر هل ترى مزيداً فى التناكر والتنافر على ما بين طلا القَطِران ، وجنس القول والبيان ، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف وكيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ويحمده الطبع . حتى إنك لربما وجدت لهذا المثل إذا أورد عليك[٣] فى أثناء الفصول ، وحين تبين الفاضل فى البيان من المفضول ، قبولا ولاما تجد عند فوح المسك ونشر الغالية[٤] وقد وقع ذكر الحز والتطبيق منك موقع ما ينفى الحزازات عن القلب ، ويزيل أطباق الوحشة عن النفس .

وتكاف القول فى أن للتمثيل فى هذا المعنى المدى الذى لا يجارى إليه . والباع الذى لا يطاول فيه ، كالاحتجاج للضروريات . وكفى دليلا على تصرفه فيه باليد الصناع ، وإيفائه على غايات الابتداع ، أنه يريك العدم وجوداً والوجود عدما ، والميت حياً والحى ميتاً ، أعنى جعلهم الرجل إذا بقى له ذكر جميل وثناء حسن بعد موته كأنه لم يمت وجعل الذكر حياة له

---

(١) الهناء بالكسر القطران والنقب كصرد الجرب قال عبد الباقى .

وما الهناء منكم بمشف نقباً وطالما أشفى الهناء النقبا

(٢) يقال طبق السيف إذا أصاب المفصل قال الشاعر فى وصف سيف :

* يصمم أحياناً وحينا يطبق * ويقال للبليغ : قد طبق المفصل ويقال أيضا

* يضع الهناء مواضع النقب * يعنون أنه ماهر مصيب .

(٣) وفى نسخة إذا ورد عليك .

(٤) النشر الرائحة الطيبة والغالية طيب معروف

كما قال : « ذكرة[١] الفتى عمره الثانى » وحكمهم على الخامل الساقط القدر الجاهل الدنىء بالموت . وتصييرهم إياه حين لم يكن ما يؤثر عنه ويعرف به كأنه خارج عن الوجود إلى العدم أو كأنه لم يدخل فى الوجود .

ولطيفة أخرى له فى هذا المعنى هى إذا نظرت أعجب ، والتعجب بها أحق ومنها أوجب ، وذلك جعل الموت نفسه حياة مستأنفة حتى يقال إنه بالموت استكمل الحياة فى قولهم : « فلان عاش حين مات » يراد الرجل تحمله النفس الأبية وكرم النفس والأنفة من العار على أن يسخو بنفسه فى الجود والبأس ففعل ما فعل كعب بن مامة[٢] فى الإتيان على نفسه ، أو ما يفعله الشجاع المذكور من القتال دون حريمه والصبر فى مواطن الاباء والتصميم فى قتال الأعداء ، حتى يكون له يوم لا يزال يذكر ، وحديث يعاد على مر الدهور ويُشهر ، كما قال ابن نباتة :

بأبى وأمى كل ذى نفس تعاف الضيم مرة
يرضى بأن يرد الردى فيميتها ويعيش ذكره

وانه ليأتيك من الشيء الواحد باشباه عدة ، ويشتق من الأصل

---

(١) الذكرة بالضم الصيت .

(٢) الظاهر أن يقال فيفعل كما فعل كعب بن مامه قال شيخنا هو الأبادى المشهور آثر رفيقه السعدى بالماء حتى مات عطشاً ونجا السعدى وله يقول حبيب :

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال له ولحاتم الطائى :

كعب وحاتم اللذان تقسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذى خلف السحاب ومات ذا فى الجهد ميتة خضرم صنديد
إلا يكن فيها الشهيد فقومه لا يسمحون له بألف شهيد

الواحد أغصاناً فى كل غصن ثمر على حدة ، نحو أن الزند بإيرائه[1] يعطيك شبه الجواد والذكى الفطن وشبه النجح فى الأمور والظفر بالمراد . وبإصلاده[1] شبه البخيل الذى لا يعطيك شيئاً ، والبليد الذى لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك . ويعطيك[2] من القمر الشهرة فى الرجل والنباهة والعز والرفعة . ويعطيك الكمال عن النقصان والنقصان بعد الكمال كقولهم : « هلال نما فعاد بدراً » يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذى يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معانى الشرف كما قال أبو تمام :

لهفى على تلك الشواهد منهما … لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما … كرماً وتلك الأريحية نائلا[3]
إن الهلال إذا رأيت نموه … أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وعلى هذا المثل بعينه يضرب مثلا فى ارتفاع الرجل فى الشرف والعز من طبقة إلى أعلى منها كما قال البحترى :

شرف تزيّد بالعراق إلى الذى … عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا[4]

---

(١) يقال ورى الزند (كوعد) وأورى إذا أخرج ناره ، ويقال أصلد إذا صوت ولم تخرج منه النار .

(٢) عطف على قوله يأتيك من الشىء الواحد الخ .

(٣) يروى حلماً بدل كرماً ، وقبل البيت الأخير

ولا عقب النجم المرذّ بديمة … ولعاد ذاك الظل جوداً وابلا

والرثاء لولدين لعبد الله بن طاهر ماتا فى يوم أحدهما هوى من سطح ؛ والآخر تردى فى بئر .

(٤) فى كتاب المسالك * عهدوه فى خمليخ أو بيلنجرا * وخمليج وبلنجر والبيضاء مدن الخزر اه وقوله تزيد بالعراق أى ابتدأت زيادته فيه ثم لا زال عتد إلى أن وصل إلى الذى عهدوه الخ ، والبيتان من قصيدة قالها فى مدح اسحق بن كنداج الخزرى القائد الكبير عند ما توج وقلد السيفين

مثل الهـلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالى فيـه حتى أقمرا

ويعطيك شبه الإنسان فى نشأته ونمائه إلى أن يبلغ حد التمام ، ثم تراجعه إذا انقضت مدة الشباب ، كما قال :

المرء مثل هـلال حين تبصره يبدو ضئيلا ضعيفاً ثم يتسق[(١)]

يزداد حتى إذا ما تم أعقبـه كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

وكذلك يتفرع من حالتى تمـامه ونقصانه فروع لطيفة فمن ذلك قول ابن بابك :

وأعرت شطر الملك شطر كماله والبدر فى شطر المسافة يكمل[(٢)]

قاله فى الأستاذ أبى على وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب وأبا العباس الضبى وخلع عليهما[(٣)] . وقول أبى بكر الخوارزمى :

أراك إذا أيسرت خيمت عندنا مقيما وإن أعسرت زرت لماما[(٤)]

فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغب وإن زاد الضـياء أقاما

المعنى لطيف وإن كانت العبارة لم تساعده على الوجـه الذى يجب فإن الأغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخـلو منه . وإنمـا يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليـلة بل يظهر فى بعض الليالى

(١) اتسق الأمر انتظم ، والقمر كمل وتم نوره .

(٢) يرى نوب كماله .

(٣) وأبا العباس الضبى عطف على ضمير استوزره وهو أحمد بن ابراهيم الضبى ولاه الوزارة فخر الدولة أولا ولقب بالرئيس ، ثم ولى بعده الأسـتاذ أبا على الجليل وهجاهما أحد الشعراء من بيت المنجم فقال :

والله والله لا أفلحـتم أبدا بعد الوزير ابن عباد ابن عباس

إن جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى أو جاء منكم رئيس فاقطعوا راسى

(٤) لماما بالكسر أى غبا .

ويمتنع من الظهور فى بعض وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار . وقال ابن بابك فى نحوه

كذا البدر يسفر فى تمه فإن خاف نقص المحاق انتقب

وهكذا ينظر إلى مقابلته الشمس واستمداده من نورها وإلى كون ذلك سبب زيادته ونقصه وامتلائه من النور والائتلاق ، وحصوله فى المحاق ، وتفاوت حاله فى ذلك ، فيصاغ منه أمثال ويبين أشباه ومقاييس ، فمن لطيف ذلك قول ابن نباتة :

قد سمعنا بالغر من آل ساسا ن ويونان فى العصور الخوالى
والملوك الأولى إذا ضاع ذكر وُجدوا فى سوائر الأمثال
مكرمات إذا البليغ تعاطى وصفها لم يجده فى الأقوال
وإذا نحن لم نضفها إلى مد حك كانت نهاية فى الكمال
إن جمعناها أضر بها الجمـ ـع وضاعت فيه ضياع المحال
فهو[1] كالشمس بُعدها يملأ البـ ـدر وفى قربها محاق الهلال

وغير ذلك من أحواله كنحو ما خرج من الشبه من بعده وارتفاعه[2] ، وقرب ضوئه وشعاعه ، فى نحو ما مضى من قول البحترى : « دان على أيدى العفاة » البيتين . ومن ظهوره بكل مكان ، ورؤيته فى كل موضع كقوله :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نوراً ساطعاً

فى أمثال كذلك تكثر . ولم أعرض لما يشبه به من حيث المنظر وما تدركه العين نحو تشبيه الشىء بتقويس الهلال ودقته ، والوجه بنوره وبهجته ، فإنا فى ذكر ما كان تمثيلا وكان الشبه فيه معنويا .

---

(١) قوله فهو أى « مدحك » والخطاب للممدوح
(٢) أى القمر

فصــــــل آخر

وإن كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره ، وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلا فهو فى الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة فى طلبه . وما كان منه ألطف ، كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر ، واحتجابه أشد .

ومن المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال :

وهنّ ينبذن[1] من قول يصبن به   مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه ، وتقدم المطالبة من النفس به ، فإن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً فى فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس . ألا تراهم قالوا : إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك ، أسبق من لفظه إلى سمعك ، فالجواب انى لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب ، وإنما أردت القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قوله :

* فإن المسك بعض دم الغزال *

وقوله :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

وقوله :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا   كأنك مستقيم فى محال

---

(١) النبذ : الطرح وإلقاء الشىء وفعله من باب ضرب .

وقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله : (١)

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول البحترى :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم ... وللسيف حد حين يسطو ورونق

وقول امرىء القيس : * بمنجرد قيد الأوابد هيكل * (٢)

وقوله :

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ... جذع البصيرة قارح الأقدام (٣)

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعنى ، كالجوهر فى الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ؛ ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول إليه ، فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ،

---

(١) أى الشاعر المجهول لا النابغة .

(٢) المنجرد من الخيل الأجرد وهو قصير شعر الجلد ، وذلك ممدوح فيها والاوابد جمع آبدة للوحوش والطيور التى تقيم فى مكان واحد لا تظعن صيفاً ولا شتاء ، ويستعار لفظ « قيدالاوابد » للفرس الجواد كأنه لسرعة عدوه وادراكه لها قيد يمنعها الفرار حتى كأنها مقيدة به .

(٣) الجذع بالتحريك الحدث والشاب الذى استكمل قوته ، وأصله فى الأنعام والدواب وتختلف السن فيها ، وجمعه جذاع وجذعان بضم الجيم وكسرها ، والقارح من ذى الحافر كالبازل من الأبل ما قرح نابه أى طلع ، وهو الذى بلغ نهاية السن التى ليس بعدها سن تسمى ويكون فى التاسعة وما بعدها . وإذا استعمل اللفظان فى الناس يراد بالجذع الحدث النشيط وبالقارح العاقل المجرب ، قال الحريرى : وبرز فيها الجذع على القارح .

ويكون فى ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له وكان :

من النفر البيض الذين إذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا[1]

أو كما قال :

تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى يمثله تحصل الدلالة على الغرض ، حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة و يسعى إليه من غير الطريق كقوله :

وكذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

و إنما ذم هـذا الجنس لأنه أحوجك إلى فـكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله[2] ، وكدك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك ، و إذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن .

هذا — و إنما يزيد الطلب فرحاً بالمعنى ، وأنساً به ، وسروراً بالوقوف عليه ، إذا كان لذلك أهلا . فأما إذا كنت معه كالغائص فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ، ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به . ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، و يؤرقك ثم لا يروق لك ، وما سبيله إلا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم

---

(١) قعقعوا أى حركوا الحلقة التى هابها غيرهم ليسمع صوت قعقعتها فيفتح لهم كدأبهم وعاداتهم .

(٢) مثله بغير تعقيد قول عبد الحميد بك الرافعى الطرابلسى المعاصر

* بين السيوف وعينها مناسبة من أجلها قيل للأغماد أجفان *

فى نفسه ، وفساد فى حسه ، إلى أن لا يرضى بضعته فى بخله ، وحرمان فضله ، حتى يأبى التواضع ولين القول فيتيه ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له باباً ثانياً من الاحتمال تناهياً فى سخفه ، أوكالذى لا يؤيسك من خيره فى أول الأمر فتستريح إلى اليأس ، ولكنه يطمعك ويسحب على المواعيد الكاذبة ، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد تكشف عن غير طائل ، وحصلت منه على ندم لتعبك فى غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسفه فى اللفظ وذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه ، وإغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه ويضل فى تعريفه ، كقوله :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن ... لاثنين ثان إذ هما فى الغار[1]

وقوله :

يدى لمن شاء رهن من يذق جرعا ... من راحتيك درى ما الصاب والعسل[2]

---

(١) البيت من قصيدة فى مدح المعتصم ، وقيل : المأمون ، وفى رواية « لاثنين ثانى » ورواية أخرى « ثانياً » بالنصب مع تسهيل همزة (إذ) والرواية الرابعة « لإثنين ثالثاً » وقبل البيت قوله :

واعلم بأنك إنما تلقيهم ... فى بعض ما حفروا من الآبار
لو لم يكد للسامرى قبيله ... ما خار عجلهم بغير خوار
وثمود لو لم يدهنوا فى ربهم ... لم ترم ناقته بسهم قدار
ولو شفا الأحشاء من برحائها ... أن صار بابك جار مازيار

وبعده البيت ، والبرحاء شدة الأذى وبابك ومازيار علمان لرجلين

(٢) البيت من قصيدة يمدح بها المعتصم أيضا وقبل البيت

كان أمواله والبذل يمحقها ... نهب تعسفه التبذير والنفل
شرست بل لنت قانيت ذاك بذا ... فانت لا شك فيه السهل والجبل

ولو كان الجنس الذى يوصف من المعانى باللطافة و يعد فى وسائط العقود[(١)] لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه ، و ببعض الادلال عليك ، واعطائك الوصل بعد الصد ، والقرب بعد البعد ، لكان « باقلّى حارّ » و بيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحداً[(٢)] ولسقط تفاضل السامعين فى الفهم والتصور والتبيين . وكان كل من روى الشعر عالماً به وكل من حفظه — إذا كان يعرف اللغة على الجملة — ناقداً فى تمييز جيده من رديئه . وكان قول من قال :

زوامل للأشعار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر

وكقول ابن الرومى :

قلت لمن قال لى عرضت على الأخـ ... ـفش ما قلته فما حمده[(٣)]

قصرت بالشعر حين تعرضه ... على مبين العمى إذا انتقده

ما قال شعراً ولا رواه فلا ... تعلبه كان لا ولا أسده

فإن يقل إننى رويت فكالدفـ ... ـتر جهلا بكل ما اعتقده

وما أشبه ذلك دعوى[(٤)] غير مسموعة ولا مؤهلة للقبول فإنما أرادوا بقولهم « ما كان معناه إلى قلبك ، أسبق من لفظه إلى سمعك » أن يجتهد المتكلم

وفى الديوان المطبوع « تقسمه التبذير أو نفل » والنفل بالتحريك الغنيمة والهبة والزيادة وفيه أيضا « فيك السهل والجبل » بكاف الخطاب .

(١) الوسائط جمع واسطة ما كان من الجوهر فى وسط العقد وهو أجوده .

(٢) الباقلى بتشديد اللام والقصر ويمد الفول أى لكان نداء بائع الفول السخن بهذه الكلمة « باقلّى حار » وبيت شعر هو بحيث وصفه من الحسن متساويين لا تفاضل بينهما .

(٣) يريد على بن سليم الأخفش والأبيات من قصيدة طويلة مطلعها :

رقاب أهل الحلوم معتمدة ... مقصودة بالهوان معتمدة

(٤) كلمة دعوى خبر قوله : وكان قول من قال الخ .

فى ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه الصبيان ويتكلم به العامة فى السوق .

هذا — وليس إذا كان الكلام فى غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ، فإن المعانى الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق . أفلست تحتاج فى الوقوف على الغرض من قوله : « كالبدر أفرط فى العلو » إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز فى كونه دانياً شاسعاً وترقم ذلك فى قلبك ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثانى عليك من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر إليه كيف شرط فى العلو الإفراط ليشا كل قوله « شاسع » لأن الشسوع هو الشديد من البعد ثم قابله بما لا يشا كله من مراعاة التناهى فى القرب فقال « جد قريب » . فهذا هو الذى أردت بالحاجة إلى الفكر ، وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك فى طلبه واجتهاد فى نيله .

هذا — وإن توقفت فى حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر فى تحصيله فهل تشك فى أن الشاعر الذى أداه إليك ، ونشر بَزّه لديك ، قد تحمل فيه المشقة الشديدة ، وقطع إليه الشقة البعيدة ، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص ، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص ؟ ؟ ومعلوم أن الشىء إذا علم أنه لم ينل فى أصله إلا بعد التعب ، ولم يدرك إلا باحتمال النصب ، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ، ما يكون لمباشرة الجهد فيه ، وملاقاة الكرب دونه ، وإذا عثرت بالهوينا

على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملة أنه الذى كد الطالب ، وحمّل المتاعب . حتى إن لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك ، ومحبة للثناء تستخرج النفيس من يديك كان من أقوى حجج الضنّ الذى يخامر الإنسان أن تقول « إن لم يكدنى فقد كد غيرى » كما يقول الوارث المال المجموع عفواً إذا ليم على بخله به ، وفرط شحه عليه : إن لم يكن كسبى وكدى ، فهو كسب والدى وجدى ، ولئن لم ألق فيه عناء لقد عانى سلفى فيه الشدائد ، ولقوا فى جمعه الأمرين[1] أفأضيع ما ثمروه ، وأفرق ما جمعوه ، وأكون كالهادم لما أنفقت الأعمار فى بنائه ، والمبيد لما قصرت الهمم على إعلائه .

وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ، ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ويبلغ فى هذا مبلغه . فإنه ليروض لك المهر الارن رياضة الماهر[2] حتى يعنق من تحتك اعناق القارح المذلل[3] وينزع من شماس الصعب الجامح ، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة إلى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادى منك ملآن وسرى فيك إعلان

وقوله :

* عن أى ثغر تبتسم *

---

(١) لقى منه الأمرين . ونزل به الأمران . مثل يضرب فى لقاء الشعر وعظائم الأمور . والأمران الهرم والمرض أو الفقر والهرم .

(٢) الارن البطر المرح معنى ووزنا وفعلا

(٣) اعنق الفرس أسرع وسار العنق بالتحريك سير فسيح واسع للأبل والدواب . والقارح ما قرح نابه أى طلع .

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها إلا لأنه لم يفهم معانيها كما فهم معانى النوع النازل الذى انحط له إليه ؟ أتراك تستجيز أن تقول إن قوله * منى النفس فى أسماء لو تستطيعها[1] * من جنس المعقد الذى لا يحمد ، وإن هذه الضعيفة الأسر[2] الواصلة إلى القلوب من غير فكر ، أولى بالحمد وأحق بالفضل .

هذا — والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرّفه[3] ويشيك طريقك إلى المعنى[4]

---

(١) مطلع قصيدة من غرر قصائده فى مدح المتوكل قال :

منى النفس فى أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها
وقد راعنى منها الصدود وإنما تصد لشيب فى عذارى يروعها

ومنها فى المدح :

ولما رعى سرب الرعية ذادها عن الجدب مخضر التلاعب مريعها
علمت يقيناً مذ توكل جعفر على الله فيها إنه لا يضيعها

التلاعب بالكسر جمع تلعة بالفتح وهى مسيل الماء وما اتسع من قوهة الوادى والقطعة المرتفعة من الصحراء ، والمريع كالخصيب وزنا ومعنى ومنها فيه :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها باحقادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر أعز نفوسها عليها بأيد ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها
فلو لا أمير المؤمنين وطوله لعادت جيوب والدماء دروعها

والقصيدة كلها محاسن ولكن ينقل عن المتوكل أنه قال ما زال يقول «عها عها» حتى كدنا نقىء . وهذا هو مراد لمصنف بقوله . لأنه لم يفهم معانيها الخ .

(٢) الأسر إحكام الخلقة ومنه : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .

(٣) عثره واعثره جعله يعثر

(٤) أشاك الطريق أدخل الشوك فيه .

ويوعر مذهبك نحوه . بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك[1] حتى لا تدرى من أين تتوصل وكيف تطلب .

وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده ، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار ، وأوقد فيه الأنوار ، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته ، وتقطعه قطع الواثق بالنجح فى طيته[2] فترد الشريعة[3] زرقاء والروضة غناء[4] فتنال الرى ، وتقطف الزهر الجنى[5] ، وهل شىء أحلى من الفكرة إذا استمرت وصادفت نهجاً مستقيما ، ومذهباً قويما ، وطريقة تنقاد ، وتبينت لها الغاية[6] فيما ترتاد ، فقد قيل : قرة العين وسعة الصدر وروح القلب وطيب النفس ، من أربعة أمور : الاستبانة للحجة ، والأنس بالأحبة ، والثقة بالعدة ، والمعاينة للغاية . وقال الجاحظ فى أثناء فصل يذكر فيه ما فى الفكر والنظر من الفضيلة : « وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة[7] ، ولذة السبع بلطم الدم[8] وأكل اللحم ؛ من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه ، وبعد فإذا أعدت

(١) من شعب الشىء إذا فرقه .

(٢) الطية بالكسر اسم هيئة من طوى الأرض فى سفره ، قال شيخنا فى طيته : فيما طوى قصده عليه ، أقول وفى الأساس : مضى لطيته وأين طيتك وأمتك « بالفتح أى ما تؤمه وتقصده » وبعدت عنا طيته وهى الجهة التى إليها يطوى البلاد .

(٣) الشريعة : مورد الشاربة من النهر .

(٤) الغناء بالتشديد كثيرة الشجر ، يقال عن الوادى يغن بفتح الغين إذا كثر شجره .

(٥) هو ما جنى من ساعته فهو غض ليس بذابل .

(٦) الغاية فاعل تبينت .

(٧) العلوفة بالفتح ما تأكله الدابة وجمعه علف بضمتين والعليفة والعلوفة الناقة تعلفها ولا ترسلها إلى المرعى « ش » وفى المصباح : العلوفة وزان حلوبة وركوبة ما يعلف من الغنم وغيرها يطلق بلفظ واحد على الواحدة والجمع وهو من علف الدابة علفاً من باب ضرب واسم المعلوف علف بفتحتين وجمعه علاف كجبل وجبال .

(٨) لطع الدم — من باب فتح — شربه أو لحسه .

الحلبات[1] لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف ليعرف فضـل الرماة فى الإبعاد والسّداد ، فرهان العقول التى تستبق ، ونضالها الذى تمتحن قواها فى تعاطيه هو الفـكر والروية والقياس والاستنباط » .

وإن يبعد المدى فى ذلك ولا يدق المرمى إلا بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة . فإن الأشياء المشتركة فى الجنس ، المتفقة فى النوع ، تستغنى بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تعمُّـل وتأمل فى إيجاب ذلك لها ، وتثبيته فيها ، وإنما الصنعة تستدعى جودة القريحة والحذق ، الذى يلطف ويدق ، فى أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات فى ربقة[2] ويعقـد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة[3] وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفـكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى مالا يحتاج إليه غيرهما ويحتكمان على من زاولهما والطالب لهما فى هذا المعنى[4] ما لا يحتكم ماعداهما . ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة إيجاد الائتلاف فى المختلفات ، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التى تنسب إلى الدقة فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا فى الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لمصورها أوجب .

---

(١) الحلبات جمع حلبة بالفتح وهى مجال الخيل للسباق ، ويقال للخيل التى تأتى من كل أوب حلبة (أساس)

(٢) الربق بالـكسر (وازن حمل) حبـــل فيه عدة عروى تشد به البهم وكل عروة من العرا التى فيه تسمى ربقة ويجمع أيضا على رباق وربقت الشاة (من باب قتل) أدخلت عنقها فى الربقة فهى ربيقة ومربوقة ومن المجاز ربقته فى الأمر . وفى الحديث « خلع ربقة الإسلام من عنقه » .

(٣) الشبكة بالضم نسب القرابة ولحمتها «ش»

(٤) أى دقة الفكر ولطف النظر

وإذا كان هذا ثابتاً موجوداً ، ومعلوما معهوداً ، من حال الصور المصنوعة ، والأشكال المؤلفة ، فاعلم أنها القضية فى التمثيل واعمل عليها واعتقد صحة ما ذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه فى الجنس ، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال حتى يكون[1] هذا شخصاً يملأ المكان وذاك معنى لا يتعدى الأفهام والأذهان ، وحتى أن هذا إنسان يعقل ، وذاك جماد أو موات لا يتصف بأنه يعلم أو يجهل ، وهذا نور شمس يبدو فى السماء ويطلع . وذاك معنى كلام يوعى ويسمع ، وهذا روح يحيي به الجسد ، وذاك فضل ومكرمة تؤثر وتحمد ، كما قال :

إن المكارم أرواح يكون لها   آل المهلب دون الناس أجساداً

وهذا مقال متعصب منكر للفضل حسود ، وذاك نار تلتهب فى عود . وهذا مخلاف وذاك ورق خلاف[2] كما قال ابن الرومى :

بذل الوعد للاخلاء سمحاً   وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعيـ   ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وهذا رجل يروم العدو تصغيره والأزراء به فيأبى فضله إلا ظهوراً . وقدره إلا سمواً . وذاك شهاب من نار تصوب وهى تعلو . وتخفض وهى ترتفع . كما قال أيضاً :

ثم حاولت بالمثيقيل تصغيـ   ـرى فما زدتنى سوى التعظيم
كالذى طأطأ الشهاب ليخفى   وهو أدنى له إلى التضريم

وأخذ هذا المعنى من كلام فى حكم الهند وهو أن الرجل ذا المروءة والفضل

---

(١) قوله حتى يكون : غاية فى الانفصال « ش » .

(٢) الخلاف بالكسر شجر الصفصاف .

ليكون خامل المنزلة غامض الأمر فما تبرح به مروءته وعقله حتى يستبين ويعرف كالشعلة من النار التي يصوبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا .

هذا هو الموجب للفضيلة ، والداعي إلى الاستحسان . والشفيع الذي أحظى التمثيل عند السامعين ، واستدعى له الشغف والولوع من قلوب العقلاء الراجحين ، ولم تأتلف هـذه الأجناس المختلفة المتمثل ، ولم تتصادف[1] هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه ، إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين ، ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية ، بل بما تعلق الروية[2] ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة ، ثم على حسب دقة المسلك ، إلى ما استخرج من الشبه ولطف المذهب ، وبعد التصعد إلى ما حصل من الوفاق استحق مدركه[3] ذلك المدح ، واستوجب التقديم ، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره ، وتقضي بالجنى في نتائج فكره[4] ، نعم وعلى حسب المراتب في ذلك وأعطيته في بعض منزلة الحاذق الصنع[5] ، والملهم المؤيد ، والألمعي المحدث[6] ، الذي سبق إلى اختراع نوع من الصنعة ، حتى يصير إماماً ويكون من بعده

---

(١) تتلاقى .

(٢) الروية النظر والتفكر وتعلق بفتح التاء والعين وتشديد اللام أصله تتعلق أي تهوى ويقال علق بالمرأة « كتعب » وتعلقها إذا هويها .

(٣) ضبطه شيخنا بصيغة اسم المفعول من أدرك .

(٤) الجنى بالفتح مصدر جنى الثمرة والثمرة نفسها وكل ما يجنى ما دام غضا .

(٥) يقال صنع اليدين وصنعهما بكسر النون بالتحريك أي حاذق ماهر .

(٦) الألمعي الذكي المتوقد والمحدث بالفتح والتثقيل الصادق الحدس كأنما حدث بما ظن ، والمحدثون بالفتح الملهمون وكان عمر بن الخطاب منهم كما صح في الحديث .

تبعاً له وعيالا عليه ، وحتى تعرف تلك الصنعة بالنسبة إليه ، فيقال صنعة فلان وعمل فلان . ووضعته فى بعض موضع المتعلم الذكى ، والمقتدى المصيب فى اقتدائه الذى يحسنُ التشبه بمن أخذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذى استفاد ، ويجتهد أن يزداد .

واعلم أنى لست أقول لك انك متى ألفت الشيء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت ، ولكن أقوله بعد تقييد ، وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس ، وفى ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولا ، وتجد الملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهباً وإليهما سبيلا ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك[(١)] من حيث العقل والحدس ، فى وضوح اختلافهما من حيث العين والحس ، فاما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا . لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق ، يضع فى تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة ، وتجيء فيها نتوّ[(٢)] ، ويكون للعين عنها من تفاوتها نُبو ، وإنما قيل شبهت ولا تعنى فى كونك مشبهاً أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير ، إنما تكون مشبهاً بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه ، ولا يمكنك بيان ما لا يكون ، وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون .

ولم أرد بقولى إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات فى الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ؛ فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد

---

(١) وجب التشبيه : يكون منشأ له والاعتبار الذى سوغه (ش)

(٢) قوله « فيها نتو » حال من ضمير تجيء وهو تشديد الواو وأصله بالهمزة نتوء

استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق فى المعانى كالغائص[1] على الدر . ووزان ذلك أن القطع التى يجىء من مجموعها صورة الشنف[2] والخاتم أو غيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكن ذلك التناسب أن يلائم بينها الملاءمة المخصوصة ويوصل الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة .

ألا ترى أنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها فى الشكل ثم أردتها على أن تصير إلى الصورة التى كانت من تلك الأولى طلبت مايستحيل ، فإنما استحققت الأجرة على الغوص وإخراج الدر ، لا ان الدر كان بك ، واكتسى شرفه من جهتك ، ولكن لما كان الوصول إليه صعباً وطلبه عسيراً ثم رزقت ذلك وجب أن يجزل لك ويكبر صنيعك .

ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين فى الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التى بها شبهت ، إلا أنه كان خفياً لا ينجلى إلا بعد التأنق فى استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض ، والتقاط النكتة المقصودة منها ، وتجريدها من سائر مايتصل بها ، نحو أن يشبه الشىء بالشىء فى هيئة الحركة فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة ، والهيئة مجردة من الجسم وسائر ما فيه من اللون وغيره من الأوصاف كما فعل ابن المعتز فى تشبيه البرق حيث قال :

وكأنّ البرق مصحف قار فانطباقا مرّة وانفتاحا

---

(١) كالغائص حكاية للتشبيه ، ولعل أصله بالغائص لأنه لا يحتاج إلى التقدير .
(٢) الشنف بالفتح القرط الأعلى ج شنوف .

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوه انضمام ، ثم فكر في نفسه عن هيآت الحركات لينظر أيها أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارىء من الحركة الخاصة في المصحف إذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط ، بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه ، فبمجموع الأمرين — شدة ائتلاف في شدة اختلاف — حلا وحسن ، وراق وفتن .

ويدخل في هذا الموضع الحكاية المعروفة في حديث عدى بن الرقاع قال جرير أنشدني عدى : * عرف الديار توهماً فاعتادها »[1] . فلما بلغ إلى قوله : * تزجى أغن كأنّ ابرة روقه *[2] . رحمته وقلت قد وقع ، ماعساه يقول وهو أعرابي جلف جاف ؟ فلما قال : * قلم أصاب من الدواة مدادها * استحالت الرحمة حسداً[3] . فهل كانت الرحمة في الأولى ، والحسد في الثانية

---

(١) تمام البيت : * من بعد ما شمل البلى ابلادها * والابلاد قطع الأرض عامرة أو غامرة أو الآثار في قول بعضهم والقصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك ، ومنها :

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

ومنها :

تأتيه أسلاب الأعزة عنوة قسراً ويجمع للحروب عتادها
وعلمت حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي أزدادها

(٢) الازجاء السوق والأغن ذو الغنة وهي صوت يتردد بين اللهاة والأنف كنون « منك » وكذلك صوت الظبي ولذلك غلب عليه لقب الأغن والروق القرن وابرته رأسه وتكون سوداء .

(٣) يقال إن الفرزدق كان حاضراً إنشاد القصيدة وانه عندما بلغ عدى قوله : تزجى أغن الخ قال أي الفرزدق لجرير ؟ ما تراه يستاب بهذا تشبيها فقال جرير :

إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له فى أول الفكر وبديهة الخاطر وفى القريب من محل الظن شبهه[1] وحين أتم التشبيه وأداه صادفة قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف ؟ وعلى ذلك استحسنوا قول الخليل ، فى انقباض كف البخيل :

كفاك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة كما نقصت مائة سبعه
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئيها لها منعه[2]

وذلك أنه أراك شكلا واحداً فى اليدين ، مع اختلاف العددين ومع اختلاف المرتبتين فى العدد أيضاً لأن أحدهما من مرتبة العشرات والآحاد والآخر من مرتبة المئين والألوف . فلما حصل الاتفاق كأشد ما يكون فى شكل اليد مع الاختلاف كأبلغ ما يوجد فى المقدار والمرتبة من العدد كان التشبيه

= * قلم أصاب من الدواة مدادها * قال فما رجع الجواب حتى قال عدى دلك ، فقال ويحك لكأن سمعك فى فؤاده مخبؤ إقفال . جرير : أسكت فقد شغلنى سبك عن جيد الكلام (ش) .

(١) شبه فاعل يحضر .

(٢) الأبيات من المتقارب وفى الأول الخرم ومعناها انه قابض كلتا يديه وبيانه فى حل مسألة العقد وهى أن اليمنى التى يعقدون بها للآحاد والعشرات إذا أردت أن يعقد بها ٩٣ وهى المائة تنقصها سبعة تقبض الخنصر والبنصر والوسطى بحيث تكون الأظافر فى باطن الكف وهى عقدة الثلاثة وتقبض السبابة وتجعل ظفرها ظاهراً (لأن ظهور الأظافر للعشرات وإخفاءها للآحاد) وتضع الإبهام على ظهرها وهى عقدة التسعين فتلك ٩٣ ما حصلت إلا من قبض الكف . وأما اليسرى التى يعقد بها المئين والألوف تكون مقبوضة بعقد ٣٩٠٠ وذلك أن تقبض الخنصر والبنصر والوسطى وهى عقدة ٣٠٠٠ وتقبض السبابة وتحلق عليها بالإبهام (كعقدة ٩٠ فى اليمنى) وهى عقدة ٩٠٠ فتلك ٣٩٠٠ حصلت بقبض اليد اليسرى أيضاً .

بديماً . قال المرزبانى : وهذا مما أبدع فيه الخليل لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين فى العدد متشاكلين فى الصورة . وقوله هذا إجمال ما فصلته .

ومما ينظر إلى هذا الفصل ويداخله ويرجع إليه حين تحصيله الجنس[1] الذى يراد فيه كون الشيء من الأفعال سبباً لضده كقولنا : أحسن من حيث قصد الإساءة ، ونفع من حيث أراد الضر . إذا لم يقنع التشاغل بالعبارة الظاهرة ، والطريقة المعروفة ، وصور فى نفس الإساءة الإحسان ، وفى البخل الجود ، وفى المنع العطاء ، وفى موجب الذم موجب الحمد ، وفى الحالة التى حقها أن تعد على الرجل حكم ما يعتد له ، والفعل الذى هو بصفة ما يعاب وينكر ، صفة ما يقبل المنة ويشكر ، فيدل ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البين على حذق شاعره ، وعلى جودة طبعه وحدة خاطره ، وعلو مصعده وبعد غوصه ، إذا لم يفسده بسوء العبارة ، ولم يخطئه التوفيق فى تلخيص الدلالة ، وكشف تمام الكشف عن سَرْوِ المعنى وسره[2] بحسن البيان وسحره . مثال ما كان من الشعر بهذه الصفة قول أبى العتاهية :

جُزِىَ البخيل علىَّ صالحة ... عنى لخفته على ظهرى
أعلى وأكرم عن يديه يدى ... فعلت ونزه قدره قدرى
ورُزِقتُ من جدواه عافية ... أن لا يضيق لشكره صدرى
وغنيتُ خِلواً من تفضله ... أحنو عليه بأحسن العذر
ما فاتنى خير امرىء وضعت ... عنى يداه مؤنة الشكر

---

(١) الجنس مبتدأ وقوله قبله : ومما ينظر إلى هذا الفصل خبره .
(٢) السرو الفضل .

ومن اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر :

أعتقنى سوء ما صنعت من الر م ق فيا بردها على كبدى
فصرت عبداً للسوء فيك وما أحسن سوء قبلى إلى أحد

فصل

« هذا فن آخر من القول يجمع التشبيه والتمثيل جميعا »

اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل فنحن وإن كنا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب إذا سمعنا بهما فإن لوضع القوانين وبيان التقسيم فى كل شيء وتهيئة العبارة فى الفروق فائدة لا ينكرها المميز . ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس . والمعنى الجامع فى سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع إليه الخاطر ، ولا يقع فى الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذى يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس فى الصور التى تعرفها وتحريك الوهم فى استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه .

بيان ذلك أنك كما ترى الشمس ويجرى فى خاطرك استدارتها ونورها تقع فى قلبك المرآة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها . وكذلك إذا نظرت إلى الوشى منشورا وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفتراً عن أزهاره ، متبسما عن أنواره ، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق[1] وإن كان هذا أقل ظهوراً من الأول

---

(١) انعق البرق تسرب فى السحاب ومن معانى العقيقة ما يبقى فى السحاب من شعاعة وبه تشبه السيوف فتسمى عقائق .

وعلى هذا القياس . ولكنك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشلّ كقوله * والشمس كالمرآة فى كف الأشل * هذا الإسراع ولا قريباً منه ولا إلى تشبيه البرق باصبع السارق كقول كشاجم :

أرقتَ أم نمت لضوء بارق   مؤتلق مثل فؤاد العاشق
كأنه أصبع كفِّ السارق

وكقول ابن بابك[1] :

وضنضن فى حصنى سحائل بارق   له جذوة من زبرج اللاذ لامعه
تعوّج فى أعلى السحاب كأنها   بنان يد من كلة اللاذ ضارعه

ولا إلى تشبيه البرق فى انبساطه وانقباضه ، والتماعه وائتلاقه ، بانفتاح المصحف وانطباقه ، فيما مضى من قول ابن المعتز :

وكأن البرق مصحف قار   فانطباقاً مرة وانفتاحا

ولا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك فى قوله :

بلفظ يأخذ الحرف المحلى   كأن سطوره أغصان شوك[2]

ولا إلى تشبيه الشقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد كقول الصنوبرى :

وكأن محمر الشقيـ   ـق إذا تصوب أو تصعد

---

(١) ضنضن تحرك ويستعمل متعديا والسحائل جمع سحيل وهو الحبل على قوة واحدة (أى طاق واحد) شبه به خيوط ضوء البرق الرقيقة . والزبرج السحاب الرقيق فيه حمرة واللاذ جمع لاذة وهى ثوب من حرير أحمر . والكلة بالكسر الحجلة التى تسمى الآن فى بلادنا (الناموسية) والستر الرقيق .

(٢) كأنه يريد أن اللفظ يأخذ أشكال الحروف المحلاة بحركاتها أى يتشكل فيها (ش) وينبغى أن تتذكر أن الشوك الذى شبه به شكل الحركات على السطور هو ما كان دقيقاً وكثيراً كشوك الثمر الذى يسمى فى مصر بالتين الشوكى وفى الشام بالصبير بوزن جميز

أعـــلام ياقوت نُشر ن على رماح من زبرجد

ولا إلى تشبيه النجوم طالعات فى السماء ، مفترقات مؤتلفات فى أديمها ، وقد مازجت زرقة لونهـا بياض نورها بدر منثور على بساط أزرق كقول أبى طالب الرقى :

وكأنــ أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق[1]

ولا ما جرى فى هذا الســبيل ، وكان من هذا القبيل ، بل تعلم أن الذى سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات ، لم يسبق إلى مدى قريب بل أحرز غاية لا ينالها غير الجواد ، وقرطس فى هدف لا يصاب إلا بعــد الاحتفال والاجتهاد[2] :

واعلم أنك إن أردت أن تبحث بحثاً ثانياً ، حتى تعلم لم وجب أن يكون بعض الشبه على الذّكر أبداً ، وبعضه كالغائب عنه ، وبعضه كالبعيد عن الحضرة ، لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه ، وفضل تعطف[3] بالفــكر عليه ، فإن ههنـا ضربين من العبرة ، يجب أن تضبطهما أولا ثم ترجع فى أمر التشبيه ؛ فإنك حينئذ تعلم السبب فى سرعة بعضه إلى الفــكر ، وإباء بعض أن يكون له ذلك الإسراع . فإحدى العبرتين أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصــيل . وانك تجد الرؤية نفسها لا تصــل بالبديهة

---

(١) خرجت فى صبيحة يوم من أيام الربيع إلى المزارع وجلست على رابية فرأيت القمح يعلو أوراقه الندى على كل ورقة منه نقطة كاللؤلؤ ففكرت فيما يشبه ذلك فخطر لى معانى جعلتها مطلع موشح فقلت وهو من أول نظمى :

أسقيط الطل فى نبت الحمى أم لآل فوق بسط السندس

أم نجوم تتراءى فى السما أم ثغور زينت باللعس

(٢) قرطس أصاب القرطاس أى الغرض والاحتفال المبالغة وحسن القيام بالأمور

(٣) التعطف صيغة كثرة من العطف وهو الشفقة والحنو .

إلى التفصيل ، ولـكنك ترى بالنظر الأول ، والوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ، ولذلك قالوا : النظرة الأولى حمقاء . وقالو : لم ينعم النظر ، ولم يستقص التأمل . وهكذا الحكم فى السمع وغيره من الحواس ؛ فإنك تتبين من تفاصيل الصـوت بأن يعاد عليك ، حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول . وتدرك من تفصيل طعم الذوق بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه فى الذوقة الأولى . وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء ، وسامع وسامع ، وهكذا . فأما الجمل فتستوى فيها الأقدام ، ثم تعلم أنك فى إدراك تفصيل ما تراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقى الشىء من بين جملة ، وكمن يميز الشىء مما قد اختلط به ، فإنك حين لا يهمك التفصيل كمن يأخذ الشىء جزافاً وجرفاً(١) .

وإذا كانت هذه العبرة ثابتة فى المشاهدة ، وما يجرى مجراها مما تناله الحاسة ، فالأمر فى القلب كذلك : تجد الجمل أبداً هى التى تسـبق إلى الأوهام وتقع فى الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة بالتذكر . ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصـيل ، وكلما كان أوغل فى التفصيل ، كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد .

---

(١) الجزاف بيع الشىء لا يعلم كيله ولا وزنه وهو اسم من جازف مجازفة والجزاف بالضم خارج عن القياس وهو فارسى تعريب كزاف (مصباح) واشتقوا منه جزف وجازف واجتزف واستعملوه فى الحقيقة والمجاز ، وثلثوا جيم جزاف والجرف بالفتح الـكسح أو الذهاب بالشىء كله .

وإذ قد عرفت هذه العبرة ، فالاشتراك فى الصفة إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق ، بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل نحو ان كلا الشيئين أسود أو أحمر ، فهو يقل عن أن يحاج فيه إلى قياس وتشبيه ؛ فإن دخل فى التفصيل شيئاً نحو : إن هذا السواد صاف براق ، والحمرة رقيقة ناصعة ، احتجت بقدر ذلك إلى إدارة الفكر ، وذلك مثل تشبيه حمرة الخد ، بحمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ويتعرّف بفضل تأمل ، ازداد الأمر قوة فى اقتضاء الفكر ، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك فى قوله :

* وسقط كعين الديك عاورت صحبتى[1] *

---

(١) الشطر من قصيدة لغيلان وتمام البيت * أباها وهيأنا لموضعها وكراً * والصحبة اسم جمع صاحب وعاورتهم تناوبت معهم وفى رواية « نازعت » والبيت فى وصف السقط الذى يكون من الزند . وهو مثلث السين والأشهر منها الكسر ومن عادتهم عند ما يريدون استخراج النار انهم كانوا يأتون بالعودين فيضعون أحدهما أسفل ويسمونه الأنثى ويفرضون فيه فرضاً ويجرون فيه عوداً آخر يسمونه الأب وأحياناً ينقرون نقراً فى العود الأول ويبرمون — أى يديرون — فيه الثانى وهو قائم فإذا طال زمن العمل ولم تخرج النار تناوب العود الذكر وهو الأب جماعة الواحد بعد الآخر يحركه حتى تخرج والمراد من الوكر ماتودع فيه النار بعد خروجها كالخشب والفحم ونحوها ومطلع القصيدة :

لقد جشأت نفسى عشية مشرف ويوم لوا حزوى فقلت لها صبراً

وبعد البيت المستشهد به .

مشهرة لم تكن الفحل أمها إذا هى لم يمسك بأطرافها قسراً

قد انتجت من جانب من جنوبها عوانا ومن جنب إلى جنبه بكرا

أبوها أخوها والضوى لا يضيره وساق أبيها أمها عقرت عقراً

والكلام فى وصف السقط يحاجى بذكرها والأم هى العود الأسفل والفحل هو العود المسمى بالأب ولا بد من امساك طرف العود الأسفل حتى يمكن تحريك =

وذلك أن ما في عينه من تفصيل وخصوص ، يزيد على كون الحمرة رقيقة ناصعة ، والسواد صافياً براقاً ، وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التي لا يستوى فيها البليد والذكى ، والمهمل نفسه والمتيقظ المستعد للفكر والتصور فقوله :

كأن على أنيابها كل سُحرة صياح البوازى من صريف اللوائك[١]

أرفع طبقة من قوله :

كأن صليل المرو حين تشذه صليل زيوف يُنتقدن بعبقرا[٢]

لأن التفصيل والخصوص في صوت البازى أبين وأظهر منه في صليل الزيوف ، وكما أن قوله يصف الفرس :

وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدمَ الغلام وراء الغيب بالحجر[٣]

= الا على فيه ثم يقول إنها « انتتجت » أى اكتسبت من بعض الجوانب « عوانا » أى بعد أن عمل فيه قوم سابقون وذلك أن القوم كانوا يستخرون النار من أسفل شجرة فيأتى غيرهم ويستخرجها من حيث استخرج الأولون فشبه هذا بالمرأة العوان أى في منتصف سنها ومن بعض الجوانب اقتدحت « بكراً » أى من حيث لم يسبق لأحد اقتداح فهى كالبكر و (أبوها) وهو العود الأعلى (أخوها) لأنهما من شجرة واحدة (والضوى لا يضيره) لأنه كلما رق كان أفضل والضوى بفتح الضاد والواو الدقة والهزال وفعله ضوى كرضى (وساق أبيها أمها) يشير بذلك إلى ما يحصل من الاقتداح في ساق الشجرة . ومن هنا يفهم إلغاز ابن دريد في المقصورة وهو

ومنتج أم أبيه أمه لم يتخون جسمه مس الضوى .
أفرشته بنت أخيه فانثنى عن ولد يورى به ويشتوى

(١) تقدم مع تفسيره (ص ٧٢) .

(٢) البيت لامرىء القيس والمرو الحجارة البيض الرقاق وتشذه إشذاذاً تنحيه وعبقر قيل بلدة في اليمن مشهورة بتزييف النقود وقيل هى قرية الجن ينسبون إليها كل عجيب في الحسن أو القبح .

(٣) البيت أنشده الأصمعى لابن مقبل والأبهر عرق مستبطن في الصلب والقلب =

لا يستوى بتشبيه وقع الحوافر بهزمة الرعد وتشبيه الصوت الذى يكون لغليان القدر بنحو ذلك كقوله :

لها لغط جنح الظلام كأنه   عجارف غيث رائح متهزم[١]

لأن هناك من التفصيل الحسن ما تراه . وليس فى كون الصوت من جنس اللغط تفصيل يعتد به وإنما هو كالزيادة والشدة فى الوصف ، ومثال ذلك مثال أن يكون جسم أعظم من جسم فى أنه لا يتجاوز مرتبة الجمل كبير تجاوز . فإذا رأى الرجل شخصاً قد زاد على المعتاد فى العظم والضخامة لم يحتج فى تشبيهه بالفيل أو الجبل أو نحو ذلك إلى شىء من الفكر بل يحضره ذلك حضور ما يعرف بالبديهة .

والمقابلات التى تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة . ومن اللطيف فى ذلك أن تنظر إلى قوله :

يتابع لا يبتغى غيره   بأبيض كالقبس الملتهب[٢]

= متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة وذ لر الزمخشرى الصلب ولم يذكر القلب وعن ابن الأثير هما عرقان فى الظهر يقال لهما الأبهران كما يقال فى عرق الذراع الأكحلان قال شيخنا وقيل هو عرق منشؤه من الرأس ويمتد إلى القدم وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن فالذى فى الرأس يسمى النأمة ومنه قوله : أسكت الله نأمته أى أماته ، ويمتد إلى الحلق فيسمى الوريد وإلى الصدر فيسمى الأبهر وإلى الظهر فيسمى الوتين والفؤاد معلق به وإلى الفخذ فيسمى النسا (بالفتح) وإلى الساق فيسمى الصافن اهـ والوجيب تحرك القلب تحت أبهره واللدم الضرب والغيب ما كان بينك وبينه حجاب يريدان الفؤاد صوتا يسمعه ولا يراه كما يسمع صوت الحجر الذى يرمى به الصبى ولا يراه وخص الغلام لأن الصبيان كثيراً ما يلعبون برمى الحجارة اهـ لسان العرب .

(١) عجارف المطر والغيث شدته والمتهزم المصوت يقال : تهزمت القوس وتهزم الرعد أى صوتا .

(٢) البيت لعنترة العبسى وهو حماسى والضمير فى يتابع لورد بن حابس ومفعول يتابع محذوف والضمير فى « غيره » لنضلة الأسدى وكان ورد بن حابس =

ثم تقابل به قوله :

جمعت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان (١)

فإنك ترى بينهما من التفاوت فى الفضل ما تراه مع أن المشبه به فى الموضعين شىء واحد وهو شعلة النار وما ذاك إلا من جهة أن الثانى قصد إلى تفصيل لطيف ومر الأول على حكم الجمل . ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع فى الوهم فى أول وهلة بل لابد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتروى وتنظر فى حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ فى نفسك أن فى الأصل شيئا يقدح فى حقيقة الشبه وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة وأنه ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلك وأنه إذا كان كذلك كان التحقيق وما يؤدى الشىء كما هو أن تستثنى الدخان وتنفى اتصاله باللهب وتقصر التشبيه على مجرد السنا وتصور السنان فيه مقطوعاً عن الدخان

= طلب نضلة الأسدى بوتر له . وموضع « لا يبتغى » نصب على الحال والباء فى قوله بأبيض يجوز أن تتعلق بيتابع وأن تتعلق بلا يبتغى والمعنى يتابع ورد بن حابس نضلة الأسدى غير مبتغ غيره بسيف أبيض كالنار الملتهبة ، ومعنى لا يبتغى غيره أن همته كانت منصرفة إليه دون سواه من الناس أو دون الغنائم والأموال

(١) يروى حملت مكان جمعت وهو أظهر قال الجوهرى : القناة الردينية والرمح الردينى زعموا انه منسوب إلى امرأة السمهرى وتسمى ردينة وكانا يقومان القنا بخط هجر اه وفى كلامهم خطية ردن ، ورماح لدن (لسان) وأقول سمهر كجعفر وردينة كجهينة دالخط بالفتح قال فى المصباح سمى به موضع باليمامة وينسب إليه على لفظه فيقال رماح خطية والرماح لا تنبت بالخط ولكنه ساحل للسفن التى تحمل القنا إليه وتعمل به وقال الخليل إذا جعلت النسبة اسما لازما قلت خطية بكسر الخاء ولم تذكر الرماح ، وهذا كما قالوا ثياب قبطية بالكسر فإذا جعلوه اسما حذفوا الثياب وقالوا قبطية بالضم فرقا بين الاسم والنسبة اه .

ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ما ذكرت لك قدرت محالا لا يتصور ، كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بعنقود ملاحية حين نور ، بمنزلة تشبيهها بالنور على الإطلاق أو تفتح نور فقط كما قال :

كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتح نور [1]

حتى ترى حاجتهما إلى التأمل على مقدار واحد ، وحتى لا يحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس وبحثها عن الصور التى تعرفها إلا إلى مثل ما يحوج إليه الآخر ، أسرفت فى المجازفة ونقصت يداً بالصواب والتحقيق [2]

والعبرة الثانية أن مما يقتضى كون الشىء على الذكر ، وثبوت صورته فى النفس أن يكثر دورانه على العيون ، ويدوم تردده فى مواقع الأبصار ، وأن تدركه الحواس فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات ، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشىء عن أن يقع ذكره بالخاطر ، وتعرض صورته فى النفس قلة رؤيته ، وأنه مما يُحَسُّ بالفيئة بعد الفيئة ، وفى الفرط بعد الفرط [3] وعلى طريق الندرة . وذلك أن العيون هى التى تحفظ صورة الأشياء على النفوس، وتجدد عهدها بها ، وتحرسها من أن تدثر ، وتمنعها أن تزول ، ولذلك قالوا : من غاب عن العين فقد غاب عن القلب . وعلى المعنى كانت المدارسة والمناظرة فى العلوم ، وكرورها على الاسماع سبب سلامتها من النسيان ، والمانع لها من التفلت والذهاب .

---

(١) البيت غير تام فى الأصل .

(٢) قوله ونقصت يداً أى قدرت عليه .

(٣) الفيئة الحين والفرط الحين وأن تأتيه فى بعض الأيام ولا يكون أكثر من ١٥ ولا أقل من ٣ (ش) .

وإذا كان هذا أمراً لا يشك فيه ، بان منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً ؛ فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب ، فهو أدنى وأنزل ، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر .

واعلم أن قولنا « التفصيل » عبارة جامعة ، ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً . فأنت تنظر فيها واحداً واحداً ، وتفصل بالتأمل بعضها من بعض ، وقد أرتك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد ، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة . ثم إنه يقع على أوجه (أحدها) وهو الأول والأحق بهذه العبارة : أن تفصل بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً ، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه وذلك قوله :

* لها حدق لم تتصل بجفون *

ويقع في هذا الوجه من التفصيل لطائف فمنها قول ابن المعتز :

يطارح النظرة في كل أفق ذي منسر أقنى إذا شك خرق
ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق[1]

(١) ما أورده مختزل غير مرتب والأصل في الخروج بالبازي سحراً إلى الصيد وهو

غدوت في ثوب من الليل خلق بطارح النظرة في كل أفق
ذي منسر أقنى إذا شك خرق مختضب في كل يوم بعلق
وكل عظم مفصل إذا علق ومقلة تصدقه إذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق تنشب في الديباج حتى ينفتق

وقوله .

تـكتب فيه أيدى المزاج لنـا ميمات سـطر بغير تعريق[١]

(والثـانى) أن تفصل بأن تنظر من المشبه فى أموره لتعتبرها كلها وتطلبها فيما يشبه به ، وذلك كاعتبارك فى تشـبيه الثريا بالعنقود الأنجم نفسها ، والشـكل منها واللون ، وكونها مجتمعة على مقدار فى القرب والبعد فقد نظرت فى الأمور واحداً واحداً ، وجعلتها بتأملك فصلا فصلا ، ثم جمعتها فى تشبيهك وطلبك للهيئة الحاصلة ، من عدة أشخاص الأنجم والأصناف التى ذكرت لك من الشـكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئة أخرى شبيهة بها ؛ فأصبتها فى العنقود المنوّر من الملاحية ، ولم يقع لك التشبيه بينهما إلا بأن فصلت أيضاً أجزاء العنقود بالنظر وعلمت أنها خصل بيض[٢] وأن فيها شـــكل استدارة النجم ، ثم الشكل إلى الصغر ما هو ، كما أن شـكل أنجم الثريا كذلك ، وأن هذه الخصل لا مجتمعة اجتماع النظام والتلاصق ، ولا هى شديدة الافتراق ، بل لهـا مقادير فى التقارب والتباعد على نسبة قريبة ممـا تجده فى رأى العين بين تلك الأنجم بذلك ، على أن

---

(١) الكلام فى القدح وفى رواية « يكتب فيه كف المزاج » والتعريق من عرق الشراب كأعرقه إذا جعل فيه عرقاً من الماء بمعنى أنه مزجه ولم يبالغ فيه وعرق فى الإناء جعله دون الملء وفى الدلو استسقى فيها دون الملء . وقبل البيت :

لا شىء يسلى همى سوى قدح تدمى عليه أوداج إبريق

(٢) الخصل جمع خصلة وهى بالفتح والضم العنقود والعامة تطلقها على الجزء يقتطع من العنقود وعلى العنقود الصغير كالجزء .

التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف حتى أنا لو فرضنا فى تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعداً أكثر مما هى عليه الآن أو قدّر فى العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله .

وكذلك الحكم فى تشبيه الثريا باللجام المفضض لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال ، وعلى الشكل الذى يوجبه موضوع اللجام ، ولو فرضت أن تركب مثلا على سنن واحد طولا فى سير واحد مثلا ، ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه وكذا قوله :

* تعرُّض أثناء الوشاح المفصل *[(١)]

وقد اعتبر فيه هيئة التفصيل فى الوشاح والشكل الذى يكون عليه الخرز المنظوم فى الوشاح فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل فى التشبيه .

(والوجه الثالث) أن تفصل بأن تنظر إلى خاصة بعض الجنس كالتى تجدها فى صوت البازى وعين الديك ؛ فأنت تأبى أن تمر على جملة أن هذا صوت وذاك حمرة ، ولكن تفصل فتقول فيهما ما ليس فى كل صوت وكل حمرة .

واعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف ، وإلا فدقائقه لا تكاد تضبط . فمما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان

---

(١) عجز لامرىء القيس وصدره إذا ما الثريا فى السماء تعرضت
وقبله :

تجاوزت أحراساً وأهوال معشر علىّ حراصا لو يسرون مقتلى

قال أبو عمرو الثريا لا تتعرض وإنما عنى الجوزاء . وقال ابن سلام الثريا تتعرض عند السقوط كما أن الوشاح إذا طرح تلقاك بناحية . وأثناء الوشاح جوانبه والمفصل الذى فصل ما بين كل خرزتين منه بلؤلؤة .

من التشبيه مركباً بين شيئين أو أكثر وهو ينقسم قسمين :

(أحدهما) أن يكون شيئاً بقدر المشبه وبصفته أو لا يكون ، ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد . لأنك فى هذا النحو تحصل الشبه بين شيئين يقدّر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم فقد حصله فى النرجس من شكل المداهن والعقيق بشرط أن تكون المداهن من الدر وأن يكون العقيق فى الحشو منها وكذلك اشترط هيئة الأعلام وأن تكون من الياقوت وأن تكون منشورة على رماح من زبرجد . فبك حاجة فى ذلك إلى مجموع أمور لو أخللت بواحد منها لم يحصل الشبه وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص فى الاجتماع والاتصال بطل الغرض فكما بك حاجة إلى أن يكون الشكل شكل الُدهُن وأن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق فبك أيضاً فقر إلى أن يكون العقيق فى حشو المداهن — وعلى هذا القياس .

و (القسم الثانى) أن تعتبر فى التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين وذلك الاقتران مما يوجد ويكون . ومثاله قوله :

غدا والصبح تحت الليل باد كطِرْفٍ اشهب مُلقى الجلال

قصدَ الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت حالهما معاً ، وأراد أن يأتى بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر ؛ ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد والليل على الانفراد ، كما لم يقصد الأول أن يشبه الدائرة البيضاء من النرجس بمدهن الدر ثم يستأنف تشبيهها للثانية بالعقيق ، بل أراد أن يشبه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين ، من غير أن يكون بَيْنٌ فى البين ، ثم إن هذا الاقتران الذى وضع عليه التشبيه مما يوجد

ويمهد إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجل من المعوز[١] فيقال إنه مقصور على التقدير والوهم .

فأما الأول فلا يتعدى التوهم وتقدير أن يصنع ويعمل فليس فى العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع مطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات ، وكذلك لا يكون ههنا مداهن تصنع من الدر ثم يوضع فى أجوافها عقيق . وفى تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد[٢] الصورة من الوجود وهو شرطه أن تكون أعلاماً منشورة والنشر فى الياقوت وهو حجر لا يتصور موجوداً .

وبقى أن تعلم أن الوجه فى إلقاء الجل أن تريد أنه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده لا أنه رمى به جملة حتى انفصل منه لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر فى الليل ، ولم يشاكل قوله فى أول البيت « والصبح تحت الليل باد » .

وأما قوله :

إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع فى كثيب يضطرب
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فلا شبه فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البلق دون أن يدخل لون الجل فى التشبيه حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق فى سواد الغمام بل ينبغى أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق

---

(١) الجل للفرس والحمار بالضم وبالفتح ما يوضع على الظهر ليركب عليه جمعه جلال بالكسر وأجلال والمعوز اسم فاعل من أعوزه الشىء إذا احتاج إليه فلم يجده أو لم يقدر عليه .

(٢) فعل مضارع فاعلة ضمير يعود إلى الزيادة .

يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه . وقد قال ابن بابك فى هذا المعنى :

للبرق فيها[1] لهبٌ طائش   كما يعرى الفرس الأبلق

إلا أن لقول ابن المعتز « حين وثب » من الفائدة مالا يخفى . وقد عُنىَ المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ألا تراه قال :

وترى البرق عارضاً[2] مستطيلا   مَرَحَ البُلْق جُلن فى الإجلال

فجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى ما به يتم الشبه وهو معظم الغرض من تشبيهه وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .

ثم اعلم أن هذا القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود يتفاوت حاله فمنه ما يتسع وجوده ومنه ما يوجد فى النادر ويبين ذلك بالمقابلة فأنت إذا قابلت قوله :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً   درر نثرن على بساط أزرق

بقول ذى الرمة : « كأنها فضة قد مسها ذهب »[3] علمت فضل الثانى على الأول فى سعة الوجود وتقدم الأول على الثانى فى غربته وقلته وكونه نادر الوجود فإن الناس يرون أبداً فى الصياغات فضة قد أجرى فيها ذهب، وطليت به ولا يكاد يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق .

فإذا عرفت انقسام المركب من التشبيه إلى هذين القسمين فاعتبر

---

(١) الضمير فى فيها للسحابة .

(٢) من عرض إذا ظهر وبدا ولم يدم . كتب الثلاثة شيخنا فى نسخة الدرس .

(٣) أول البيت :   * كحلاء فى برج صفراء فى نعج *

والبرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله لا يغيب عن سوادها شىء والنعج البياض الخالص يريد أنه يشوب صفرتها بياض خالص وهو محمود عندهم .

موضعهما من العبرتين[1] المذكورتين فإنك تراهما بحسب نسبتهما منهما وتحققهما بهما قد اعطتاهما لطف الغرابة ، ونفضتا عليهما صِبْغَ الحسن ، وكستاهما روع الإعجاب ، فتجد المقدر الذى لا يباشر الوجود نحو قوله :

أعــلامُ ياقوت نشرْ نَ على رماح من زبرجـد

وكقوله فى النيلوفر :

كلنا باسـط اليـد نحو نِيـلوفر نَدِى
كدبابيس عسـجد قُضْبها من زبرجد

قد اجتمع فيه العبرتان جميعاً . وتجد العبرة الثانية[2] قد أتت فيه على غاية القوة لأنه لا مزيد فى بعد الشىء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعاً أصلا حتى لا يتصور إلا فى الوهم . وإذا تركت هذا القسم ونظرت إلى القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود نحو قوله :

* درر نثرن على بساط أزرق *

وجدت العبرة الثانية لا تقوى فيه تلك القوة لأنه إذا كان مما يعلم أنه يوجد ويعهد بحال وإن كان لا يتسع بل يندر ويقل ، فقد دنا من الوقوع فى الفكر ، والتعرض للذكر ، دنوا لا يدنوه الأول الذى لا يطمع أن يدخل تحت الرؤية للزومه العدم ، وامتناعه أن يجوز عليه إلا التوهم ، ولا جرم لما كان الأمر كذلك كان للضرب الأول من الروعة والحسن ، ولصاحبه من الفضل فى قوة الذهن ، ما لم يكن ذلك فى الثانى . وقوى الحكم[3] بحسب قوة العلة ، وكثر الوصف الذى هو الغرابة بحسب الجالب له .

---

(١) هما العبرتان فى سبب الغرابة وهما التفصيل وبعد الشىء عن العيون وغيبته عن الحس (ش) .

(٢) هى عبرة البعد عن النظر وقلة التردد عليه .

(٣) هو الحكم بالغرابة (ش)

وفى هذا التقرير ما تعلم به الطريق إلى التشبيه من أين تفاوت فى كونه غريبا ، ولم تفاضل فى مجيئه عجيباً ، وبأى سبب وجدت عند شىء منه من المزة ما لم تجده عند غيره ، علما يخرجك عن نقيصة التقليد ، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة ، دون البيان والإفصاح بالعبارة .

واعلم أن العبرة الثانية التى هى مرور الشىء على العيون هو[1] معنى واحد لا يتكثر ولكنه يقوى ويضعف كما مضى . وأما العبرة الأولى وهى التفصيل فإنها فى حكم الشىء يتكثر وينضم فيه الشىء إلى الشىء . ألا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تكون قد نظرت فى أحدهما إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات وفى الآخر إلى شيئين أو جهتين والمثال فى ذلك قول الشاعر :

كأن مُثار النقع فوق رؤسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبه

مع قول المتنبى :

يزور الأعادى فى سماء عجاجة أسنتُه فى جانبيها الكواكب

أو قول عمر بن كلثوم :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير

التفصيل فى الأبيات الثلاثة كأنه شىء واحد لأن كل واحد منهم يشبِّه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل ، إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس مالا يقل مقداره ،

---

(١) ذكر الضمير مع أنه عائد إلى العبرة ومراعاة للخبر وهو مذكر مع الفاصل بينه وبين مرجعه .

ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى مالم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهى تعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة كما فعل الآخران . وكان لهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة تجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل . وذلك أنا وإن قلنا إن هذه الزيادة — وهى إفادة هيئة السيوف فى حركاتها — إنما أتت فى جملة لا تفصيل فيها فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدى بها فى الضرب ، اضطراباً شديداً ، وحركات بسرعة ، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوالا تنقسم تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض ، وإن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها فى بعض ، ويصدم بعضها بعضاً . ثم إن أشكال السيوف مستطيلة ، فقد نظم هذه الدقائق كلها فى نفسه ثم احضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهى قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهى على صورة الاستدارة .

ويشبه هذا الموضع فى زيادة أحد التشبيهين مع أن جنسهما جنس واحد وتركيبهما على حقيقة واحدة بأن فى أحدهما فضل استقصاء ليس فى الآخر قول ابن المعتز :

وطاف بها ساق أديب بمبزل كخنجر عيار صناعته الفتك

وحمل آذريونة فوق أذنه   كـكأس عقيق فى قرارتها مسك[١]

مع قوله :

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية[٢]

الأول ينقص عن الثانى شيئاً ، وذلك أن السواد الذى فى باطن الآذريونة الموضوع بإزاء الغالية والمسك[٣] ، فيه أمران . أحدهما : أنه ليس بشامل لها . والثانى : أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم فى قعرها ، أعنى أنه لم يستدر هناك بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شيئاً من سمكها[٤] من كل الجهات ، وله فى منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية فى جوانب المدهن إذا كانت

---

(١) قبل البيتين :

وقد حفيت من صفوها فكأنها   بقايا يقين كاد يدركه الشك

والكلام فى الخمر والمبزل كمنبر ما يصفى به الشراب وهو شبه طبي (الطبي حلمة الضرع وهو بكسر الطاء وبضمها) فى الدن ونحوه يتبزل منه الشراب أى يسيل والعيار بتشديد الياء فى أصل اللغة الذى يكثر الذهاب والمجىء والتطواف بغير عمل ، وغلب على المتعرض للناس للسلب والفتك ، والآذريونة يأتى تفسيرها بعد .

(٢) قبل البيت :

سقيا لروضات لنا   من كل نور حاليه

عيون آذريونها   للشمس فيها كاليه

وأصل كالية الهمز من كلاه أى حفظه ومعنى كلاءة عيون الآذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والآذريون جمع آذريونة كتمر وتمرة وهى ورد له أوراق حمر فى وسطه سواد له نبو وارتفاع وقد يكون أصفر واقتصر عليه صاحب القاموس . ولاختلاف لونيه يشبه بكأس من عقيق فيها مسك كما قال « كـكأس عقيق » البيت . وبمدهن من ذهب فيه شىء من الغالية وهى أخلاط من الطيب .

(٣) أى المقصود بكل منهما .

(٤) السمك بالفتح القامة من كل شىء طويل ثخين وهو من أعلى البيت إلى أسفله . ويطلق على السقف وحده ولا يصح هنا كما قاله شيخنا .

بقية بقيت عن الأصابع . وقوله : « فى قرارتها مسك » . يبين الأمر الأول[١] ، ويؤمن من دخول النقص عليه ، كما كان يدخل لو قال : « ككأس عقيق فيها مسك » . ولم يشترط أن يكون فى القرارة .

وأما الثانى من الأمرين ، فلا يدل عليه كما يدل قوله : « بقايا غالية » . وذاك من شأن المسك والشىء اليابس ، إذا حصل فى شىء مستدير فى القعر لا يرتفع فى الجوانب الارتفاع الذى تراه فى سواد الآذريونة . وأما الغالية فهى رطبة ثم هى تؤخذ بالأصابع ، وإذا كان كذلك فلابد فى البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بقية شبيهة بذلك السواد ، ثم هى لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذى لا جرم له يملك المكان ، وذلك أصدق للتشبيه ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبة قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غراباً ذا قوادم جُون

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاً ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع[٢] نور يتخيل منها فى العين كشكل قوادم[٣] إذا كانت بيضاء . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى

---

(١) هو كونه ليس بشامل .

(٢) لمع جمع لمعة بالضم بمعنى البريق — وهى فاعل تلى معظم الصبح وقوله يتخيل منها الخ معناه يتشبه ويتراءى منها فى العين مثل شكل القوادم .

(٣) قوادم الطير مقاديم ريشه وهى عشرة فى كل جناح الواحدة قادمة والجون بالضم جمع جون بالفتح وهو الأبيض والأسود (ضد) والمراد هنا البيض . شبه الليل الذى فيه تباشير الصبح بغراب له قوادم بيض .

ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم لما بدأبذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخراً فقال « نظير غرابا » ولم يقل غراب يطير مثلا وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً هادئاً فى مكان فازعج وأخيف وأطير منه أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لامحالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمدّ له وأبعد لأمده فإن تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه العيون وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وأن لا يسرع فى طيرانه بل يمشى على هينة ويتحرك حركة غير المستعجل فاعرفه .

ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء فى التشبيه وفضل العناية بتأكيد ما بدا به قول ابن فارس فى صفة البازى[1] .

كأن عينيه إذا ما أثأرا فصّان قيضاً من عقيق أحمرا
فى هامة غلباء تهدى منسراً كعطفة الجيم بكف اعسرا[2]

أراد أن يشبه المنقار بالجيم ، والجيم خطان الأول الذى مبدأه وهو الأعلى والثانى وهو الذى يذهب إلى اليسار وإذا لم توصل فلها تعريق[3] كما لا يخفى والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط فلما كان كذلك قال « كعطفة

---

(١) الأبيات لأبى نواس كما ذكره أبو هلال العسكرى وغيره .

(٢) أثار : أدرك ثأره . وقيضا شقا . وغلباء قوية . والمنسر كمجلس ومنبر منقار الطير الجارح .

(٣) تعريق الجيم أن يعطف بالخط الأسفل إلى اليمين على هيئة قوس هكذا) كما هو الشأن دائماً فى الجيم المفردة ، وعطفته وهى الخط الأعلى التى تشبه المنسر فهكذا ج .

الجيم » ولم يقل كالجيم ثم دقق بأن جعلها بكف اعسر لأن جيم الأعسر قالوا أشبه بالمنقار من جيم الأيمن . ثم إنه أراد أن يؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال :

يقول من فيها بعقل فكرا لو زادها عيناً إلى فاء ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

فأراك عيانا أنه عمد فى التشبيه إلى الخط الأول من الجيم دون تعريقها ودون الخط الأسفل . أما أمر التعريق وإخراجه من التشبيه فواضح لأن الوصل يسقط التعريق أصلا . وأما الخط الثانى فهو وإن كان لابد منه مع الوصل فإنه إذا قال « لو زادها عيناً إلى فاء ورا » ثم قال « فاتصلت بالجيم » فقد بين أن هذا الخط الثانى خارج أيضاً من قصده فى التشبيه من حيث كانت زيادة هـذه الحروف ووصلها هى السبب فى حدوثه . وينبغى أن يكون قوله « بالجيم » يعنى بالعطفة المذكورة من الجيم ولأجل هذه الدقة قال : « يقول من فيها بعقل فكراً » فهد لما أراد أن يقول ونبه على أن بالمشبه حاجة إلى فضل فكر وأن يكون فكره فكرة من يراجع عقله ويستعينه على تمام البيان .

وجملة القول أنك متى زدت فى التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة فقد دخلت فى التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلف المنازل فى الفضل بحسب الصورة فى استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد .

فصل

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحرا أن يجيء فى الهيآت التى تقع عليها الحركات . والهيئة المقصودة فى التشبيه على وجهين أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما . والثانى أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها فمن الأول قوله :

* والشمس كالمرآة فى كف الأشل *

أراد أن يريك مع الشكل الذى هو الاستدارة ، ومع الإشراق والتلألؤ على الجملة الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ثم ما يحصل فى نورها من أجل تلك الحركة وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة فى غاية السرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل لأن حركته تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لا تقر فى العين وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذى كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتُنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة فى جرمها وضوئها فإنك ترى شعاعها كأنهُ يهمُّ بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذى بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط . وحقيقة حالها فى ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره فى النفس فضلاً عن أن تكمل العبارة لتأديته ويبلغ البيان كنه صورته .

ومثل هذا التشبيه وإن صور فى غير المرآة قول المهلبى الوزير :

الشمس من مشرقها قد بدت   مشرقة ليس لها حاجب

كأنها بُوتَقة أحميت يجول فيها ذهب ذائب[(١)]

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقة على النار فإنه يتحرك فيها حركة على الحد الذى وصفت لك . وما فى طبع الذهب من النعومة وفى أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعاً شديداً ولكن جملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب ثم انقباض إلى الوسط فاعرفه .

ومن عجيب ما جمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبرى :

كأن فى غدرانها حواجباً ظلت تمط[(٢)]

أراد ما يبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنائها وتحدُّبها كما تباعد بين طرفى القوس وتثنيهما إلى ناحية الظهر كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل التقوس الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر ومتى حدثت هذه الصفة فى تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شىء بالحواجب إذا مدت لأن الحاجب لا يخفى تقويسه ومده ينقص من تقويسه .

ومن لطيف ذلك أيضاً أعنى الجمع بين الشكل وهيئة الحركة قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

---

(١) الحاجب المانع من الإشراق والبوتقة ما يذيب الصائغ فيه الذهب والفضة .

(٢) تمط على البناء للمفعول ومعناه تمد — يصف أرضاً بالطيب فيقول فيها غدران يهب عليها الريح فيبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها تقوس وامتداد .

بكرت تعير الأرض ثوب شباب رحبية[١] محمودة الإسكاب
نثرت أوائلها حياً فكأنه نقط على عجل ببطن كتاب

وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون فى الجسم ، فيقع فيها نوع من التركيب ، بأن يكون للجسم حركات فى جهات مختلفة ، نحو أن بعضها يتحرك إلى يمين ، والبعض إلى شمال ، وبعض إلى فوق ، وبعض إلى قدام ، ونحو ذلك ، وكلما كان التفاوت فى الجهات التى تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد ، كان التركيب فى هيئة المتحرك أكثر . فحركة الرحا والدولاب وحركة السهم لا تركيب فيها ، لأن الجهة واحدة ، ولكن فى حركة المصحف فى قوله : « فانطباقاً مرة وانفتاحاً » . تركيب لأنه فى إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته فى الحالة الأخرى . فما جاء فى التشبيه معقوداً على تجريد هيئة الحركة ثم لطف وعرف لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة فى البحر وتقاذف الأمواج بها .

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الرباح خلاله كرع[٢]

الرباح الفصيل وقيل القرد ، والكرع ماء السماء شبه السفينة فى انحدارها

---

(١) قال شيخنا قد تكون نسبة إلى الرحبة محركة ومسكنة الوسط بمعنى مسيل ماء الوادى .

(٢) تقص السفين أى تثب والنزو الوثوب وتوقصت الركاب نزت ووثبت والرباح كرمان ويخفف القرد أو الفصيل والكرع بالتحريك الماء الذى يكرع فيه وكان حق التعبير « خلال الكرع » ولكنه اعتمد على فهم السامع فجعل الكرع خلال القرد أو الفصيل وهذا على رواية بعض من ضبطه فى الشواهد بكسر الخاء على أنه « خلال » مضاف أما المصنف فقد رواه بفتح الخاء على أن خلا فعل ماض وله جار ومجرور متعلق به .

وارتفاعها بحركات الفصيل فى نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا — ولا سيما فى الماء ، وحين يعتريه ما يعترى المهر ونحوه من الحيوانات التى هى فى أول النشء — كانت له — حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه فى جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين فى الأخرى فلا يثبته[1] الطرف مرتفعاً حتى يراه منحطاً متسفلا ، ويهوى مرة نحو الرأس ، ومرة نحو الذنب ، وذلك أشبه شيء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج .

ونظيره قول الآخر يصف الفصيل وهو يثب على الناقة ويعلوها ويلقى نفسه عليها ، لأنها قد بركت فلا يتمكن من أن يرتضع فهو يفعل ذلك لتثور الناقة :

يقتاعها كل فصيل مكرم كالحبشى يرتقى فى السلم

(يقتاعها) يفتعل ، من قولهم قاع البعير الناقة إذا ضربها ، يقوعها قوعا أراد يعلوها ويثب عليها ، وشبه بالحبشى فى هذه الحالة المخصوصة لما يكون له عند ارتفاعه فى السلم من تصعد بعض أعضائه وتسفل بعض ، على اضطراب مفرط وغثارة شديدة[2] . وذلك كما ترى فى أنه اختلاف فى جهات أبعاض الجسم على غير نظام مضبوط كحركات الفصيل فى الماء وقد خلا له . وقد عرفتك أن الاختلاف فى جهات الحركات الواقعة فى أبعاض الجسم كالتركيب بين أوصاف مختلفة ليحصل من مجموعها شبه خاص .

---

(١) أثبته عرفه حق المعرفة .

(٢) كأنه أراد الجهل والحمق لاعتبارهما أنفسهما بل باعتبار ما يصدر عنهما وهو شدة الاضطراب فى هجنة . والأغثر الجاهل والأحمق والغثرة بالتحريك والغثراء الجماعة المختلطة (ش) .

واعلم أن هذه الجهات يغلب عليها الحكم المستفاد من العبرة الثانية . وذلك أن كل هيئة من هيئات الجسم فى حركاته إذا لم يتحرك فى جهة واحدة فمن شأنها أن تقل وتعز فى الوجود فيباعدها ذلك أيضاً من أن تقع فى الفكر بسرعة زيادة مباعدة مضمومة إلى ما يوجب حديث التركيب والتفصيل فيها . ألا ترى أن الهيئة التى اعتمدها فى تشبيه البرق بالمصحف ليست تكون إلا فى النادر من الأحوال وبعد عمد من الإنسان وخروج عن العادة ومقصد خاص أو عيب غالب على النفس غير معتاد وهكذا حال الفصيل فى وثوبه على أمه ليثيرها وانسيابه فى الماء ونزوه كما توجبه رؤيته الماء خالياً وطباع الصغير والفصيلة[1] مما لا ترى الا نادراً . وليس الأمر فى هذا النحو كالأمر فى حركة الدولاب والرحا والسهم ونحو ذلك من الحركات المعتادة التى تقع فى مصارف العيون كثيراً .

ومما يقوى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له ما مضى من تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل وذلك أن الهيئة التى تراها فى حركة المرآة إذا كانت فى كف الأشل مما ترى نادراً فى الأقل فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة فى يد مرتعش . هذا — وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة فى يد الأشل فقط بل النكتة المقصودة فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع وكونه فى صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها وهذه صفة لا تقوم فى نفس الرائى المرآة الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنف تأملا ، وينظر متثبتاً فى نظره متمهلا ، فكأن ههنا هيئتين كلتاهما من هيآت الحركة . إحداهما حركة المرآة على الخصوص الذى يوجبه ارتعاش اليد .

---

(١) الفصيلة أنثى الفصيل .

والثانية حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة . و إذا كان كون المرآة في يد الأشل مما ترى نادراً ثم كانت هذه الصفة التي هي كائنة في الشعاع إنما ترى وتدرك في حال رؤية حركة المرآة بجهد وبعد استئناف إعمال للبصر فقد بعدت عن حد ما يعتاد رؤيته مرتين ، ودخلت في النادر الذي لا تألفه العيون من جهتين ، فاعرفه .

واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة في التشبيه فكذلك تعتبر هيئة السكون على الجلة وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك . فإذا وقع في شيء من هيئات الجسم في سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن . فمن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلا :

فلما طغا ماؤه في البلاد وغصّ به كل واد صد[1]
نرى الثور في متنه طافيا كضجعة ذى التاج في المرقد

وكقول المتنبي في صفة الكلب : * يُقعى جلوسَ البدوىّ المصطلى[2] فقد فقد اختص هيئة البدوى المصطلى في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها فيها[3] ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن إلا بأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل عضو من الكلب في إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات في حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجيء منها صورة خاصة .

---

(١) في نسختنا * وغص به فارصد * وفي نسخة الأستانة « كل قاد قصد » وفي نسخة الديوان التي في مصر « كل راء صد » والصواب أنها « وغص به كل واد صد » والصدى الظمآن .

(٢) تمامه : « بأربع مجدولة لم تجدل » .

(٣) أي مواقع الأعضاء في تلك الهيئة « ش »

ومن لطيف هذا الجنس قوله فى صفة المصلوب(١) .

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل

أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل

ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل . ولو قال كأنه متمط من نعاس واقتصر عليه كان قريباً من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع فى نفس الرائى المصلوب لكونه من حد الجملة . فأما بهذا القيد وعلى هذا التقييد الذى يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر وقوة من التأمل وذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهة فيقول هو كالمتمطى ثم يقول المتمطى يمد ظهره ويده مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك ، ثم إذا أراد ذلك طلب علته وهى قيام اللوثة والكسل فى القائم من النعاس . وهذا أصل فيما يزيد به التفصيل وهو أن يثبت فى الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة وسبب .

ويشبه التشبيه فى البيت قول الآخر وهو مذكور معه فى الكتاب :

لم أر صفا مثل صف الزط تسعين منهم صلبوا فى خط(٢)

---

(١) يقول بعض شراح الشواهد : إن البيتين للأخطل فى صفة مصلوب .

(٢) الزط طائفة من أهل الهند معرب « بت » تنسب إليهم الثياب الزطية . وقوله من كل عال أى ان ذلك الخط مؤلف من أشجار عالية الجذوع كل واحد على جذع شجرة وبالشط صفة لعال جذعه . والضمير فى « كأنه » للواحد من المصلوبين فى جذعه أى الجذع الذى صلب عليه . والمشتط — الخارج عن الحد فى طوله والمخامرة المخالطة والنوم فاعل خامر والمفعول ضمير محذوف يرجع على المصلوب فإن نصب النوم فالفاعل ضمير يعود إليه . وغط النائم نخر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله ولبعض شراح الشواهد تعسف فى معنى الأبيات لا حاجة إلى ذكره .

من كل عال جِذْعُـه بالشط   كأنه فى جذعِـه المشـتط

أخو نعـاس جـد فى التمطى   قد خامر النوم ولم يغـط

فقوله « جدَّ فى التمطى » شرط يتم التشبيه كما أن قوله « مواصل » كذلك إلا أن فى اشتراط المواصلة من الفائدة ما ليس فى هذا . وذلك أنه يجوز أن يبالغ ويجتهد ويجد فى تمطيه ثم يدع ذلك فى الوقت ويعود إلى الحالة التى يكون عليها فى السلامة مما يدعو[1] إلى التمدد . وإذا كان كذلك كان المستفاد من هـذه العبارة[2] صورة التمطى وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غاية ما يمكن أن يكون عليها . وهذا كله مستفاد من الأول ثم فيه[3] زيادة أخرى وهو أخص ما يقصد من صفة المصلوب وهى الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها فأما قوله بعد : « قد خامر النوم ولم يغط » فهو إن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال إنه إذا أخذه النعاس فتمطى ثم خامر النوم فإن الهيئة الحاصلة له من جده فى التمطى تبقى له فليس ببالغ مبلغ قوله « مواصل لتمطيه » وتقييده من بعد بأنه « من الكسل » واحتياطه قبل بقوله « فيه لوثته » .

وشبيه بالأول فى الاستقصاء قول ابن الرومى :

كأن له فى الجو حبلاً يبوعه   إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل[4]

يعانق أنفاس الرياح مودعاً   وداع رحيل لا يحط له رحل

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه حبـل آخر يخرج من بوع الأول إليه كقوله « مواصـل لتمطيه من الكسل » فى استيفاء

---

(١) مما يدعو متعلق بالسلامة .

(٢) أى عبارة الأبيات .

(٣) أى فى الأول — الثلاثة عن شيخنا .

(٤) يبوعه يقيسه بالباع كما أن يذرعه يقيسه بالذراع .

الشبه والتنبيه على استدامته لأنه إذا كان لا يزال يبوع حيلا لم يقبض باعه ولم يرسل يده . وفى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال فاعرفه .

واعلم أن من حقك أن لاتضع الموازنة بين الشبهين فى حاجة أحدهما إلى زيادة من التأمل على وقتنا هذا ، ولكن تنظر إلى حالهما فى قوى العقل ولم تسمع بواحد منهما ، فتعلم أن لو أرادهما مريد واتفقا له جميعاً ولم يكن قد سمع بواحد منهما أيهما كان يكون أسهل عليه ، وأسرع إليه ، وأعطى بيديه وأيهما تجده أدل على ذكاء من يسمعه منه ، وأرجى ليخرج من تقوّله[1] وذلك أن تقابل بين تشبيه النجوم بالمصابيح والمصابيح بها و بين تشبيه سل السيوف بعقائق البرق وتشبيهها بسل السيوف ، فإنك تعلم أن الأول يقع فى نفس الصبى أول ما يحس بنفسه وأن الثانى لا يجيب إجابته ، ولا يبذل طاعته ، وكذلك تعلم أن تشبيه الثريا بنور العنقود لا يكون فى قرب تشبيهها بتفتح النور ، وأن تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة كما مضى يقع فى نفس الغر[2] العامى والصبى ، ولا يقع تشبيهها بالمرآة فى كف الأشل إلا فى قلب الحصيف[3] وتشبيهها فى حركتها تلك بمرآة تضطرب على الجملة من غير أن تجعل فى كف الأشل قد يقع لمن لايقع له بهذا التقييد ، وذلك لما مضى من حاجته إلى الفكرة فى حال الشمس وأن حركتها دائمة متصلة ، ثم طلب متحرك حركة غير اختيارية ، وجعل المرآة صادرة عن تلك الحركة ومأسورة فى حكمها دائماً ، وإنما اشترط عليك هذا الشرط لأنه لا يمتنع أن يسبق الأول إلى تشبيه لطيف يحسن تأمله ويدل على ذكائه وحدة خاطره ثم يشيع ويتسع

---

(١) التقول الابتداع وأصله فى الكذب ولكنه يراد منه الاختراع الحسن .

(٢) الغر بالكسر من لا تجربة له من شاب وشابة .

(٣) الحصيف هو القوى العقل الجيد الرأى .

ويذكر ويشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك فى أصله ، وحتى يجرى مع دقة تفصيل فيه مجرى الجمل الذى تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الورهاء[١] فإنك تعلم أن قولنا « لا يُشَقُّ غباره » الآن فى الابتذال كقولنا لا يلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك . إلا أنا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زماناً بطراءة الشباب وجِدَّة الفَتَاء وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يَشُقُّ مطلَبه ، ويصعب تناوله . ومثل هذا وأظهر منه أمراً أن قولنا « أما بعد » منسوب فى الأصل إلى واحد بعينه وإن كان الآن فى البِذلة[٢] كقولنا : هذا بعد ذاك — مثلا .

وهكذا الحكم فى الطرق التى ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التى خصها المتقدمون ، والقوانين التى وضعوها حتى صارت فى الاشتراك كالشىء المشترك من أوله ، والمبتذل الذى لم يكن الصون من شأنه ، والمبذول الذى لم يعترض دونه المنع فى شىء من زمانه ، ورب نفيس جُلب إليك من الأمكنة الشاسعة ، ورُكب فيه النوى الشطون[٣] وقُطع به عرض الفيافى[٤] ثم أخفى عنك فضله ، حتى جهلت قدره أن سهل مرامه ، واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى تحتاج إلى طلبه من مَظِنته لعلمت إحسان الجالب به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولأكثرت من شكره بعد أن أقللت ، وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت ، وكذلك

---

(١) الورهاء الحمقاء .

(٢) البذلة بالكسر ما يستعمل من الثياب فى عامة الأوقات وينزع عند إرادة الزينة .

(٣) الشطون بالفتح البئر البعيدة القعر وهو بالضم مصدر شطنت الدار إذا بعدت .

(٤) الفيافى جمع فيفاء وتقصر وهى المكان المستوى .

رُبَّ شيء نال فوق ما يستحقه من شغف النفوس به ؛ وأكثر مما توجبه المنافع الراجعة إليه ، لأنه[1] لايتسع اتساع الأول الذى فوائده أعم وأكثر ؛ ووجود العوض عنه عند الفقد أعسر ، فكسبت عزةُ الوجود هذا عزاً لم يستحقه بفضله ، كما منعت سعة الآخر فضلا هو ثابت له فى أصله .

ويتصل بهذا الموضع حديث عبد الرحمن بن حسان ، وذلك أنه رجع إلى أبيه حسان وهو صبى يبكى ويقول « لسعنى طائر » فقال حسان صفه يابنى فقال كأنه مُلتفٌ فى بُرْدَىْ حِبرَة[2] وكان لسعه زنبور فقال حسان : قال ابنى الشعر ورب الكعبة[3] أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدل به على مقدار قوة الطبع ، ويجعل عياراً فى الفرق بين الذهن المستعد للشعر وغير المستعد له ، وسره ذلك من ابنه كما سره نفس الشعر حين قال فى وقت آخر :

الله يعلم أنى كنت منتبذا فى دار حسان اصطاد اليعاسيبا[4]

(فإن قلت) إن التشبيه يتصور فى مكان الصبغ والنقش العجيب ولم يعجب حسانَ هذا وإنما أعجبه قوله « ملتف » وحسنُ هذه العبارة إذ لو قال : طائر فيه كوشى الحبرة ، لم يكن له هذا الموقع فهو إن يكن مشبهاً ما أنت فيه فمن حيث دلالته على الفطنة فى الجملة (قيل) مسلم لك أن نكتة الحسن فى

---

(١) هذا تعليل لنيله فوق مايستحقه وهو عدم اتساعه وانتشاره كما انتشر الأول .

(٢) البرد — وزان قفل — ثوب مخطط . والحبرة وزان عنبة ضرب من برود اليمن .

(٣) هذه الكلمة حجة على الذين يعرفون الشعر بأنه كلام مقفى موزون ولم يدخلوا فى مفهومه التخييل وقصد التأثير الذى هو روح الشعر ومثل هذا تعريفهم الصلاة بأنها أقوال وأفعال ولم يذكروا خشوع القلب الذى هو روحها وهكذا اكتفوا بالصور الظاهرة دون المعانى المقصودة حتى أضعنا الدين واللغة .

(٤) الانتباذ هنا التنحى واليعاسيب جمع يعسوب ضرب من الحجلان « جمع حجل » وطائر أصغر من الجرادة أو أعظم لا يضم جناحه إذا وقع تشبه به الخيل فى الضمر .

قوله ملتف ولـكن لا يسلم أنه خارج من الغرض بل هو عين المراد من التشبيه وتمـامه فيه . وذلك أنه يفيد الهيئة الخاصة فى ذلك الوشى والصبغ وصورة الزنبور فى اكتسائه بهما ويؤدى الشـبه كما مضى من طريق التفصيل دون الجملة ، فما ظننت أنه يبعده عما نحن بصدده هو الذى يدنيه منه ، ولقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته .

فصل

فى التشبيه المتعدد والفرق بينه و بين المركب

اعـلم أنى قد قدمت بيان المركب من التشبيه وههنا ما يذكر مع الذى عرفتك أنه مركب ويقرن إليه فى الـكتب وهو على الحقيقة لا يسـتحق صفة التركيب ولا يشارك الذى مضى ذكره فى الوصف الذى كان له تشبيهاً مركباً وذلك أن يكون الـكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحـدة إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر فى الشبه ومثاله قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وذلك أنه لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالا وإنمـا أراد اجتماعاً فى مكان فقط . كيف ولا يكون لمضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها ، أو يُعنى بأمرها ، كما يكون ذلك لتباشير الصبح فى أثناء الظلماء ، وكون الشقيقة على قامتها الخضراء ، فيؤدى ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخر واتصاله به اجتماع الحشف البالى والعناب ، كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما فى مكان

واحد . ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك فى ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفاً فى الفائدة على الآخر . وليس كذلك الحكم فى المركبات التى تقدمت .

وقد يكون فى التشبيه المركب ما إذا فضضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيهاً لما كان جاء فى مقابلته مع التركيب . بيان ذلك أن الجلال فى قوله « كطرف أشهب ملقى الجلال » فى مقابلة الليل وأنت لو قلت : كأن الليل جلال ، وسكتّ لم يكن شيئاً .

وقد يكون الشيء منه إذا فض تركيبه استوى التشبيه فى طرفيه إلا أن الحال تتغير ومثال ذلك قوله :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

فأنت وإن كنت إذا قلت كأن النجوم درر وكأن السماء بساط أزرق وجدت التشبيه مقبولاً معتاداً مع التفريق فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين ، ومقدار الإحسان الذى يذهب من البين ، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجباً ، وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى : من طلوع النجوم مؤتلقة مفترقة فى أديم السماء وهى زرقاء وزرقتها الصافية التى تخدع العين والنجوم تلألأ وتبرق فى أثناء تلك الزرقة . ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب ؟ وهذا أظهر من أن يخفى .

وإذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب فى صورة بيت امرىء القيس فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ

وحسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة فى عين التشبيه . ونظيره أن للجمع بين عدة تشبيهات فى بيت كقوله :

بدت قمراً وماست خوط بان وفاحت عنبراً ورنت غزالا

مكاناً من الفضيلة مرموقاً ، وشأوا ترى فيه سابقاً ومسبوقا ، لا أن حقائق التشبيهات تتغير بهذا الجمع ، أو أن الصور تتداخل وتتركب وتأتلف ائتلاف الشكلين يصيران إلى شكل ثالث ، فكونُ قدها كخوط البان ، لا يزيد ولا ينقص فى شبه الغزال حين ترنو منه العينان . وهكذا الحكم فى أنها تفوح فوح العنبر ، ويلوح وجهها كالقمر . وليس كذلك بيت بشار « كأن مثار النقع » لأن التشبيه هناك كما مضى مركب وموضوع على أن يريك الهيئة التى ترى عليها النقع المظلم والسيوف فى أثنائه تبرق وتومض ، وتعلو وتنخفض ، وترى لها حركات من جهات مختلفة كما يوجبه الحال حين يحمى الجلاد ، وترتكض بفرسانها الجياد ، كما أن قول رؤبة مثلا :

فيها خطوط من سواد وبَلَق كأنها فى الجلد توليع البهق[1]

ليس القصد فيه أن يريك كل لون على الانفراد وإنما القصد أن يرى الشبه من اجتماع اللونين . وقول البحترى :

ترى احجاله يصعدن فيه صعود البرق فى الغيم الجهام[2]

لا يريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق بل المقصود الهيئة

---

(١) أذكر أن الزمخشرى أورده فى تفسير سورة يس شاهداً على رجوع ضمير المذكر إلى المؤنث بتأويل ما ذكر حيث رواه كأنه فى الجلد الخ وهما روايتان . والتوليع استطالة البلق . والبهق محركة بياض رقيق فى البشرة .

(٢) الجهام . السحاب لا ماء فيه ويصعدن فيه أى فى الفرس المحجل .

الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين الآخر ، كذلك اللون المقصود في بيت بشار بتشبيه النقع بالليل من جانب ، والسيوف بالكواكب من جانب ، ولذلك وجب الحكم كما كنت ذكرت فى موضع بأن الكلام إلى قوله « وأسيافنا » فى حكم الصلة للمصدر وجار مجرى الإسم الواحد لئلا يقع فى التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع ليل وكأن السيوف كواكب . ونصب الأسياف لا يمنع من تقدير الاتصال ولا يوجب أن يكون فى تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » كقوله : « فإنى وقيّار بها لغريب » وقوله « كل رجل وضيعته » وهى إذا كانت بمعنى مع لم يكن فى معطوفها الانقطاع وأن يكون الكلام فى حكم جملتين ألا ترى أن قولهم « لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها » لا يكون بمنزلة أن تقول لو تركت الناقة ولو ترك فصيلها فتجعل الكلام جملتين . وكذا لا يمكنك أن تقول كل رجل كذا وضيعته كذا ، فتفرق الخبر عنهما ، كما يجوز فى قولك زيد وعمرو كريمان ، أن تقول : زيد كريم وعمرو كريم . وهذا موضع غامض وللكلام فيه موضع آخر :

وإن أردت أن تزداد تبييناً لأن التشبيه إذا كان معقوداً على الجمع دون التفريق كان حال أحد الشيئين مع الآخر حال الشيء فى صلة الشيء وتابعاً له ومبنياً عليه حتى لا يتصور إفراده بالذكر فالذى يفضى بك إلى معرفة ذلك[1] أنك تجد فى هذا الباب ما إذا فرق لم يصلح للتشبيه بوجه كقوله :

كأنما المِرِّيخ والمشترى قدامه فى شامخ الرفعه
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجتْ قدامه شمعة

---

(١) جملة فالذى جواب أن .

لو قلت كان المريخ منصرف بالليل عن دعوة وتركت حديث المشترى والشمعة كان خلفاً من القول . وذاك أن التشبيه لم يكن للمريخ من حيث هو نفسه ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشترى أمامه . وأنت وإن كنت تقول المشترى شمعة على التشبيه العامى الساذج فى قولهم كأن النجوم مصابيح وشموع فإنه لم يضع التشبيه على هذا وإنما قصد الهيئة التى يكتسبها المريخ من كون المشترى أمامه . وهكذا قول ابن المعتز :

كأنه وكأن الكأس فى فه   هلالُ أول شهر غاب فى شفق

لم يقصد أن أن يشبه الكأس على الانفراد بالهلال والشفة بالشفق بل أراد أن أن يشبه مجموع الصورتين ، ألا ترى أنك لو فرقت لم تحلَ من التشبيه بطائل ؟[1] إذ لا معنى لأن تقول : كان الشفقة شفق ، وتسكت ألا ترى أن قوله :

بياض فى جوانبه احمرار   كما احمرت من الخجل الخدود

لم يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامى وأن يقال قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع ، وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ؟ .

وقال القاضى أبو الحسن رحمه الله لو اتفق له أن يقول : احمرار فى جوانبه بياض ، لكان قد استوفى الحسن وذلك لأن خد الخجل هكذا يحدق البياض فيه بالحمرة لا الحمرة بالبياض ، إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة فشبه على طريق العكس فقال هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك . فانظر الآن إن فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والإحسان ، ويحضر العى ويذهب البيان ، لأن تشبيه البياض على الإنفراد لا معنى له ،

---

(١) فى الأساس . ما حليت بطائل منه : بفائدة اهـ وهو من حليت المرأة (كرضيت) استفادت حلياً أو لبسته فهى حال وحالية .

وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة ، أعنى تشبيه الورد الأحمر بالخد ، فإنه يفسد من حيث إن القصد إلى جنس من الورد مخصوص وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة . فيجب أن يكون وصف المشبه به على هذا الشرط أيضاً .

وبهذا الاختصاص وكما ذكرت لك تجد أحد المشبهين فى الأمر الأعم الأكثر وقد ذكر فى صلة الآخر ، ولم يعطف عليه كقوله :

« والشيب ينهض فى الشباب » و « بياض فى جوانبه احمرارا » .

وأشباه ذلك . فإن جاءت الواو كانت واو حال كقوله :

كأنما المريخ والمشترى قدامه فى شامخ الرفعه

وهى إذا كانت حالية فهى كالصفة فى كونها تابعة وبحيث لا ينفرد بالذكر ، بل يذكر فى ضمن الأول ، وعلى أنه من تبعه وحاشيته .

وهكذا الحكم فى الطرف الآخر ، ألا ترى قوله : « ليل تهاوى كواكبه » فتهاوى كواكبه ، جملة من الصفة لليل . وإذا كان كذلك فالكواكب مذكورة على سبيل التبع لليل ، ولو كانت مستبدة بشأنها لقلت : ليل وكواكب . وكذلك قوله :

* ليل يصيح بجانبيه نهار *[1]

وأشد من ذلك أن يجىء كما[2] فى الطرف الثانى كقوله : « كما احمرت من الخجل الخدود » . وبيت امرىء القيس على خلاف هذه الطريقة ، لأن أحد الشيئين فيه فى الطرفين معطوف على الآخر ، أما فى طرف الخبر وهو

---

(١) هو من صاح العنقود يصيح إذا استتم خروجه من أكمته وطال وهو فى ذلك غض (ش) .

(٢) أى لفظ « كما » الخ فإن ما فيه تسبك ما بعدها بمصدر مضاف ، فهو كلمة واحدة لا يتأتى فيها التفريق (ش) .

طرف المشبه به فبين وهو قوله : « العناب والحشف البالى » وأما فى طرف الخبر عنه وهو المشبه ؛ فإنك وإن كنت ترى اسما واحداً وهو القلوب ، فإن الجمع الذى تفيده الصيغة فى المتفق ، يجرى مجرى العطف فى المختلف ، فاجتماع شيئين أو أشياء فى لفظة تثنية أو جمع ، لا يوجب أن أحدهما فى حكم التابع للآخر ، كما يكون ذلك إذا جرى الثانى فى صفة الأول أو حاله أو ما أشبه ذلك .

هذا وقد صرح بالعطف فى البدل ، وهو المقصود . فقال : رطباً ويابساً .

واعلم أنه قد يجىء فى هذا الباب شىء له حد آخر وهو نحو قوله :

إنى وتزيينى بمدحى معشراً كمعلّق دراً على خنزير

هو على الجملة جمع بين شيئين فى عقد تشبيه ، إلا أن التشبيه فى الحقيقة لأحدهما ، ألا ترى أن المعنى على أن فعله فى التزيين بالمدح كفعل الآخر فى محاولته تزيين الخنزير بتعليق الدر عليه . ووجه الجمع أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر ، لأن الشىء غير قابل للتحسين ، ومتى كان المشبه به كمعلق فى البيت ، فلا شك أن التشبيه لا يرجع إلى ذات الشىء ، بل إلى المعنى المشتق منه الصفة . وإذا رجع إليه رجع إليه مقروناً بصفته على نحو ما مضى فى نحو : « ما زال يفتل فى الذروة والغارب » . فقد شبه تزيينه بالمدح من ليس من أهله بتعلق الدر على الخنزير ، هكذا بجملته لا بالتعليق غير معدى إلى الدر والخنزير ، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما فى صلته ، ولابد للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى مع ، وأمرها فيه أبين ، إذ لا يمكن أن يقال إنى كذا وأن تزيينى كذا ، لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم فى « إنى » الذى هو المعطوف عليه والآخر عن « تزيينى » المعطوف كما يكون فى نحو بيت بشار شيئان يمكن فى ظاهر

اللفظ أن يجعل أحدهما خبراً عن النقع ، والآخر عن الأسياف ، إلى أن تجىء إلى فساده من جهة المعنى . فأنت فى نحو : « إنى وتزيينى » مُلجأ إلى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه ، حتى لا تقدر على إخراج الكلام إلى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيها بعد تشبيه .

فإن قلت إن فى « مُعلق » معنى الذات والصفة معاً فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه . أقول لو أريد : إنى كمعلق دراً على خنزير ، وإن تزيينى بمدحى معشراً كتعليق درة على خنزير — كان قولا ظاهر السقوط لما ذكرت ، من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلا بمعلق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو وإنما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه .

فإن قلت فما تقول فى قوله :

وحتى الليل حسبت الصبح إذ بدا ‏ حِصانين مختالين جَوْناً وأشقرا

فإن ظاهره أنه من جنس المفرق ؟ أقول نعم إلا أن ثمة شيئاً من الحسن ، وهو أن لاقتران الحصانين الجون والأشقر فى الاختيال ضرباً من الخصوصية فى الهيئة ؛ لكنه لا يبلغ مبلغ : « ليل تهاوى كواكبه » ، ولا يبلغ قوله : « والصبح مثل غرة فى أدهم » كما أن قوله :

دون التعانق ناحلين كشَكلتى ‏ نصب أدقّهما وضمّ الشاكل[1]

لا يكون كقوله :

---

(١) قبل البيت وهو من قصيدة للمتنبى قوله :

كم وقفة سجرتك شوقاً بعدما ‏ غرى الرقيب بنا ولج العاذل

فدون متعلق بوقفة وسجرتك ملأتك أو ألهبتك وغرى به أولع .

إنى رأيتك فى نومى تعانقنى كما تعانق لام الكاتب الألفا

فإن هذا قد أدى إليك شكلا مخصوصاً لا يتصور فى كل واحد من المذكورين على الانفراد بوجه ، وصورة لا تكون مع التفريق[1] وأما المتنبي فأراك الشيئين فى مكان واحد ، وشدد فى الفرق بينهما . وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة فى فرط النحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقاً والأول[2] لم يُعن بحديث الدقة والنحول ، وإنما عنى بأمر الهيئة التى تحصل فى العناق خاصة من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه والتفاف الحبيب بمحبه كما قال :

* لف الصبا بقضيب قضيبا *

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة ، لأن خطى اللام والألف فى « لا » ترى رأسيهما فى جهتين وتراهما قد تماسا من الوسط ، وهذه هيئة المعتنقين على الأمر المعروف . فأما قصد المتنبي فليس بصفة عناق على الحقيقة وإنما هو تضام وتلاصق وهو بنحو قوله :

ضممته ضمة عدنا بها واحداً فلو رأتنا عيون ماخشيناها

أشبه ، لأن القصد فى مثله شدة الالتصاق ، من غير تعريج على هيئة الاعتناق ، وذهب القاضى فى بيت المتنبي إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله : « كما تعانق لام الكاتب الألفا » . وقال ولئن كان أخذه كما يقولون فليس عليه بعتب ، لأن التعب فى نقله ليس بأقل من التعب فى ابتدائه[3] ،

---

(١) بوجه متعلق بقوله لا يتصور — وصورة عطف على قوله شكلا .

(٢) يريد بالأول المتقدم على المتنبي فى الزمن .

(٣) قد أكثر الشعراء من نظم هذا المعنى ولكنهم غادروا للشاعر المعاصر المصرى ، اسماعيل باشا صبرى ، ما بذهم جميعاً حيث قال :

ولما التقينا قرب الشوق جهده خليلين ذابا لوعة وعتابا
كأن صديقاً فى خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

وهذا التفضيل والتفصيل من قول القاضي ليس قادحاً في غرضي لأني أردت أن أريك مثالا في وضع التشبيه على الجمع والتفريق واجعل البيتين معياراً فيما أردت . ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ولكن من جهة أخرى وهي الإغراق في الوصف بالنحول وجمع ذلك للخلين معاً ثم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك ، ولا تظن أن قصدي المفاضلة بين البيتين من حيث القول بين السابق والمسبوق والأخذ والسرقة فتحسب أني خالفت القاضي فيما حكم به .

فصل

« هذا فن غير ما تقدم في الموازنة بين التشبيه والتمثيل »

اعلم أني قد عرفتك أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا وثبت وجه الفرق بينهما . وهذا أصل إذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يجيء في التشبيه مجيئاً حسناً وينقاد القياس فيه انقياداً لا تعسف فيه ثم صادفته لا يطاوعك في التمثيل تلك المطاوعة ولا يجري في عنان مرادك ذلك الجري ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت ، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق وذلك جعل الفرع أصلا والأصل فرعا وهو إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها . وذلك نحو أنهم يشبهون الشيء فيها بالشيء في حال ثم يعطفون على الثاني فيشبهونه بالأول فترى الشيء مشبهاً مرة ومشبها به أخرى .

فمن أظهر ذلك أنك تقول في النجوم كأنها مصابيح ثم تقول في حالة أخرى في المصابيح كأنها نجوم ، ومثله في الظهور والكثرة تشبيه الخد بالورد والورد بالخد وتشبيه الروض المنور بالوشي المنمنم ونحو ذلك . ثم تشبيه النقش

والوشى فى الحلل بأنوار الرياض وتشبيه العيون بالنرجس ثم تشبيه النرجس بالعيون كقول أبى نواس :

لدى نرجس غضّ القطاف كأنه ... إذا ما منحناه العيون عيون

وكذلك تشبيه الثغر بالأقاحى[1] ثم تشبيهها بالثغر كقول ابن المعتز :

وألا قحوان كالثنايا الغُرّ ... قد صقلت أنواره بالقطر

وقول التنوخى :

أقحوان معانق لشقيق ... كثغور تعضّ ورد الخدود

وبعده وهو تشبيه النرجس بالعيون :

وعيون من نرجس تتراءى ... كعيون موصولة التسهيد

وكما يشبهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البروق كما قال ثم يعودون فيشبهون البرق بالسيوف المنتضاة كما قال ابن المعتز يصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا ... جرى دمعها فى خدود الثرى

سرت تقدح الصبح فى ليلها ... ببرق كهندية تُنتضى

وكقول الآخر يصف نار السذق[2] .

وما زال يعلو عجاج الدخان ... إلى أن تكوّن منه زُحَل

وكنا نرى الموج من فضة ... مُذَهّبة النور حين اشتعل

شراراً يحاكى انقضاض النجوم ... وبرقا كإيماض بيض تسل

(١) الأقاحى بالتشديد والأقاح جمع أقحوان بالضم ويقال بغير همز وهو زهر له أوراق بيض مستطيلة قليلا ووسطه أصفر : ومنه نوع صغير ليس له ورق ورائحته قوية يسمى البابونج .

(٢) السذق ليلة الوقود عند الفرس وهى مشهورة عندهم معرب شذه .

ومن لطيفه قول على بن محمد بن جعفر :

دِمَنٌ كأن رياضها تسكين أعلام المطارف[1]
وكأنما غدرانها فيها عشور من مصاحف
وكأنما أنوارها تهتز فى نكباء عاصف[2]
طرر الوصائف يلتقيـ ن بها إلى طرر الوصائف[3]
وكأن لمع بروقها فى الجو أسياف المثاقف[4]

المقصود البيت الأخير ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها فى العقد أبهى فى العين ، واملا بالزين ، منها إذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر .

ويشبهون الجواشن[5] والدروع بالغدير يضرب الريح متنه فيتكسر ويقع فيه ذلك الشنج المعلوم كقوله[6] :

---

(١) الدمن جمع دمنة كسدر جمع سدرة وهى هنا الموضع القريب من الدار . والتسكين هنا غير ظاهر ولعله محرف عن « بسكين » وهو بالتصغير اسم موضع أو عن (تشكيل) أى تصوير والمطارف جمع مطرف كمنبر وبضم الميم وفتح الراء قيل وهو الأصل لأنه من أطرفه أى جعل فى طرفيه العلمين ولكنهم استثقلوا الضمة فكسروه ومعناه رداء مربع من الخز فيه أعلام .

(٢) النكباء ريح انحرفت عن مهاب الرياح القوّم ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال .

(٣) الوصائف جمع وصيفة وهى الجـارية إذا تم قدها وأراد بها هنا الأغصان وعواليها (ش) .

(٤) المثاقف الملاعب بالسلاح اسم فاعل .

(٥) الجواشن جمع جوشن كجعفر وهو الدرع ومن معانيه الصدر قال شيخنا : ولعل الدرع أخذ منه وإنما يسمى جوشنا من الدرع ما أحاط بالصدر ، هذا ما يظهر لى اهـ .

(٦) الشنج بالتحريك التقبض وأصله فى الجلد من مس نار أو شدة برد .

وبيضاء زَغْف نَثلة سُلمِيَّة لها رفرف فوق الأنامل من علُ
واشبرنيها الهالكي كأنها غدير جرت في متنه الريح سلسلُ[١]

وقال :

وسابغة من جياد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كمتن الغدير زهته الدبور يجر المدجج منها فضولا[٢]

وقال البحتري :

يمشون في زغف كأن متونها في كل معركة متون نهاء[٣]

وهو من الشهرة بحيث لا يخفى . ثم إنهم يعكسون هذا التشبيه فيشبهون الغدران والبرك بالدروع والجواشن كقول البحتري يصف البركة :

إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها[٤]

ومن فاتن ذلك وفاخره ، لاستواء أوله في الحسن وآخره ، قول أبي فراس الحمداني :

انظر إلى زهر الربيع والماء في البرك البديع[٥]

---

(١) الزغف بالفتح والزغفة بالفتح والتحريك الدرع الواسعة الطويلة اللينة أو المحكمة . والنثلة الدرع الواسعة الطويلة والسلمية بالضم نسبة سماعية إلى سليمان ابن داود « عليهما السلام » والرفرف جوانب الدرع وما تدلى منها ؛ وأشبرنيها أعطانيها والهالكي الحداد قيل أول من صنع الحديد في العرب الهالك بن عمرو بن أسد ابن خزيمة .

(٢) الدبور الريح الغربية والمدجج بكسر الجيم المشددة وفتحها اللابس السلاح لأنه يتغطى به من دججت السماء إذا تغيمت

(٣) النهاء بالكسر أصغر محابس المطر الواحدة نهاءة وبالضم أيضاً ارتفاع الماء .

(٤) زهتها علتها « ومضارع الفعل بهذا المعنى بالألف » والصبا الريح الشرقية والحبك بضمتين جمع حبيكة وهي الطريقة في الرمل ودرع الحديد والجواشن الدروع .

(٥) البرك جمع بركة « بالكسر فيهما » وهي الحوض ومستنقع الماء .

وإذا الرياح جرت عليه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا ح بيننا حلق الدروع

وتشبيه أنوار الرياض بالنجوم كقوله :

بكت السماء بها رَذاذ دموعها فغدت تبسم عن نجوم سماء[1]

ثم تشبيه النجوم بالنور كقوله :

قد أقذف العيس في ليل كأن به وشياً من النور أو روضاً من العشب

وكقول ابن المعتز :

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتُّح نور أو لجام مفضض[2]

وقال :

وتوقد المريخ بين نجومها كبهارة[3] في روضة من نرجس

وكذلك تشبيه غرة الفرس الأدهم بالنجم أو الصبح ، ويجعل جسمه كالليل كما قال ابن المعتز :

جاء سليلا من أب وأم أدهم مصقول ظلام الجسم
قد سمرت جبهته بنجم[4]

وكما قال كاتب المأمون يصف فرساً :

---

(١) الرذاذ المطر الضعيف .

(٢) تقدم البيت ناقصاً في صفحة ١٤٣ فليكمل .

(٣) البهارة واحدة البهار بالفتح وهو نبت طيب الرائحة قال الجوهري وغيره هو العرار (بالفتح أيضاً) الذي ينبت في أيام الربيع قال ابن بري وهو النرجس البري وقال شيخنا هنا : نبت طيب الرائحة قد يكون له زهر أصفر وهنا يظهر أنه نوع منه له زهر أحمر اه أي يظهر من البيت .

(٤) الذي في الديوان بعد الشطر الأول : « لا أقفلت من ولد يعقم » وقبل الأخير : « منتعل بجندلات صم » وسمرت شدت ووثقت بالمسمار وفي نسخة « شمرت » بالمعجمة .

قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام
فرس يُزهى به لا حسن سرج ولجام[1]
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظلام
والذى يصلح للمو لى على العبد حرام

وقال ابن نباتة .

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

ثم يعكس فيشبه النجم أو الصبح بالغرة فى الفرس كقول ابن المعتز :

والصبح فى طرة ليل مسفر كأنه غرة مهر أشقر

وتشبه الجوارى فى قدودهن بالسرو تشبيهاً عامياً مبتذلا . ثم إنهم قد جعلوا فيه الفرع أصلا فشبهوا السرو بهن كقوله :

حفت بسرو كالقيان ولحفت خضر الحرير على قوام معتدل[2]
فكأنها والريح حين تميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

المقصود من البيت الأول ظاهر ، وفى البيت الثانى تشبيه من جنس الهيئة المجردة من هيئات الحركة ، وفيه تفصيل ظريف فاتن ؛ فقد راعى الحركتين حركة التهيؤ للدنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدى ما يكون فى الحركة الثانية من سرعة زائدة ، تأدية تحسب معها السمع بصراً ، تبيناً للتشبيه كما هو ، وتصويراً لأن حركة الشجرة المعتدلة فى حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها فى خروجها من مكانها من الاعتدال ،

---

(١) يزهى أى يتيه ويتكبر السرج واللجام عليه لكونها عليه لحسنه (ش) .

(٢) لحف الرجل ازاره بالتثقيل جره خيلاء وليس بظاهر هنا ولعل الأصل الحفت (مجهول) أى اتخذته لحافاً .

وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبدا من حركته إذا هم بالدنو فإزعاج الخوف والوجل ، أبداً أقوى من إزعاج الرجاء والأمل ، فمع الأول تمهل الاختبار ، وسعة الحوار[1] ومع الثانى حفز الاضطرار ، وسلطان الوجوب .
وأعود إلى الغرض :

ومن تشبيه السرور بالنساء قول ابن المعتز :

ظللت بملهى خيرَ يوم وليلة تدور علينا الكأس فى فتية زُهر
بكفى غزال ذى عذار وطرة وصدغين كالقافين فى طرف سطر
لدى نرجس غض وسرو كأنه قدود جوار مِلن فى أزر خضر

وتشبيه ثدى الكواعب بالرمان كقوله :

ربما تبيت أناملى يجنين رمان النحور

وقال المتنبى :

وقابلنى رمانتا غصن بانة يميل به بدر ويمسكه حِقْف

وقوله :

يخطن بالعيدان فى كل منزل ويجنين رمان الثدى النواهد

ثم يقلب فيشبه الرمان بالثدى كقول القائل :

ورمانة شبهتها إذ رأيتها بثدى كعاب أو بحقة مرمر[2]

---

(١) الحوار بالفتح ويكسر مراجعة الكلام .

(٢) الكعاب كسحاب الفتاة الناهد والحقة بالضم كالحق وعاء للطيب وغيره مستدير فى الغالب وكثيراً ما يكون من العاج كما جاء فى معلقة ابن أم كلثوم :

وثديا مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامسينا

وتخيلوه من الدر أو وجد عند الأمراء والملوك كما قال ابن المعتز — وعند مثله يوجد :

منمنمة صفراء نضد حولها يواقيت حمر فى ملاء معصفر

= كأن الثـــدىّ على صدرها حِقاق من الدر فى مرمر
خشـــين السقوط فأثبتها بشبه المسامير من عنبر

وقد جمعت هذه المعانى وغيرها مما قيل فى تشبيه الثديين بالحسيات والمعنويات وزدت عليه بما لم أسبق اليه أسلوبا ومعنى فقلت فى المقصورة الرشيدية بعد أبيات فى الصدر

ما كان ذان النـــاهدان فوقه الجاذبان طرف كل من رأى
الخافقـــان كالقـــلوب كلـــا اهـ تز قضيبُ قدّها أو انثنى
الناهضان ثمّ برهـــانى هوى لرَوعة الحسن وريعان الصّبا
ما كان ذان الناهـــدان الناهضا ن الخافقان الخالبـــان للنُّهى
حُقّتين من دُرّ عليه أثبتا بشبه مسمارين من مســك ذكا
أو كـــرتى عاج على مرمره حيث الصوالج العقاص لا العصا
إذاً لهـــانا مطلبـــا وبذلا لـــكل من باع الحقاق واشترى
ولاهما رمانتا غصن وشى أعـــلاه ما نمّ عليه ووشى
كيف وقـــد عز جناهما على حين نرى الرمان دانى الجنى
ولا مليـــكان عليه ألبسا تاجا من الياقوت عز وغلا
فثمة المـــلوك عبـــدان عنا لذلك السلطان أيهم عتـــا
ولا قران كوكبـــين التلقيـــا بفلك فى أفق شعر كالدجى
كعاشقين فى الخفـــاء اعتنقا رمزاً إلى سر القـران فى الخبا
فاين الدّرىّ مازانهما من لوعة تشب فى كل حشـــا
ولم يكونا ركنى المطاف من كعبة هذا الحسن قبلة الهوى
أنى وقد صينـــا بها وامتنعا من لمس من حج اليها وسعى
أو علمين حيث ذاك الحرم الآ من والحل كمرعى وحمى
كلا فلا أمن لمن منه دنا وإنما الآمن من عنه نأى
فـــكم قتيل ثم العيون ما أقيد من قاتله ولا ودى
كما أبيح فيه صيد الإنس من دون طيور الجو أو وحش الفلا
تلك رجوم يقذف الغيب بهـــا من هام فى وادى الخيال وغوى
بل ذاك هيـــكل الجمال صدره عرش الـــكمال فوقه قد استوى =

وتشبه الجداول والأنهار بالسيوف يراد بياض الماء الصافى وبصيصه مع شكل الاستطالة الذى هو شكل السيف كقول ابن المعتز :

أعددت للجار وللعفاة كوم الأعالى متساميات
روازقاً فى المحل مطمات[1]

يعنى نخلا ثم قال بعد أبيات :

تسقى بأنهار مفجرات على حصى الكافور فائضات
مثل السيوف المتفريات[2]

وقول ابن بابك :

فما سيل تخلصه المحانى كما سلت من الخلل المناصل[3]

أبو فراس :

والماء يفصل بين زهـ ـر الروض فى الشطين فصلا
كبساط وشى جردت أيدى العيون عليه نصلا

كشاجم : وترى الجداول كالسيو ف لها سواق كالمبارد

= ربان من تلك الغرانيق العلى فى حلل الزينة صينا والحلى
لولا ضياها معاً لجعلا للثانوى حجة يظهرا بما ادعى
تعبداً من ملل التوحيد والتثليـ ـث والشرك جبلا كالحصى
من بلغ الهيكل مغرما هدا ه ذينك النجدين منه فغوى

(١) الكوم بالضم جمع كوماء وهى الناقة الضخمة السنام وأكوم وهو البعير كذلك والكلام على التشبيه . والشاهد فيما بعده .

(٢) من تفرى الشيء بالتشديد انشق يقال : تفرى الليل عن صبحه .

(٣) المحانى معاطف الأودية ومحابس الماء : والخلل جمع خلة بالكسر وهى جفن السيف المغشى بالأدم أو بطانة جفن السيف مطلقاً : والمناصل السيوف واحدها كمنخل .

آخر :

وفى الجـداول أسياف محـادثة والطير تسجع إهزاجاً و إرمالا[١]

وقال ذو الرمة :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت جداول أمثال السيوف القواطع

ابن الرومى :

على حفـافى جـدوَل مسجور أبيض مثـل المهرق المنشور[٢]

أو مثل متن الصارم المشهور

ثم يقلبون أحد طرفى التشبيه على الآخر فيشبهون السيوف بالجداول كقوله :

وتخال ما ضربوا بهن جداولا وتخال ما طعنوا به أشـطانا[٣]

ابن بابك :

وأهدى إلى الغارات عزماً مشيعاً وبأساً وباعاً فى اللقاء ومقصلا[٤]

سـفيه مقط الطرتين أشـيمه فيوحى إلى الأعضاء أن تترتلا[٥]

(١) المحادثة المجلوة المصقولة . قال الشاعر : « كمنصل السيف حودث بالصقال .
والهزج والرمل بالتحريك ضربان من ضروب التلحين ويطلق الهزج على الصوت فيه بحح وهو محبوب وعلى مطلق الصوت المطرب وأصله صوت الذبان . واهزج الشاعر وأرمل جاء بالهزج والرمل وهما بحران من بحور الشعر .

(٢) الحفاف ككتاب الجانب والجدول النهر الصغير والمسجور المملوء والمهرق بضم الميم وفتح الراء الصحيفة أو ثوب حرير أبيض يسق الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه .

(٣) الاشطان الحبال أو الحبال التى يستقى بها خاصة .

(٤) المشيع العجول والشجاع كأنه شيع قلبه بما يركب كل هول . المقصل كمنبر القطاع يوصف به السيف والجمل يحطم كل شىء بأنيابه .

(٥) السفيه المضطرب والمسرف فى عمله والمقط من القط وهو القطع والطرة طرف الشىء وجانبه ، والمعنى أنه مسرف فى القط والقطع بجانبيه إذ هو محدد الطرفين أوفى جانبى الخصم بضربه ذات اليمين وذات الشمال . وشامه سله وأغمده ضد .

أغرّ كأنى حين أخضب خده ... خرقت به فى ملتقى الروض جدولا

السرى :

وكم خرق الحجاب إلى مقام ... تَوارَى الشمس فيه بالحجاب

كأن سيوفه بين العوالى ... جداول يطردن خلال غاب

وله أيضاً :

كأن سيوف الهند بين رماحه ... جداول فى غاب سما وتأشبا[1]

وتشبه الأسنة كما لا يخفى بالنجوم كما قال :

وأسنة زرقا تخال نجوما

وقال البحترى :

وتراه فى ظلم الوغى فتخاله ... قمراً يكر على الرجال بكوكب

يعنى السنان . وقال ابن المعتز :

وتراه يصغى فى القناة بكفه ... نجماً ونجماً فى القناة يجره[2]

ومثله سواء قوله :

كأنما الحربة فى كفه ... نجم دجى شيعه البدر

ثم قد شبهوا الكواكب بالسنان كقول الصنوبرى :

بشر بالصبح كوكب الصبح ... فاض وجنح الدجى كلا جنح[3]

فهو على الفجر كالسنان هوى ... للعين كما هوى على رمح

---

(١) البيت من قصيدة فى مدح الوزير المهلبي وفى رواية الديوان (علا وتأشبا) ومعنى تأشب الشجر التف .

(٢) يصغى الشىء إصغاء يميله ونجما مفعوله والمراد به كفه ، و « نجما » الثانى هو السنان والضمير فى يجره يعود إليه (ش) .

(٣) قوله فاض يعنى الكوكب والمراد فيضان نوره والجنح بالكسر ويضم الطائفة من الليل .

ابن المعتز :

شربتها والديك لم ينتبه سكران من نومته طافح
ولاحت الشعرى وجوزاؤها كمثل زُج جره رامح

وهذه إن أردت الحق قضية قد سبقت وقدمت فقد قالوا السماك الرامح على معنى أن كوكباً يتقدمه وهو رمحه ! ولا شك أن جل الغرض فى جعل ذلك الكوكب رمحاً أن يقدروه سناناً ، فالرمح رمح بالسنان ، وإذا لم يكن السنان فهو قناة ، ولذلك قال : * ورمحاً طويل القناة عسولا[1] *

ومن ذلك أن الدموع تشبه إذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر على ما يشبه الخدود من الرياحين كقول الناشى :

بكت للحبيب وقد راعها بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها بقية طل على جلنار[2]

وشبيه به قول ابن الرومى :

لو كنت يوم الوداع حاضرنا وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا الدموع ساكبة تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

ثم يعكس كقول البحترى :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد

ومثله قول ابن المعتز بعد قوله فى النرجس :

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن دُر حشوهن عقوق
إذا بلهنّ القطن خلت دموعها بكاء عيون كحلهن خَلوق[3]

(١) العسول الشديد الاهتزاز . (٢) الجلنار زهر الرمان فارسى معرب أصله كل بالكاف المفخمة وهو الورد ونار وهو الرمان . (٣) الخلوق بوزن رسول طيب مائع أصفر وقال شيخنا يضرب إلى الصفرة لأن أغلب أجزائه الزعفران . قال =

وفى فن آخر منه خارج عن جنس ما مضى يشبه الشيخ إذا أفناه الهرم، وحناه القدم حتى يدخل رأسه فى منكبيه بالفرخ كما قال :

ثلاث مئين قد مضين كواملا وها أنا هـذا أرتجى مرّ أربع
فأصبحت مثل الفرخ فى العين ثاويا إذا رام تطياراً يقال له قَع

وهو كثير ، ثم يعـكس فيشبه الفرخ بالشيخ ، كما قال أبو نواس يرثى خلف الأحمر :

لو كان حى وائلا من التلف لوئلت شغواء فى أعلى شعف
أمّ فريخ أحرزته فى لحف مزغب الألغاد لم يأكل بكف
كأنه مستقعد من الخرف[1]

وأعاده فى قصيدة أخرى فى مرثيته[2] :

لا تئل العصم فى الهضاب ولا شـغواء تغذو فرخين فى لحف
تحنو بجؤشوشها على ضَرِم كقعـدة المنحنى من الخرف[3]

= وكأنه أراد ما يبدو من لون الحمرة فى قطرات الماء ولا يكون حمرة زاهية بل يميل إلى الصفرة اهـ .

(١) وأل « كضرب » نجا أو طلب النجاة . والشغواء بالغين المعجمة العقاب لزيادة منقارها الأعلى على الأسفل كالسن الشغواء والشاغية أى الزائدة على الأسنان والشعف جمع شعفة بالتحريك فيهما وهى رأس الجبل وأعلى كل شىء . واللحف بالكسر أصل الجبل وحرك الحاء للضرورة إلا أن تكون لغة . والمزغب الذى نبت زغبه وهو بالتحريك الشعر والريش أول ما يبدو فى الصبى أو الفرخ وكذا الصغير منهما . والالغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة فى الحلق وقيل التى بين الحنك وصفحة العنق أو منتهى شحمة الأذن من أسفلها وقيل غير ذلك .

(٢) قوله أعاده أى المعنى والسبب فى ذلك أن خلفا أحب أن يرثى فى حياته فرثاه تلميذه أبو نواس بالرجز الذى ذكر هنا بعضه أولا فأعجبه وقال كنت أحب أن يكون قصيداً فقال أبو نواس أنا أحوله إلى القصيد وفعل .

(٣) العصم جمع أعصم وهو ما كان من الوعول والظباء فى ذراعيه أوأحدهما بياض

ويشبه الظليم فى حركة جناحيه مع إرسال لهما بالخباء المقوض أنشد أبو العباس لعلقمة :

صعلٌ كأن جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم (١)

اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء ليكون أشد لتفاوت حركاته ، وخروج اضطرابه عن الوزن . وقال ذو الرمة :

وبيض رفعنا بالضحى عن متونها سماوة جون كالخباء المقوض
هَجوم عليها نفسه غير أنه متى يُرْم فى عينيه بالشبح ينهض

قالوا فى تفسيره ، يعنى بالبيض بيض النعام و « رفعنا » أى أثرنا عن ظهورها . و « سماوة جون » أى شخص نعام جون ، وسماوة الشىء شخصه والجون الأسود ههنا ، لأنه قابل بين البياض والسواد . ثم شبه النعام فى حال إثارته عن البيض بالخباء المقوض ، وهو الذى نزعت أطنابه للتحويل ، والبيت الثانى من أبيات الكتاب (٢) ، أنشده شاهداً على إعمال فعول عمل الفعل وذلك قوله : « هجوم عليها نفسه » . فنفسه منصوب بهجوم على أنه من هجم متعدياً . نحو هجم عليها نفسه أى طرحها عليها ، كأنه أراد أن يصف الظليم فى خوفه بأمرين متضادين ، بأن يبالغ فى الانكباب على البيض فعل من شأنه اللزوم والثبات ، وأن يثيره عنها الشىء اليسير ، نحو أن يقع بصره

= وسائره أسود أو أحمر . والغراب الأعصم هو الأحمر الرجلين والمنقار . والجؤشوش « كعصفور » والجأش الصدر . والضرم « ككتف » فرخ العقاب ومن معانيه الجائع والفرس العداء .

(١) الظليم ذكر النعام والصعل — دقيق الرأس طويله والجؤجؤ الصدر . وأطافت به ألمت والخرقاء الحمقاء والريح المختلفة الهبوب لا تدوم على جهة واحدة ويؤخذ من الأساس أن الوصف للريح مجاز وللمرأة الحمقاء حقيقة . والبيت المهجوم هو الذى حلت أطنابه .

(٢) أى كتاب سيبويه .

على الشخص من بعد فعل من كان مستوفزاً فى مكانه غير مطمئن ولا موطن نفسه على السكون . وقوله « يرم فى عينيه بالشبح » كلام ليس لحسنه نهاية .

وقد قال ابن المعتز فعكس هذا التشبيه فشبه حركة الخباء بالطائر إلا أنه راعى أن يكون هناك صفة مخصوصة فشرط فى الطائر أن يكون مقصوصاً وذلك قوله :

ورفعنا خباءنا تضرب الريـ ـح حشاه كالجاذف المقصوص[1]

وأخرجه إلى هذا الشرط أنه أراد حركة خباء ثابت غير مقوض إلا أن الريح تقع فى جوفه فتحرك فى جانبيه على توال كما يفعل المقصوص إذا جذف وذلك أن يرد جناحيه إلى خلفه فيتحرك جانباه ، فحصل له أمران أحدهما أن الموفور الجناح يبسط جناحيه فى الأكثر وذلك إذا صف فى طيرانه فلا يدوم ضربه بجناحيه والمقصوص لقصوره عن البسط يديم ضربهما . والثانى تحريك الجناحين إلى خلف . وهذا كثير جداً وتَتبُّعه فى كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة . و إنما يمتنع هذا القلب فى طرفى التشبيه لسبب يعرض فى البين فيمنع منه ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبه أحدهما بالآخر[2] .

فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله يشبه ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

بيان هذا أن ههنا أشياء هى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب

---

(١) جذف الطائر « كضرب » أسرع .

(٢) الصميم بالمهملة المحض الخالص بدون عارض.

والقار ونحو ذلك فإذا شبهت شيئا بها كان طلب العكس فى ذاك عكساً لما يوجبه العقل ونقضاً للعادة لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة . فأنت إذا قلت فى شىء هو كخافية الغراب فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يعهد فى جنسه وأن تصحح زيادة مجهولة له . وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب فى السواد فليت شعرى ما الذى تريد من قياسه على غيره فيه ولهذا المعنى ضعف بيت البحترى :

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد[1]

وذاك أن المداد ليس من الأشياء التى لا مزيد عليها فى السواد . كيف ورب مداد فاقد اللون ، والليل بالسود وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلا ، ألا ترى إلى ابن الرومى حيث قال :

حبر أبى حفص لعاب الليل يسيل للاخوان أى سيل[2]

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل وكأن البحترى نظر إلى قول العامة فى الشىء الأسود هو كالنقس ثم تركه للقافية[3] .

---

(١) على باب متعلق بما فى البيت قبلة وهو :

وليلتنا والراح تجلى تحثها فنون غناء للزجاجة حاد

أى كان مع حبيبته فى إدارة الكؤوس واستماع الغناء طول الليل على باب قنسرين

(٢) نقل شارح شواهد الاضاح عن ديوان ابن الرومى فى مدح جرد بن حفص الوراق

حبر أبى حفص لعاب الليل كانه ألوان دهم الخيل

يجرى إلى الاخوان جرى السيل بغير وزن وبغير كيل

(٣) النقس بالكسر هو المداد الذى يكتب به .

فإن قلت : فينبغى على هذا أن لا يجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس لأجل أن الصبح بالوصف الذى لأجله شبه الغرة به أخص ، وهو فيه أظهر وأبلغ ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافية الغراب والقار وبين ما يشبه بهما . فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن تشبيه غرة الفرس بالصبح حيث ذكرت لم يقع من جهة المبالغة فى وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ . وإنما قصد أمر آخر وهو وقوع منير فى مظلم ، وحصول بياض فى سواد ؛ ثم البياض صغير قليل بالإضافة إلى السواد ، وأنت تجد هذا التشبيه على هذا الحد فى الأصل ، فإذا عكست فقلت كان الصبح عند ظهور أوله فى الليل غرة فى فرس أدهم لم تقع فى مناقضة ، كما أنك لو شبهت الصبح فى الظلام بعلم بياض على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب ، وعلى نحو من ذلك قول ابن المعتز :

فخلت الدجى والفجر قد مد خيطه رداء موشّى بالكواكب مُعلما

فالعلم فى هذا الرداء هو الفجر بلا شبهة . وله وهو صريح ما أردت :

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم[1]

وإن كان التفاوت فى المقدار بين الصبح والطراز فى الامتداد والانبساط شديداً . وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز :

وكأن الشمس المنيرة دينـا رٌ جلته حدائق الضرّاب

حسن مقبول وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو الجرم لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والائتلاق وإنما قصدت إلى

---

(١) به أى فيه والضمير لليل .

مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصوص فى جنس اللون يوجد فى المرآة المجلوة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد فى الشمس . فأما مقدار النور وأنه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، وللجرم أعظيم هو أم صغير ؟ فلم تعرض له ، ويستقيم لك العكس فى هذا كله نحو أن تشبه المرآة بالشمس . وكذلك لو قلت فى الدينار كأنه شمس أو قلت كأن الدنانير المنثورة شموس صغار ، لم تتعد .

وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء والقصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حد ، ويوجد هو أو قريب منه فى الأصل ؛ فإن العكس يستقيم فى التشبيه ومتى أريد شىء من ذلك لم يستقم .

وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم فى الشىء هو قاصر عن نظيره فى الصفة أنه زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يُجعل أصلا فيها ، فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلا ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح[1]

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف واشهر وأتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح

---

(١) قبل البيت :

حتى استرد الليل خلعته وبدا خلال سواده وضح

فرعاً ووجه الخليفة أصلا .

واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم : لا يدرى أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى فى هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة ، فإن فى الطريقة الأولى خلابة وشيئاً من السحر . وهو أنه كان يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد فى طلب تشبيه يفهم به أمره . وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجى الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل « لم » و « من أين لك ذلك ؟ » والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها .

وفى هذا الموضع تشبيه بالنكتة التى ذكرتها فى التجنيس لأنك فى الموضعين تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك ، من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك ، وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم .

ولطيفة أخرى وهى أن من شأن المدح إذا ورد على العاقل أن يقفه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما : معرفة حق المادح على ما احتشد له من تزيينه وقصده من تفخيم شأنه فى عيون الناس بالإصغاء

إليه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعه ؛ عنده وملك النفس حتى لا يقلبها السرور عليه[1] ويخرج بها إلى العجب المذموم وإلى أن يقول « أنا » فيقع فى ضعة الكبر من حيث لا يشعر ، ويظهر عليه من أمارته ما يذم لأجله ويحقر ، فما كبر أحد فى نفسه إلا أغان الكبر عقله . وفسخ عقده من أجله . وهذا موقف نزل فيه الأقدام ، بل تخف عنده الحلوم ، حتى لا يسلم من جزع النفس هناك إلا أفراد الرجال ، وإلا من أدام التوفيق صحبته ، ومن أين ذلك وأنى ؟ . فإذا كان المدح على صورة قوله « وجه الخليفة حين يمتدح » خف عنه الشطر من تكاليف هذه الخصلة .

وإذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلا والأصل فرعاً فى التشبيه الصريح فارجع إلى التمثيل وانظر هل تجىء فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة ثم تأمل ما حمل من التمثيل عليها كيف حكمه وهل هو مساو لما رأيت فى التشبيه الصريح ، وحاذ حذوه على التحقيق ؟ أم الحال على خلاف ذلك ؟ . والمثال فيما جاء من التمثيل مردوداً فيه الفرع إلى موضع الأصل والأصل إلى محل الفرع قوله .

وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع

وذلك أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلى وكذلك تشبيه خلافها من البدعة والضلالة بالظلمة ، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن كما يفعل فيما مضى من المشاهدات ، إلا أنا نعلم أنه لا يجرى مجرى قولنا كأن النجوم مصابيح تارة ، وكأن المصابيح نجوم أخرى . ولا يجري مجري قولك ، كأن السيوف برق تنعق ، وكأن البروق سيوف تُسَلّ من أغمادها فتبرق ، ونظائر ذلك

---

(١) قوله وملك عطف على معرفة وهو ثانى الأمرين وقلبها حوّلها .

فيما مضى ، وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة وتجده العين فى الموضعين وليس هو فى هذا مشاهداً محسوساً وفى الآخر معقولا متصوراً بالقلب ممتنعاً فيه الإحساس . فأنت تجد فى السيوف لمعاناً على هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة تجده بعينه أو قريباً منه فى البروق . وكذلك تجد فى المداهن من الدر حشوهن عقيق من الشكل واللون والصورة ما تجده فى النرجس حتى يتطرق أن يشتبه الحال فى الشيء من خلل فيظن أن أحدهما الآخر(١) فلو أن رجلا رأى من بعيد بريق سيوف تنتضى من الغمود لم يبعد أن يغلط فيحسب أن بروقاً انعقت وما لم يقع فيه الغلط كان حاله قريباً مما يجوز وقوع الغلط فيه . ومحال أن يكون الأمر كذلك فى التمثيل لأن السنن ليست بشيء يتراءى فى العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، وإنما يقصد بالتشبيه فى هذا الضرب ما تقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى فلما كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهل ، تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق ولا يفصل الشيء من غيره حتى يتردى فى مهواة ويعثر على عدو قاتل وآفة مهلكة لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة . ولزم على عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة وكل ما هو علم بالنور .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لا تجيء فى التمثيل على حدها فى التشبيه الصريح وأنها إذا سلكت فيه كان مبنياً على ضرب من التأول والتخييل يخرج عن الظاهر خروجاً ويبعد عنه بعداً شديداً فالتأويل فى البيت أنه لما شاع وتعورف وشهر وصف السنة ونحوها

(١) الخلل الخطأ .

بالبياض والإشراق والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » وقيل هذه حجة بيضاء ، وقيل للشبهة وكل ما ليس بحق أنه مظلم ، وقيل سواد الكفر وظلمة الجهل ، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التى لها إشراق ونور وابيضاض فى العين ، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن لها [1] فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيهه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم فى الظلام ببياض الشيب فى سواد الشباب أو بالأنوار وائتلاقها بين النبات الشديد الخضرة . فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » فى بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر إلا أن التأويل هناك أنه جعل فى وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد . والتأويل ههنا أنه خيّل ما ليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك .

ومن هذا الباب قول الآخر :

ولقد ذكرتك والزمان كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

لما كانت الأوقات التى تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال ، اسودّ النهار فى عينى وأظلمت الدنيا علىّ ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فشبه به ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرفا وإتماما للصفة وذلك أن الغزل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق والقلب القاسى يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا فى الكدرة

(١) الظاهر أن يقال : إلى لها الخ كالذى قبله ولم يلاحظ ذلك شيخنا فى الدرس لصحة المعنى .

والسواد فقاس عليه . وعلى ذلك قول العامة : ليل كقلب المنافق أو الكافر . إلا أن فى هذا شوبا من الحقيقة من حيث يتصور فى القلب أصل السواد ثم يدعى الافراط ، ولا يدعى فى البدعة نفس السواد لأنها ليس مما يتلون ، لأن اللون من صفات الجسم ، فالذى يساويه فى الشبه المساواة الثابتة قولهم : أظلم من الكفر — كما قال ابن العميد فى كتاب يداعب فيه ويظهر التظلم من هلال الصوم ويدعو على القمر فقال « وارغب إلى الله تعالى فى أن يقرب على القمر دوره ، وينقص مسافة فلكه » ثم قال بعد فصل « ويسمعنى النَّعرة فى قفا شهر رمضان[1] ويعرض علىَّ هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الكفر » .

وإن تأولت فى قوله : « سنن لاح بينهن ابتداع » أنه أراد معنى قولهم إن سواد الظلام يزيد النجوم حسناً وبهاء كان له مذهب . وذلك أنه لما كان وقوف العاقل ، على بطلان الباطل ، واطلاعه على عوار البدعة ، وخَرْقُه الستر عن فضيحة الشبهة ، يزيد الحق نبلا فى نفسه ، وحسناً فى مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا المشاهد المبصر هناك ، إلا أنه على ذلك لا يخرج من أن يكون خارجا عن الظاهر أن يمثل[2] المعقول فى ذلك بالمحسوس كما فعل البحترى فى قوله :

---

(١) النعرة الصوت ويريد بها الصيحة والعويل عليه (ش) لعله وهو يشير إلى ماهو معروف منذ قرون بتوديع المؤذنين لشهر رمضان عند قرب انتهائه .

(٢) « أن يمثل » بدل من الظاهر أو أن « من » الجارة المحذوفة من الكلام بيان للظاهر (ش) والمعنى أنه مع ذلك خروج عن الظاهر الذى هو تمثيل المعقول بالمحسوس وقلما تجد لعبد القاهر ركاكة كقوله هنا : لا يخرج من أن يكون خارجا الخ .

وقد زادها إفراط حسن جوارُها خلائق أصفار من المجد خُيَّبِ[1]

وحسن دراريّ النجوم بأن تُرى طوالع فى داج من الليل غيهب

فبك مع هـذا الوجه حاجة إلى مثل ما مضى تنزيل السنة والبدعة منزلة ما يقبل اللون ويكون له فى رأى العين منظر المشرق المتبسم ، والأسود الأقتم[2] حتى يراد أن لون هذا يزيد فى بريق ذاك وبهائه وحسنه وجماله ، وفى القطعة التى هذا البيت منها غيرها مما مذهبه المذهب الأول وهو :

رُبَّ ليــــل قطعته كالصدود وفراق ما كان فيـــه وداع

موحش كالثقيل تقذى به العيـ ن وتأبى حـــديثه الأسماع

وكأن النجوم . . . البيت وبعده :

مشرقا كأنهن حجاج يقطع الخصم والظلام انقطاع

ومما حقه أن يعد فى هذا الباب قول القائل :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاء من البأساء بعد وقوع[3]

وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذى ينحسر عنه الغمام والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لا من طريق الحس وأوضح منه فى هذا القول ابن طباطبا :

صحوٌ وغيم وضيــــاء وظُلم مثل سرور شابهُ عارضُ غم

ومن حد ما يقع فى هذا الباب قول التنوخى فى قطعة وهى قوله :

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا

---

(١) الأصفار جمع صفر بمعنى الخالى ، و « من المجد » متعلق به باعتبار المعنى

(٢) الأقتم الذى تعلوه القتمة وهى بالتحريك السواد

(٣) النجاء كالنجاة

فالأرض تحت ضريب الثلج تحسبها قد ألبست حبكا أو غشّيت ورِقا[1]
فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

المقصود فانهض بنار إلى فحم فإنه لما كان يقال في الحق إنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة وفي الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين لهما ابيضاض واسوداد وإنارة وإظلام فشبه النار الفحم بهما .

ومن هذا الباب قول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التي هي سعة حقيقة وأخلاق الكريم .

ومثله قول أبي طالب المأموني :

وفلا كآمال يضيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قيلا
أقريتها بشِملة تقرى الفلا عنقاً وتقريها الفلاة نحولا[2]

قاس الفلا في السعة وهي حقيقة فيها على الآمال وهي إذا وصفت بالسعة

---

(١) الضريب الثلج والجليد وتقدم تفسير الحبك وأن من معانيه الدروع وهي المراد هنا كما قال شيخنا . وغشيت بالتشديد من غشاه إذا غطاه وستره وهو كأغشاه يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى : «كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما» والورق الفضة ووزنه كالكتف

(٢) الشملة بكسر الشين والميم وتشديد اللام الناقة السريعة والإقراء طلب القرى وهو بالكسر الضيافة كالاقتراء والاستقراء . وقرى الضيف قرى وقراه تقرية ضيفه تضييفا وقرى البلاد تتبعها وطافها يخرج من أرض ويدخل في أخرى ، ففي قوله : تقرى الفلا عنقا تورية . والعنق بالتحريك سير مسبطر فسيح واسع للابل والدواب وهو اسم من أعنق

كان مجازاً بلا شبهة ولكن لما كان يقال : آمال طوال وآمال لا نهاية لها واتسعت آماله وأشباه ذلك صارت هذه الأوصاف كأنها موجودة فيها من طريق الحس والعيان . وعلى ذكر الأمل فمن لطيف ما جاء فى التشبيه به على هذا الحد وإن لم يكن فى معنى السعة والامتداد ، ولكن فى الظلمة والاسوداد ، قول ابن طباطبا .

رب ليل كأنه أملى فيـ ـك وقد رحت عنك بالحرمان
جُبته والنجوم تنعش فى الأفـ ـق وتطرفن كالعيون الزوانى[١]
هارباً من ظلام فعلك فى نحـ ـو ضياء الفتى الأغر الهجان[٢]

لما كان يقال فى الأمر لا يرجى له نجاح : قد أظلم علينا هذا الأمر وهذا أمر فيه ظلمة ، ثم أراد أن يبالغ فى التباس وجه النجح عليه فى أمله تخيل كأن أمله شخص شديد السواد فقاس ليله به كأنه يقول : تفكرت فيما أعلمه من الأشياء السود فرأيت صورة أملى فيك زائدة على جميعها فى شدة السواد فجعلته قياساً فى ظلمة ليلى الذى جبته .

ومن الباب وهو حسن قول ابن المعتز :

لا تخلطوا الدوشاب فى قدح بصفاء ماء طيب البرد[٣]
لا تجمعوا بالله ويحكم غلظ الوعيد ورقة الوعد

لما كان يقال : اغلظ له القول ، ويوصف الجافى وكل من أساء وقال ما يكره بالغلظ ، ويوصف كلام المحسن ومن يعمد إلى الجميل باللطافة — جعل الوعيد

---

(١) جبته قطعته ونعش طرفه بالمثلثة (من باب فتح) رفعه لينظر وطرفت العين طرفا من باب ضرب تحركت

(٢) الهجان ككتاب الخيار من كل شىء ورجل هجان كريم الحسب

(٣) الدوشاب نبيذ التمر معرب ، أو الأسود كما فى شرح ديوان ابن الرومى . وقال السمعانى انه الدبس بالعربية

والوعد أصلا فى الصفتين ، وقاس عليهما . فأما قول الآخر :

شربت على سلامة فتكين شراباً صفوه صفو اليقين

فهو على الحقيقة لا يدخل فى تشبيه الحقيقة بالمجاز ، لأن الصفاء خلوص الشيء وخلوه من شيء يغيره عن صفته ، إلا أنه من حيث يقع فى الأكثر لما له بريق وبصيص كان ، كأنه حقيقة فى المحسوسات ومجاز فى المعقولات . وأما قولهم : هواء أرق من تشاكى الأحباب ، فمن الباب ، لأن الرقة فى الهواء حقيقة ، وفى التشاكى مجاز . وهكذا قول أبى نواس فى خلاعته : « حتى هى فى رقة دينى » لأن الرقة من صفات الأجسام فهى في الدين مجاز :

ومما كأنه يدخل فى هذا الجنس قول المتنبى :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس .

ومما هو حسن جميل من هذا الباب ، قول الصاحب كتب به إلى القاضى أبى الحسن . روى عن القاضى أنه قال انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد فجاءنى رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

يا أيها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

وكون هذا التشبيه مما نحن فيه من الترجيح[1] أوضح ما يكون ، فليس يخاف أن العادة أن يشبه الثناء بالعطر ونحوه ، ويشتق منه وقد عكس ، كما ترى ، وذلك على ادعاء أن ثناءه أحق بصفة العطر وطيبه من العطر وأخص

---

(١) أى ترجيح جانب المجاز وجعله أصلا يشبه به وفى نسخة : التوضيح .

به ، وأنه قد صار أصلا حتى إذا قيس نوع العطر عليه فقد بولغ فى صفته بالطيب ، وجعل له فى الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب .

وإذ قد عرفت الطريقة فى جعل الفرع أصلا فى التمثيل ؛ فارجع وقابل بينه وبين التشبيه الظاهر ، تعلم أن حاله فى الحقيقة مخالفة للحال ثمّ . وذلك أنك لا تحتاج فى تشبيه البرق بالسيوف ، والسيوف بالبرق ، إلى تأويل أكثر من أن العين تؤدى إليك من حيث الشكل واللون وكيفية اللمعان ، صورة خاصة تجدها فى كل واحد من الشيئين على الحقيقة ، ولا يمكننا أن نقول إن الثريا شبهت باللجام المفضض ، وبعنقود الكرم المنور ، وبالوشاح المفصل لتأويل كذا ، بل ليس بأكثر من أن أنجم الثريا لونها لون الفضة ، ثم إن أجرامها فى الصغر قريبة من تلك الأطراف المركبة على سيور اللجام ثم انها فى الاجتماع والافتراق على مقدار من مواقع تلك ، وكذا القول فى العنقود . فإن تلك الأنوار مشاكلة فى البياض ، وفى أنها ليست متضامة تضام التلاصق ، ولا هى شديدة التباين حتى يبعد الفصل بين بعضها وبعض ، بل مقاديرها فى القرب والبعد على صفة قريبة مما يتراءى فى العين من مواقع تلك الأنجم .

وإذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ما تصف من ذاك ، لم يكن تشبيه اللجام المفضض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به . والحكم على أحدهما بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد المتكلم ، فما بدأ نه فى الذكر فقد جعله فرعا ، وجعل الآخر أصلا ، وليس كذلك قولنا : له خلق كالمسك ، وهو فى دنوه بعطائه ، وبعده بعزه وعلائه ، كالبدر فى ارتفاعه ، مع نزول شعاعه . لأن كون الخلق فرعا ، والمسك أصلا ، أمر واجب ، من حيث كان المعلوم من طريق الإحساس والعيان ، متقدما على المعلوم من طريق الروية وهاجس الفكر .

وحكم هذا فى أن الفرع لا يخرج عن كونه فرعاً على الحقيقة حكم ما طريق التشبيه فيه المبالغة من المشاهدات والمحسوسات كقولك : هو كحلك الغراب فى السواد لما هو دونه فيه[1] . وقولك فى الشيء من الفواكه مثلا هو كالعسل فكما لا يصح أن يعكس فيشبه حلك الغراب بما هو دونه فى السواد والعسل بما لا يساويه فى صدق الحلاوة ، كذلك لا يصح أن تقول هذا مسك كخلق فلان ، إلا على ما قدمت من التخييل . ألا ترى أنه كلام لا يقوله إلا من يريد مدح المذكور . فأما أن يكون القصد بيان حال المسك على حد قصدك أن تبين حال الشيء المشبه بحلك الغراب فى السواد ، والمشبه بالعسل فى الحلاوة فما لا يكون . كيف ولولا سبق المعرفة من طريق الحس بحال المسك ، ثم جريان العرف بما جرى ، من تشبيه الأخلاق به ، واستعارة الطيب لها منه ، لم يتصور هذا الذى تريد تخييله من أنا نبالغ فى وصف المسك بالطيب تشبيهاً بخلق الممدوح ، وعلى ذلك قولهم : « كأنما سرق المسك عرفه من خلقك ، والعسل حلاوته من لفظك » . هو مبنى على العرف السابق من تشبيه الخلق بالمسك ، واللفظ بالعسل . ولو لم يتقدم ذلك ولم يتعارف ولم يستقر فى العادات لم يعقل لهذا النحو من الكلام معنى ، لأن كل مبالغة ومجاز فلابد من أن يكون له استناد إلى حقيقة .

وإذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين والتشبيه الصريح الواقع فى العيان ، وما يدركه الحس ، وبين التمثيل الذى هو تشبيه من طريق العقل والمقاييس التى تجمع بين الشيئين فى حكم تقتضيه الصفة المحسوسة ، لا فى نفس الصفة ، كما بينت لك فى أول قول ابتدأته فى الفرق بين التشبيه الصريح

---

(١) حلك الغراب بالتحديك حنكه وقيل سواده .

و بين التمثيل من أنك تشبه اللفظ بالعسل ، على أنك تجمع بينهما فى حكم توجيه الحلاوة دون الحلاوة نفسها — فههنا لطيفة أخرى — تعطيك للتمثيل مثالا من طريق المشاهدة ، وذاك أنك بالتمثيل فى حكم من يرى صورة واحدة ، إلا أنه يراها تارة فى المرآة وتارة على ظاهر الأمر .

وأما فى التشبيه الصريح ؛ فإنك ترى صورتين على الحقيقة . يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ، ونفوسنا صور الأجسام فى القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة ، لم يمكنا تخيل شيء من تلك الأوصاف فى الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان ، قريباً من حيث الجود والإحسان ، حتى يخطر ببالك ، وتطمح بفكرك ، إلى صورة البدر و بعد جرمه عنك ، وقرب نوره منك ، وليس كذلك الحال فى الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر ؛ فإنك لا تفتقر فى معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته ، وتوسط أحمره لأبيضه ، إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق ، كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه فى قليل المشاهدة ، و إنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التى معك و يجتلبها ، لكن من مكان بعيد حتى تراهما معاً وتجدهما جميعاً .

وأما فى الأولى ، فإنك لا تجد فى الفرع نفس ما فى الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته ، ولا يحضرك تمثيل الأصل على التعيين والتحقيق ، وإنما يخيل إليك أنه يحضرك ذلك ، فإنه يعطيك من الممدوح بدراً ثانياً فصار وزان أن المرآة تخيل إليك أن فيها شخصاً ثانياً على صورة ما هى مقابلة له ، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ما كنت تتخيله ، فلا تجد إلى وجوده سبيلا ، ولا تستطيع له تحصيلا ، لا جملة ولا تفصيلا .

فصــــل

« فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل »

اعلم أن من المقاصد التى تقع العناية بها أن تبين حال الاستعارة مع التمثيل أهى هو على الإطلاق حتى لا فرق بين العبارتين أم حدها غير حده ، إلا أنها تتضمنه وتتصل به ، فيجب أن نفرد جملة من القول فى حالها مع التمثيل .

قد مضى فى الاستعارة أن حدها أن يكون للفظ اللغوى أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم . وهذا الحد لا يجئ فى معنى التمثيل الذى تقدم من أن الأصل فى كونه مثلا وتمثيلا هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور ، والذى لا يحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر ، لأنك قد تجد الألفاظ فى الجمل التى يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها فى اللغة .

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيد حكما زائداً على المراد بالتمثيل إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح إطلاقها فى كل شىء يقال فيه إنه تمثيل ومثل . والقول فيها إنها دلالة على حكم ثبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوى وإجراؤه على مالم يوضع له . ثم إن هذا النقل يكون فى الغالب من أجل شبه بين ما نقل إليه وما نقل عنه .

وبيان ذلك مامضى من أنك تقول رأيت أسداً — تريد رجلا شبيهاً به فى الشجاعة ، وظبية — تريد امرأة شبيهة بالظبية . فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها ، أو كالعلة والسبب فى فعلها . فإن قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه

والتشبيه يكون ولا استعارة ، وذلك إذا جئت بحرفه الظاهر فقلت : زيد كالأسد .
فالجواب أن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة. فقولى « من أجل التشبيه » أردت من أجل التشبيه على هذا الشرط . وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها . ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعا شبيهاً بالأسد وأن شبهه به فى الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها . وإذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال إن الاستعارة هى الاختصار والإيجاز على الحقيقة وأن حقيقتها وحقيقتهما واحدة ، ولكن يقال إن الاختصار والإيجاز يحصلان بها ، أو هما غرضان فيها ، ومن جملة مادعا إلى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها . فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا .

وإذ قد تقرر هذه الجملة فإذا كان المشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال إن فيها تمثيلا وضرب مثل وإذا كان الشبه عقلياً جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الاسم مثلا لكذا كقولنا ضرب النور مثلا للقرآن ، والحياة مثلا للعلم . فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله فى اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلى إلى مكان آخر لأجل الأغراض التى ذكرنا من

التشبيه والمبالغة والاختصار : والضارب للمثل لا يفعل ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد إلى تقرير الشبه بين الشيئين من الوجه الذى مضى . ثم إن وقع فى أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجملتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شيء لم يعتمده من جهة المثل الذى هو ضاربه . وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت زيد كالأسد ، وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة : وله رأى كالسيف فى المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لا يكون فى الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعانى وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا ، فإذا كانت اسما كان اسم جنس أو صفة ، فإذا كان اسم جنس فإنك تراه فى أكثر الأحوال التى تنقل فيها محتملا متكفئا بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذى من شأنه أن ينقل إليه . فإذا قلت رأيت أسداً ، صلح هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيت واحداً من جنس السبع المعلوم وجاز أن تريد أنك رأيت شجاعا باسلا شديد الجرأة وإنما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد . وإن كان فعلا أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال فى بعض الأحوال ، وذلك إذا اسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على ما يكون أصلا فى تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعا فيهما نحو أن تقول : أنار لى منير «

فهذا الكلام يحتمل أن يكون « أنار » « ومنير » فيه واقعين على الحقيقة بأن يعنى بالشىء بعض الأجسام ذوات النور . وأن يكونا واقعين على المجاز بأن تريد بالشىء نوعا من العلم والرأى وما أشبه ذلك من المعانى التى لا يصح وجود النور فيها حقيقة وإنما توصف به على سبيل التشبيه . وفى الفعل والصفة شىء آخر وهو أنك كأنك تدعى معنى اللفظ المستعار له . فإذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ولذلك تجىء فتضيفه إليه كما تضاف المعانى التى يشتق منها الفعل والصفة إلى الفاعل والموصوف فتقول : نور هذه الحجة جلا بصرى وشرح صدرى كما تقول : نور الشمس . والمثل لايوجب شيئاً من هذه الأحكام ، فلا هو يقتضى تردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يدعى معناه للشىء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

وإذ قد ثبت هذا الأصل فاعلم أن ههنا أصلا آخر يبنى عليه وهو أن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبهاً ومشبهاً به وكذلك التمثيل لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلى — فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسداً تريد رجلا شجاعا ، ووردت بحراً زاخراً تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نوراً تريد علماً ، وما شاكل ذلك . فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى . وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كى تقوى أمر المشابهة وتشدده ويكون لها هذا الصنيع

حيث يقع الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجروراً بحرف الجر أو مضافا إليه ، فالفاعل كقولك : بدا لى أسد ، وانبرى لى ليث ، وبدا نور ، وظهرت شمس ساطعة ، وفاض لى بالمواهب بحر ، وكقوله :

وفى الجيرة الغادين من بطن وَجْرَة غزال كحيل المقلتين ربيب[1]

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً . والمجرور نحو قولك لاعار إن فر من أسد يزأر ، والمضاف إليه كقوله :

ياابن الكواكب من أئمة هاشم والرُّجَّح الأحساب والأحلام

وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً ، وكان مبتدأ واسم المشبه به واقعاً فى موضع الخبر ، كقولك زيد أسد ، أو على هذا الحد . وهل يستحق الاسم فى هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ فيه شبهة وكلام سيأتيك إن شاء الله تعالى .

وإذ قد عرفت هذه الجملة فينبغى أن تعلم أنه ليس كل شىء يجئ مشبها به بكاف أو بإضافة « مثل » إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك : أبديت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأيا نافذاً . وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون فى الحال دليل عليه وفى العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت فكل شىء كان من الضرب الأول الذى ذكرت أنك تكتفى فيه بإطلاق الاسم داخلا عليه حرف التشبيه نحو قولهم : هو كالأسد ، فإنك إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة

(١) وجرة موضع بين مكة والبصرة

وجدت فى دليل الحال وفى العرف مايبين غرضك ، إذا يعلم إذا قلت رأيت أسد — وأنت تريد الممدوح — أنك قصدت وصفه بالشجاعة وإذا قلت طلعت شمس — وأنت تريد امرأة — عُلِم بأنك تريد وصفها بالحسن وإن أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما إذا كان من الضرب الثانى لاسبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل فإن الاستعارة لاتدخله لأن وجه الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله إلى غير ماهو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه ، فلو حاولت فى قوله : « فإنك كالليل الذى هو مدركى » أن تعامل الليل معاملة الأسد فى قولك : رأيت أسداً — أعنى أن تسقط ذكر الممدوح من البين — لم تجد له مذهباً فى الكلام ولا صادفت طريقة توصلك إليه ، لأنك لاتخلو من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول : إن فررت أظلنى الليل . وهذا محال لأنه ليس فى الليل دليل على النكتة التى قصدها من أنه لا يفوته وإن أبعد فى الهرب ، وصار إلى أقصى الأرض لسعة ملكه وطول يده ، وأن له فى جميع الآفاق عاملا وصاحب حبس ومطيعاً لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية مايتأتى فى ذلك أنه يريد إن هرب عنه اظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار كمن يحصل فى ظلمة الليل ، وهذا شىء خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم لتؤدى به التشبيه الذى قصد فى البيت ولم أرد أنه لا تمكن استعارته على معنى ما ولا يصلح فى غرض من الأغراض ، وإن لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدى إلى تعسف إذ لو قلت : إن

فررت منك وجدت ليلا يدركني وإن ظننت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد — قلت ما لا تقبله الطباع ، وسلكت طريقة مجهولة لأن العرف لم يجر بأن تجعل الممدوح ليلا هكذا .

فأما قولهم : إن التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فإنه لا يفسح فى أن يجرى اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوهما ، وإنما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ؛ كما قال ابن طباطبا :

* بعثت معى قطعاً من الليل مظلما * يعنى زنجياً قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه إلى منزله ، هذا — وعاثاله كلما وجدت ما إن رمت فيه طريقة الاستعارة لم تجد فيه هذا القدر من التمحل والتكلف أيضاً ، وهو كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » . قل الآن من أى جهة تصل إلى الاستعارة ههنا ، وبأى ذريعة تتذرع إليها ؟ هل تقدر أن تقول : رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة ، فى معنى رأيت ناساً والإبل المائة التى لا تجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت : رأيت أسداً ، على معنى رجلا كالأسد وأطلقت عليه الأسد على معنى الذى هو الأسد ؟ . وكذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة »[1] . لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة فى شىء منه فتقول : رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمناً . إن من رام مثل هذا كا كما قال صاحب الكتاب ملغزاً تاركا لكلام الناس الذى يسبق إلى أفئدتهم . وقد قدمت طرفاً من هذا الفصل فيما مضى ولكننى أعدته ههنا لاتصاله بما نريد ذكره .

---

(١) الخامة الغضة الرطبة من النبات ، والحديث : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا » قال الطرماح :

إنما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده

فقد ظهر أنه ليس كل شيء يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به . وبقى أن يتعرف الحكم فى الحالة الأخرى وهى التى يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكوراً فيها نحو : زيد أسد ووجدته أسداً ، هل تساوق صريح التشبيه حتى يجوز فى كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثانى وتجعله خبراً عن الأول أو بمنزلة الخبر ؟ والقول فى ذلك : أن التشبيه إذا كان صريحاً بالكاف . و « مثل » كان الأعرف الأشهر فى المشبه به أن يكون معرفة كقولك : هو كالأسد وهو كالشمس وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم وما شاكل ذلك ، ولا يكاد يجيء نكرة مجيئاً يرتضى ، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث ، إلا أن يخصص بصفة نحو : كبحر زاخر ، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالإعراب الذى يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين — التعريف والتنكير — فيه حسناً جميلا . تقول : زيد الأسد والشمس والبحر . وزيد أسد وشمس وبدر وبحر .

وإذ قد عرفت هذا فارجع إلى نحو « فإنك كالليل الذى هو مدركى » واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول : فإنك الليل الذى هو مدركى . أو أنت الليل الذى هو مدركى . وتقول فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع » المؤمن الخامة من الزرع . وفى قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس كإبل مائة » : الناس إبل مائة . ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد : (واسئل القرية) تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلا .

والنكتة فى الفرق بين هذا الضرب الذى لا بد المجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها و بين الضرب الأول الذى هو نحو زيد كالأسد ، أنك إذا حذفت الكاف هناك فقلت : زيد الأسد فانقصد أن تبالغ فى التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبه أصلا فقلت : رأيت أسداً أو الأسد . فأما فى نحو « فإنك كالليل الذى هو مدركى » فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ولكنك تنوى أنك أردت أن تقول : فإنك مثل الليل ثم حذفت المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف . وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً إن الأصل زيد : مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كان لم يكن لقصد المبالغة . ألا تراهم يقولون جعله الأسد وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع إلى وصف فى الليل كالظلمة ونحوها وإنما قصد الحكم الذى له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه .

وإن أردت أن تزداد علماً بأن الأمر كذلك أعنى أن ههنا ما يصلح فيه التشبيه الظاهر ولا تصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثانى فاعمد إلى ما تجد الاسم الذى افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » الآية لو قلت : إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الأرض ، لم يكن للكلام وجه ، غير أن تقدر حذف « مثل » نحو إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت

وكيت ، إذ لايتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده ، وقد أفرد كما قد يتخيل فى البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل فى السخط . وهذا موضع فى الجملة مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لاسبيل إلى جحد أنك تجد الاسم فى الكثير وقد يوضع موضعاً فى التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه فى ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك كالنكرة التى هى « ماء » فى لآية وفى الآى الأخر نحو قوله تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) ولو قلت : هم صيب ولا تضمر مثلا أبتة على حد « هو أسد » لم يجز لأنه لامعنى لجعلهم صيباً فى هذا الموضع ، وإن كان لا يمتنع أن يقع صيب فى موضع آخر ليس من هذا الغرض فى شىء استعارة ومبالغة كقولك : فاض صيب منه تريد جوده : وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق فى الجود — فلسنا نقول إن ههنا اسم جنس واسما صفة لايصلح للاستعارة فى حال من الأحوال .

وهذا شعب من القول[1] يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ويدخل فيه مسائل ولكن استقصاءه يقطع عن الغرض . فإن قلت فلابد من أصل يرجع إليه فى الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة والمبالغة ومالا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن ههنا

---

(١) أى جانب وناحية منه فهو بالكسر وقال شيخنا فى الدرس : لو جعل الشعب بمعنى القبيلة والطائفة — فيكون بالفتح — لم يكن بعيداً عن المراد انتهى . وكلا الاستعارتين للقول من المحاسن التى لم نعرفها لغير المصنف .

نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهى أن الشبه إذا كان وصفا معروفا فى الشىء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن فى الشمس أو الاشتهار والظهور وأنها لاتخفى فيها أيضاً[١] وكالطيب فى المسك والحلاوة فى العسل والمرارة فى الصاب والشجاعة فى الأسد والفيض فى البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة فى السيف والنفاذ فى السنان وسرعة المرور فى السهم وسرعة الحركة فى شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التى لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم فى معانيه — فاستعارة الاسم للشىء على معنى ذلك الشبه تجىء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هـذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف كونها أصولا فيها[٢] وأنها أخص ما توجد فيه بها ، فكل أحد يعلم أن أخصّ المنيرات[٣] بالنـور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد . ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجز أن تدل عليه بالاستعارة ، ولـكن إن أردتها من الفلك جاز ، فإن قصدتها من الـكرة كان أبين لأن الاسـتدارة من الـكرة أشهر وصف فيها . ومتى صلحت الاستعارة فى شىء فالمبالغة فيـه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بهـا أفصح ، أعنى أنك إذ قلت : « ياابن الـكواكب من أئمة هاشم » : و « ياابن الليوث الغرّ » فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذى وضع له . وادّعيتـــه له كان قولك : هم الـكواكب وهم

---

(١) فيها مرتبط بالاشتهار والظهور وأنها لا تخفى

(٢) أى تعورف كون الأسماء أصولا فى الأوصاف وأن الأسماء أخص ما توجد فيه تلك الأوصاف بالأوصاف

(٣) لعل أصلها النيرات إذ اعتيد إطلاقها على الـكواكب .

الليوث ، أو هم كواكب وليوث ، أحرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع فى وقوع العلم له به .

واعلم أن المعنى فى المبالغة — وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا وذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة — أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى به يجمع بين الشيئين وينفى عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ماعداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظاً ظاهراً فى الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذ قال هو الأسد ، تناهى فى الدعوى إما قريبا من الحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزاً فى القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً . وإذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد فى حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضع على ذلك السبع إلا للشجاعة التى فيه ، وأن ماعداها من صورته وسائر صفاته عيال عليها وتبع لها فى استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذى يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت[1] فقد جعل الأسد له لا محالة لأن قولنا « هو هو » على معنيين (أحدهما) أن يكون للشيء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر ، فإذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فإذا قلت : زيد هو أبو عبد الله ، عرفت أن هذا الذى تذكر الآن هو الذى عرفه بأبى عبد الله . و (الثانى) أن يراد تحقيق التشابه بين الشيئين وتكميله لها ، ونفى الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أى لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع إذا اختص

---

(١) قوله : فقد جعل الخ جواب قوله : وإذا كان بحكم التشبيه الخ .

أحدهما بصفة لا تكون فى الآخر . وهذا المعنى الثانى فرع على الأول وذلك أن المتشابهين التشابه التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرائى لهما فى حالين أنه رأى شيئاً واحداً صاروا إذا حققوا التشبيه بين الشيئين يقولون « هو هو » والمشبهُ إذا وقف وهمه كما عرفتك على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقاً فقد صار إلى معنى قولنا « هو هو » بلا شبهة .

وإذا تقررت هذه الجملة فقولنا * فإنك كالليل الذى هو مدركى * إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فإنك الليل الذى هو مدركى — لزمك لا محالة أن تعمد إلى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التى من أجلها جعلت الرجل الأسد . فإن قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه ، حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشة كما قال * أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب * قيل لك هذا التقدير إن استجزناه وعملنا عليه فإنا نحتمله والكلام على ظاهره وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه فى البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجىء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلا بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : « أنت الصاب والعسل » ولا تقول وأنت مادح : أنت الصابُ ، وتسكت ، وحتى ان الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال فى دفع ما يغشى النفس من الكراهة بإطلاق الصفة التى ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام ما يخرج به إلى نوع من المدح كقول المتنبى :

حَسن في وجوهِ أعدائه أقـ ـبح من ضيفه رأته السـوام[(١)]

بدأ فجعله حسناً على الإطلاق ، ثم أراد أن يجعله قبيحاً في عيون أعدائه على العادة في مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ما سبق من تمهيده ، وتقدم من احترازه في تلافي ما يجنيه إطلاق صفة القبح ، حتى وصل به هذه الزيادة من المدح ، وهي كراهة سوامه لرؤية أضيافه ، وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطاً بين سعدين ، فيبطل فعله وينمحق أثره . وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمام ، حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه ، والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر على صميم التشبيه وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه كقوله :

وإذا ما أردت كنت رشاء وإذا ما أردت كنت قليبا[(٢)]

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال :

ما زال يهذي بالمكارم والعلى حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذي وجعل عليه الحمى ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة في إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ، فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي ، فكذلك

---

(١) قوله « في وجوه أعدائه » هكذا ورد في نسختي الكتاب هنا وفيما سبق والرواية الصحيحة « في عيون أعدائه » ويدل على الرواية الصحيحة قول المصنف : « ثم أراد أن يجعله قبيحا في عيون أعدائه » ، ولعل الخطأ من تحريف النساخ .

(٢) يروى أول البيت : فإذا . والرشاء حبل الدلو والقليب البئر ، وقبل البيت :

ممطر لي بالجاه والمال ما ألـ ـقاك إلا مستوهبا أو وهوبا

أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، فى اقتراحك علينا أن نسلك بالليل فى البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

(فإن قلت) افترى أن تأبى هذا التقدير فى البيت أيضاً حتى يقصر التشبيه على ما تفيده الجملة الجارية فى صلة الذى ؟ (قلت) فإن ذلك الوجهُ فيما أظنه فقد جاء فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « ليدخلنَّ هذا الدين ما دخل عليه الليل » فكما تجرد المعنى ههنا للحكم الذى هو الليل من الوصول إلى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك يجوز أن يتجرد فى البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل إلى إدراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده . وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : إن النهار بمنزلة الليل فى وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما فكما أن الكائن فى النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن فى الليل لا يجد موضعاً لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روّى فى نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزاد فى نصرته بقوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق فى كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغة فى تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصى البلاد ، وانتشارها فى العباد ، بالليل ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ

فاحشاً ، إلا أن هذا وإن كان يجيء مستوياً فى الموازنة ففرق بين ما تكره من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه . وأما ماليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحاً وتدع الفكر فيها .

وأما تركه أن يمثل بالنهار وإن كان بمنزلة الليل فيا أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، وإذا كان يكلمه وهو فى النهار بعُدَ أن يضرب المثل بإدراك النهار له ، وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر ، وطريانه على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو فى صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكاناً يقيني الطلب منك ، ولكان إدراكك لى وإن بعدت واجباً كإدراك هذا الليل المقبل فى عقب نهارى هذا إياى ، ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض .

وههنا شيء آخر وهو أن تشبيه النعمة فى البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلا على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع ، وجعله أصلا ومقصوداً على الانفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة . وليس كذلك الحكم فى الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح بالسخط مستكره حتى لو قلت : أنت فى حال السخط ليل وفى الرضى نهار ، فطفقت هكذا تجعله بسخطه ، لم يحسن ، وإنما الواجب أن يقول : النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار لمن يرضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها ، كما قال :

أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالى كلها أسحار

وقد يقول الرجل لمحبوبه : أنت ليلى ونهارى . أى بك تضئ الدنيا وتظلم ، فإذا رضيت فدهرى نهار ، وإذا غضبت فليل ، كما تقول : أنت دائى ودوائى ، وبرئى وسقامى ، ولا تكاد تجد أحداً يقول « أنت ليل » على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالوصف بالظلمة وسواد الجلد وتجهم الوجه أخص ، وبأن يراد بها أخلق ، وهذا المعنى منها إلى القلب أسبق ، فاعرفه .

فصـــــل

اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذى يقتضى كونه مستعاراً ثم لا يكون مستعاراً ، وذاك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ، وليس له شبه ينفرد به ، على ما قدمت لك من أن الشبه يجئ منتزعاً من مجموع جملة من الكلام فمن ذلك قول داود بن على حين خطب فقال :

شكراً شكراً إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لن نظفر به ، أرخىَ له فى زمامه ، حتى عثر فى فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر فى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره فى أهل بيت الرأفة والرحمة[1] .

---

(١) الخطام ككتاب حبل يجعل فى عنق البعير ويثنى فى خطمه ، وكل ما وضع فى مخطم البعير (انفه) ليقتاد به . والنزعة بالتحريك الرماة بالنبل جمع نازع وفى الامثال « صار الامر الى النزعة » أى قام باصلاحه اهل الاناة والسياسة . ومنها « عاد السهم الى النزعة » أى رجع الحق الى اهله فالجملة فى كلام الخطيب بمعنى ماقبلها وما بعدها مراداً لامفهوما

فقوله : الآن أخذ القوس باريها — وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة والبارى عن المستحق لها — فإنه لا يجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس لأجل أنه لايتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد وأن يقال « هى قوس » كما يقال « هى نور وشمس » وإنما الشبه مؤلف بحال الخلافة[1] مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى براها ، وهو أن البارى للقوس أعرف بخيرها وشرها ، وأهدى إلى توتيرها وتصريفها إذ كان العامل لها . فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة فى الإمامة والجامع لها يكون أهدى إلى توفية الخلافة وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعى فى سياسة الخلق بالأمر والنهى التى هى المقصود منها ترتيباً ووزنا تقع به الأفعال مواقعها من الصواب ، كما أن العارف بالقوس يراعى فى تسوية جوانبها ، وإقامة وترها ، وكيفية نزعتها ، ووضع السهم الموضع الخاص منها . ما يوجب فى سهامه أن تصيب الأغراض ، وتُقرطسَ فى الأهداف ، وتقع فى المقاتل ، وتصيب شاكلة الرَّمىّ[2] .

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاماً حسناً من رجل دميم : « عسل طيب فى ظرف ســـــوء » ليس (عسل) ههنا على حده فى قولك : ألفاظه عسل ، لأجل أنه لم يقصد إلى بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل فى

---

(١) كأنه جعل « مؤلفا » فى معنى مصور ومحصل فعداه بالباء (ش) يعنى على سبيل التضمين وهو سماعى عند الجمهور فهل يعده عبد القاهر وهو من أئمة النحاة قياسيا أم هذا خطأ من الناسخ كما يدل عليه قوله : ومن حال القوس الخ

(٢) تقرطس تصيب القرطاس وهو الهدف وتقدم . والشاكلة الخاصرة والرمى الصيد المرمى ولم أرهم يقولونه الا بالتاء (الرمية)

هذا الكلام الحسن من المتكلم المشنوء فى منظره ، وإنما قصد إلى قياس اجتماع فضل الخبر ، مع نقص المنظر ، بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذى يقابل الرجل هو « ظرف سوء » وظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ، لأن الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هى دمامة ما لم يتقدم شىء يشبه ما فى الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعانى التى تجعل الأشخاص أوعية لها .

فمن حقك أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه إذا كان موجوداً فى الشىء على الانفراد من غير أن تكون نتيجة بينه وبين شىء آخر — فالاسم مستعار لما أخذ الشبه منه كالنور للعلم ، والظلمة للجهل ؛ والشمس للوجه الجميل ، أو الرجل النبيه الجليل . وإذا لم تكن نسبة الشبه إلى الشىء على الانفراد وكان مركباً من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل .

واعلم أن هذه الأمور التى قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة . وذلك أنها معروفة على الجملة لا ينكر بيانها فى نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمهرين فى فصل جيده من رديئه[1] ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التى يرجع إليها فتستخرج منها العلل فى حسن ما استحسن ، وقبح ما استهجن ، حتى تعلم علم اليقين غير الموهوم ، ويضبط ضبط المزموم المخطوم[2] ، ولعل الملال إن عرض

(١) تمهر الرجل حذق كمهر .

(٢) المزموم والمخطوم واحد فى المعنى . فالأول ما شد بالزمام أى المقود . والثانى البعير وضع على خطمه (كأنفه وزنا ومعنى) الخطام (وتقدم تفسيره) ليقتاد وكذا الممنوع من الكلام .

لك ، أو النشاط إن فتر عنك ، قلت ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة وإنما يكفى أن يقال : الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات ، وهكذا يكفينا المؤنة فى التشبيه والتمثيل يسير من القول . فإنك تعلم أن قائلا لو قال : الخبر مثل قولنا : زيد منطلق . ورضى به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حداً للخبر إذا عرفه تميز فى نفسه من سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن ههنا كلاماً لفظه لفظ الخبر وليس هو بخبر ولكنه دعاء كقولنا : رحمة الله عليه ، وغفر الله له . ولم يجد فى نفسه طلباً لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لا ينقسم ، وأن أول أمره فى القسمة أنه ينقسم إلى جملة من الفعل والفاعل ، وجملة من مبتدأ وخبر ، وأن ما عدا هذا من الكلام لا يأتلف بقم ، ولم يحب أن يعلم أن هذه الجملة يدخل عليها حروف بعضها يؤكد كونها خبراً وبعضها يحدث فيها معانى تخرج بها عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب . وهكذا يقول إذا قيل له « الإسم مثل زيد وعمرو » : اكتفيتُ ولا أحتاج إلى وصف أو حد يميزه من الفعل والحرف أو حد لهما إذا عرفتهما عرفت أن ما خالفهما هو الإسم على طريقة الكتاب ويقول : لا أحتاج إلى أن أعرف أن الاسم ينقسم فيكون متمكناً أو غير متمكن ، والمتمكن يكون منصرفاً وغير منصرف ، ولا إلى أن أعلم شرح غير المنصرف والأسباب التسعة التى يقف هذا الحكم على اجتماع سببين منها أو تكرر سبب فى الاسم[1] ولا أنه ينقسم إلى المعرفة والنكرة ، وأن النكرة ما عم شيئين فأكثر ، وما أريد به واحد من الجنس لا بعينه ، والمعرفة ما أريد

= وكلام المصنف هنا صريح فى أن البيان كان قبل تصنيفه هو لهذا الكتاب أمراً ذوقيا لا فناً ذا قواعد وحدود ورسوم ، وأنه هو الذى جعله فنا أو علما مدونا .

(١) يريد بتكرر السبب قيامه مقام السببين .

به واحد بعينه أو جنس بعينه على الإطلاق ، ولا إلى أن أعلم شيئاً من الانقسامات التي تجيء في الاسم — كان قد أساء الاختيار وأسرف في دعوى الاستغناء عما هو محتاج إليه إن أراد هذا النوع من العلم[١] .

ولئن كان الذي يتكلف شرحه لا يزيد على مؤدى ثلاثة أسماء وهي التمثيل والتشبيه والاستعارة فإن ذلك يستدعي جملا من القول يصعب استقصاؤها ، وشعباً من الكلام لا تستبين لأول النظر أنحاؤها ، إذ قولنا « شيء » يحتوي على ثلاثة أحرف ولكنك إذا مددت يداً إلى القسمة ، وأخذت في بيان ما تحويه هذه اللفظة ، احتجت إلى أن تقرأ أوراقاً لا تحصى ، وتتجشم من المشقة والنظر والتفكير ما ليس بالقليل النزر . والجزء الذي لا يتجزأ يفوت العينَ ويدق عن البصر ، والكلام عليه يملأ أجلاداً عظيمة الحجم . فهذا مثالك إن أنكرت ماعنيتُ به من هذا التتبع ، ورأيتَه من البحث وآثرته من تجشم الفكرة ، وسومها أن تدخل في جوانب هذه المسائل وزواياها ، وتستثير كوامنها وخفاياها ، فإن كنتَ ممن رضي لنفسه أن يكون هذا مثله ، وههنا محله ، فعب كيف شئت ، وقل ما هَويت ، وثق بأن الزمان عونك على ما ابتغيت ، وشاهدك فيما ادعيت ، وأنك واجد من يصوب رأيك ويحسن مذهبك ، ويخاصم عنك ، ويعادي المخالف لك[٢] .

---

(١) يعنى علم اليقين (ش) والمتبادر أن المصنف أراد علم النحو .

(٢) قد وقع ما توقعه المصنف من اكتفاء الجمهور بعده بالإجمال من معنى التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها من قواعد البيان والمعاني ، وتركوا هذا التفصيل الفلسفي الذي هو روح العلم ولبابه ، حتى صار أوسع الناس علما بتلك المصطلحات والتعريفات والتقسيمات الجافة ، أجهلهم بالبلاغة ، والفصاحة ، وأعرقهم في العي والفهاهة ، وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ ، دع إنشاءه مرسلا أو منثورا أو منظوما .

فصـــل

فى الأخذ والسرقة وما فى ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل

(القسم العقلى)

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق ، واقتدى بمن تقدم وسبق ، لا يخلو من أن يكون فى المعنى صريحاً أو فى صيغة تتعلق بالعبارة . ويجب أن نتكلم أولا على المعانى ، وهى تنقسم أولا قسمين عقلى وتخييلى ، وكل واحد منهما يتنوع . فالذى هو العقلى على أنواع . أولها عقلى صحيح ، مجراه فى الشعر والكتابة ، والبيان والخطابة ، مجرى الأدلة التى تستنبطها العقلاء ، والفوائد التى تثيرها الحكماء ، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعاً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضى الله عنهم ومنقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق ، وقصدهم الحق . أو ترى له أصلا فى الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء . فقوله :

وما الحسب الموروث لا دردره ... بمحتسب إلا بآخر مكتسب

ونظائره كقوله :

إنى وإن كنت ابن سيد عامر ... وفى السر منها والصريح المهذب

فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

معنى[1] صريح محض يشهد له العقل بالصحة ، ويعطيه من نفسه

(١) قوله معنى صريح الخ خبر مبتدأ هو قوله : فقوله * وما الحسب الموروث الخ وما عطف عليه ، يعنى أن قول الشاعر صاحب البيت الأول فى الحسب ونظائره كقول الشاعر صاحب البيتين الآخرين فيه معنى صريح معقول .

أكرم النسبة[١] ، وتتفق العقلاء عَلَى الأخذ به ، والحكم بموجبه ، في كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل في كل لسان ولغة ، وأعلى مناسبة وأنورها ، وأجلها وأفخرها ، قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[٢] وقوله عليه السلام : « يا بني هاشم لا تجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب »[٣] وذلك أنه لو كانت القضية على ظاهر يغتر به الجاهل و يعتمده المنقوص لأدى ذلك إلى إبطال النسب أيضاً وإحالة التكثر به ، والرجوع إلى شرفه ، فإن الأول لو عدم الفضائل المكتسبة ، والمساعي الشريفة[٤] ولم يبن من أهل زمانه بأفعال تؤثر ، ومناقب تدون وتسطر ، لما كان أولا ولكان العلم من أمره مجهلا ، ولما تصور افتخار الثاني بالانتماء إليه ، وتعويله في المفاضلة عليه ، ولكان لا يتصور فرق بين أن يقول هذا أبي ، ومنه نسبي ، و بين أن ينسب إلى الطين ، الذي هو أصل الخلق أجمعين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من التراب »[٥] ، وقال محمد ابن الربيع الموصلي :

الناس في صورة التشبيه أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن لم يكن لهم في أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

فهذا كما ترى باب من المعاني التي تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات

---

(١) فيقال عقلي ، (ش) .
(٢) رواه مسلم من حديث طويل .
(٣) مروي بالمعنى .
(٤) يريد بقوله (الأول) الأب أو الجد مثلا ممن يفتخر بالانتساب إليه .
(٥) من خطبة حجة الوداع .

الدالة عليها فإنها تتلاقى وتتناظر ، وتتشابه وتتشاكل ، ومكانه من العقل ما ظهر لك واستبان ، ووضح واستنار ، وكذلك قوله :

* وكل امرىء يولى الجميل محبب *

صريح معنى ليس للشعر في جوهره وذاته نصيب ، وإنما له ما يلبسه من اللفظ ، ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية ، من الاختصار وخلافه ، والكشف أو ضده . وأصله قول النبي صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها »[1] بل قول الله عز وجل : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

وكذا قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم ، إذ كان موضوع الجبلة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين ، الذين لا يعون الحكمة فتردعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغي والضلال ، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال ، فيجدوا لذلك مس ألم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبشار من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطبع

(١) من الأحاديث المشتهرة على الألسن بزيادة : « وبغض من أساء إليها » . وروى مرفوعا وموقوفا عن ابن مسعود ، وكلاهما باطل ، وقيل أو الموقوف معروف عن الأعمش .

لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تُنْفَ عنه الأقذاء ، ولا تقر الروح فى بدن لم تدفع عنه الأدواء ، وكذلك قوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

(القسم التخييلى)

وأما القسم التخييلى فهو الذى لا يمكن أن يقال إنه صدق ، وإن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفى ، وهو مفتنُّ المذاهب ، كثير المسالك ، لا يكاد يحصر إلا تقريباً ، ولا يحاط به تقسيما وتبويباً ، ثم إنه يجىء طبقات ، ويأتى على درجات فمنه ما يجىء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطى شبهاً من الحق ، وغشى رونقاً من الصدق ، باحتجاج يخيَّل ، وقياس يُصنع فيه ويُعمل ، ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل إلى السامع ، أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة فى قدره ؛ وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام ، فالعلة أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية ، أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال .

وأقوى من هذا فى أن يظن حقاً وصدقاً وهو على التخيل قوله :

الشيب كره وكره أن يفارقنى أعجب بشىء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة ، لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب ؛ فإذا هو أدركه كره أن يفارقه ، فتراه لذلك ينكره ويكرهه ، على أن إرادته أن يدوم له ، إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة ، فأما كونه مراداً ومودوداً فمتخيل فيه وليس بالحق والصدق ، بل المودود الحياة والبقاء ، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن فى زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محبباً إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له[1] حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب .

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شىء أو نقصه ، أو مدحه أو ذمه فتعلقوا ببعض ما يشاركه فى أوصاف ليست هى سبب الفضيلة والنقيصة ، وظواهر أمور لا تصحح ماقصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة كما تراه فى باب الشيب والشباب كقول البحترى :

وبياض البازى أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب

وليس إذا كان البياض فى البازى آنق فى العين ، وأخلق بالحسن من السواد فى الغراب ، وجب لذلك كله أن لا يذم الشيب ولا تنفر منه طباع ذوى الألباب ، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون ، ولا أتت الغوانى ما أتت من الصد والإعراض لمجرد البياض ؛ فإنهن يرينه فى قباطى

---

(١) أى للحياة التى لا تبقى له إلا إذا بقى الشيب (ش) .

مصر فيأنسن[1] ، وفى أنوار الروض وأوراق النرجس النضّ فلا يعبسن ، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهجاته ، وادباره فى حياته ، وإنك لترى الصفرة الخالصة فى أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشمال فتكرهها[2] وتنفر منها ، وتراها بعينها فى إقبال الربيع فى الزهر المتفتق ، وفيما ينشئه ويَشيه[3] من الديباج المونق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمتلىء من الأريحية ، ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ، وحيث أبشرتْ أرواح الرياحين وبَشرت أنواع التحاسين[4] ، ورأيته فى الوقت الأخر حين ولّت السعود ، واقشر العود[5] ، وذهبت البشاشة والبِشر ، وجاء العبوس والعسر — هذا ولو عدم البازى فضيلة أنه جارح وأنه من عتيق الطير[6] لم تجد لبياضه الحسن الذى تراه ، ولم يكن للمحتج به على

---

(١) القباطى بالضم : جمع قبطية ، وهى ثياب من كتان تنسج بمصر نسبة إلى القبط بالكسر ، على غير قياس كالدهرى والسهلى . وقد تكسر القاف على القياس ويخفف الجمع .

(٢) فى نسخة الأستانة : فتنكرها بدل فتكرهها .

(٣) أى وفيما ينشئه الربيع ، أى يحدثه من الإنشاء ، وهو إيجاد ما فيه نمو وتجدد حقيقة أو صورة ولك أن تقول ينشيه بالياء لمناسبة يشيه وهو من الوشى ، أى ما يزينه الربيع من الأزهار والنوار الذى يشبه الديباج .

(٤) يقال أبشرت الأرض ، إذا أخرجت بشرتها ، أى ما ظهر من نباتها . وأما بشر الثلاثى فهو من بشرنى فلان أى لقينى ، وهو حسن البشر طلق الوجه والتحاسين : الأشياء الحسنة جمع تحسين ، اسم بنى على تفعيل ، يقال ما أبدع تحاسين الطاووس وتزايينه (ش)

(٥) اقشر العود أى تخشن وتغير لونه لعدم الرى .

(٦) العتيق : القديم والكريم ، والخيار من كل شىء ولقب البازى .

من ينكر الشيب ويذمه ما تراه من الاستظهار ، كما أنه لولا ما يهدى إليك المسك من رياه التى تتطلع إليها الأرواح ، وتهش لها النفوس وترتاح ، لضعفت حجة المتعلق به فى تفضيل الشباب ، وكما لم تكن العلة فى كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذى غض عنه الأبصار ، ومنحه العيب والإنكار ، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سواداً فقط ، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته ، وبهجته وطلاوته ، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الإقبال ، ويريانك الاقتبال[1] ، ويحضرانك الثقة بالبقاء ، ويبعدان عنك الخوف من الفناء ، وإنك لترى الرجل وقد طعن فى السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه[2] الذى كان ، وعاد لا يزّين كما زان[3] ، وظهر فيه من الكمود والجمود ، ما يريكه غير محمود .

وهكذا قوله :

والصارم المصقول أحسنُ حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل

احتجاج على فضيلة الشيب وأنه أحسن منظراً من جهة التعلق باللون وإشارة إلى أن السواد كالصدإ على صفحة السيف . فكما أن السيف إذا صقل وجلى وأزيل عنه الصدأ ونقى كان أبهى وأحسن ، وأعجب إلى الرائى وفى عينه أزين ، كذلك يجب أن يكون حكم الشعر فى انجلاء صدأ السواد عنه ، وظهور بياض الصقال فيه ، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعانى التى يكره لها الشيب ، ويناط بها العيب .

---

(١) الاقتبال : استئناف الأمر وتجدده . واقتبل الرجل : كاس بعد حماقة ، أى صار كيسا بعد أن كان أحمق . وأما الإقبال الذى ذكر قبله فالمراد به إقبال الأرض وبجيئها بالنبات .

(٢) أبهجت الأرض : بهج نباتها ، أى حسن وراق منظره .

(٣) أى لا تظهر فيه زينة كما زان نفسه ، أو زان أقرانه أو حبيباته بصحبتهم أو انتسابهن إليه . (ش)

وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشيئين فى وصف علة الحكم يريدونه وإن لم يكن فى المعقول ، ومقتضيات العقول . ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلا وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية ، وأن يأتى على ما صيره قاعدة وأساساً ببينة عقلية ، بل تسلم مقدمته التى اعتمدها بينة ، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه ، وتناسينا سائر المعانى التى لها كره ومن أجلها عيب . وكذلك قول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم ... فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه[1]

أراد كلفتمونا أن نجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجىء إلى موجبه (مع أن الشعر يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل[2]) ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد ، وإياه عمد ، إذ يبعد أن يريد بالكذب اعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع

---

(١) قال شيخنا فى الدرس ان فى البيت رواية أخرى * والشعر يكفى عن صدقة كذبه * والمصراع عليها جملة حالية والشعر مبتدأ خبره يكفى الخ . وعلى الرواية الأولى « يكفى » جملة حالية وبعد البيت :

والشعر لمح تكفى إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

(٢) وجدت هاتين السجعتين بخط شيخنا فى حاشية نسخة الدرس وهما ما يحتاج إليه المقام ، ومن أسلوب المؤلف ، وليستا تفسيراً لشىء كسائر تعليقات (ش) فوضعتها فى الأصل ، وإن لم يصرح شيخنا بأنها منه ، وميزتها بالوضع بين هلالين وعلقت عليها هذا التنبيه :

إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته أوضعته ، ومعرفة محله ومرتبته .

وكذلك قول من قال : « خير الشعر أكذبه » فهـذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بأن ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منه عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخّله الشعر وبخيل سخّاه ، وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث ، وذى ضعة أوطأه قمة العيوق[1] وغبي قضى له بالفهم ، وطائش ادعى له طبيعة الحكم ، ثم لم يعتبر ذلك فى الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره ، وتنشر ديابيجه ، ويفتق[2] مسكه فيضوع أريجه .

وأما من قال فى معارضة هذا القول « خير الشعر أصدقه » كما قال :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر مادل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن فى الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه . والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعى الشعر . فمن قال «خيره اصدقه» كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح ، أحب إليه وآثر عنده ، إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال «أكذبه» ذهب إلى أن الصنعة إنما مدباعها ، وينشر

(١) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها وقمة الشىء بالكسر أعلاه .

(٢) فتق المسك : أدخل عليه شيئا يستخرج به رائحته .

شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم ، والوصف والبث والفخر والمباهاة ، وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء فى اختراع الصور ويعيد ، ، يصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومدداً من المعانى متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهى

وأما القبيل الأول ، فهو فيه كالمقصور المدانى قيدُه[1] ، والذى لا تتسع كيف شاء يده وأيده[2] ؛ ثم هو فى الأكثر يورد على السامعين معانى معروفة ، وصوراً مشهورة ، ويتصرف فى أصول هى وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها ، ولا يرجى ازديادها ؛ وكالأعيان الجامدة التى لا تنمى[3] ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم .

هذا ونحوه ، يمكن أن يتعلق به فى نصرة التخييل وتفضيله ، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، والمنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلج وإن قضى عليه[3] ، هذا ومن سلم أن المعانى المعرقة فى الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ،

---

(١) دانى القيد : مداناة ضيقه .

(٢) الأيد : القوة .

(٣) نمى ينمى : كرمى يرمى ، أفصح من نما ينمو الواوى ومعناها واحد المفلج (اسم فاعل) الفائز الظافر يقال فلج (كنصر وضرب) وأفلج لازم ويتعدى بعلى فيقال فلج وأفلج على خصمه ، أى استظهر وانتصر .

فى حكم الجامد الذى لا ينمى ، والمحصور الذى لا يزيد ، وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبى فراس :

وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقلياً عريقاً فى نسبه ، معترفاً بقوة سببه ، وهو على ذلك من فوائد أبى فراس التى هو أبو عذرها ، والسابق إلى إثارة سرها[١] .

واعلم أن الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل ، لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة ، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك فى أن لا مدخل للاستعارة فى هذا الفن ، وهى كثيرة فى التنزيل على ما لا يخفى، كقوله عز وجل : « واشتعل الرأس شيباً » . ثم لا شبهة فى أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهراً ، وإنما المراد إثبات شبهه . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة المؤمن » . ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل ، لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سبباً للعلم بما لولاها لم يعلم ، لأن ذلك العلم طريقه الرؤية ، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة ، وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة ، فقد جمع بين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » . معلوم أن ليس القصد

---

(١) يقال (هو أبو عذر هذا الكلام) أى هو أول من اقتضبه واخترعه ، ويقال (ما أنت بذى عذر هذا الكلام) أى لست بأول من اقتضبه . والعذر هنا بالضم مخفف من العذرة وهى البكارة بحذف التاء لجريه مثلا .

اثبات معنى ظاهر اللفظين ، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل .

وإذا كان هذا كذلك بان منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح ، والمجال الواسع ، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخييل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف المخبر من أنه إنما يتسع المقال ويفتن ، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها ، وتكثر أغصانها وتتشعب فروعها ، إذا بسط من عنان الدعوى فادعى ما لا يصح دعواه ، وأثبت ما ينفيه العقل ويأباه .

وجملة الحديث الذى أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها مالا ترى . أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف فى أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح فى العقل . وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمراً فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق ، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاماً فى الفرق بين ما يدخل فى حيز قولهم : خير الشعر أكذبه . وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتساع وتجوز فاعرفه[1]

وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه وهم يريدون كلاماً غفلا ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ،

---

(١) إن المصنف قد بسط هذه المسألة فى كتاب دلائل الإعجاز .

ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين ، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها ، وتدقيق فى المعانى يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب ، وغوص شديد ، والله الموفق للصواب .

وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقى وغير الحقيقى .

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره فى عظم شجرته إذ تؤمل نسبه ، وعرفت شعوبه وشعبه — على ما أشرت إليه قبيل — لا يكاد تجىء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشىء بعد الشىء ويجمع ما يحصره الاستقراء . فالذى بدأت به من دعوى أصل وعلة فى حكم من الأحكام هما كذلك ما تركت المضايقة ، وأخذ بالمسامحة ، ونظر إلى الظاهر ، ولم ينقر عن السرائر ، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى ، وهو شىء تراه كثيراً بالآداب والحكم البريئة من الكذب . ومن الأمثلة فيه قول أبى تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ ـدى الرزايا إلى ذوى الأحساب

فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابى

وكذا قوله يذكر الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته فى العطايا على الحاضرين عنده اللازمين خدمته :

لزموا مركز النـدى وذراه وعدتنا عن مثل ذاك العوادى

غير أن الربى إلى سبل الأنو اء أدنى والحظ حظ الوهاد

لم يقصد من الربى إلى العلو ولكن إلى الدنو فقط ، وكذلك لم يرد بذكر الوهاد الضعة والتسفل والهبوط كما أشار إليه فى قوله * والسيل حرب المكان العالى * وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء

ثم انها تتجاوز الربى التى هى دانية قريبة إليها إلى الوهاد التى ليس لها ذلك القرب .

ومن هذا النمط فى أنه تخيل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وان ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترَجّى حين تحتجب

فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جوداً منها ، ونعمة صادرة عنها ، كما قال ابن المعتز :

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار

وهذا نوع آخر وهو دعواهم فى الوصف هو خلقة فى الشيء وطبيعة أو واجب على الجملة من حيث هو أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفاده . وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هـــذا الحد ولهم فيه عبارات منها قولهم : إن الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، أو تتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة . وألطف ذلك أن يقال : تسرق وأن نورها مسروق من الممدوح . وكذلك يقال : المسك يسرق من عرفه ، وأن طيبه مسترق منه ومن أخلاقه . قال ابن بابك :

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل

(ونوع آخر) وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعنى ما أصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة

والإغراق والإغراء . ويدخل فى هـذا الفن قول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حُمَّت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وضعاً وصوره فى صورة خرج معها إلى ما لا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضَّربين . وقريب منه فى أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة فى تشبيهه وخلع عنه صورته خلعاً قوله :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم فى الترب طيبا

ومن لطيف هذا النوع قول أبى العباس الضبى :

لا تركنن إلى الفـرا ق وإن سكنت إلى العناق[1]

فالشمس عنـد غروبها تصفر من فرق الفراق

أدعى لتعظيم الفراق أن ما يرى من الصفرة فى الشمس حين يرق نورها بدنوها من الأرض[2] إنما هو لأنها تفارق الأفق الذى كانت فيه أو النـاس الذين طلعت عليهم ، وأنِسَت بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها .

(ونوع آخر) منه قول الآخر :

قضيب الكرم نقطعه فتبكى ولا تبكى وقد قطع الحبيب[3]

وهو منسوب إلى إنشاد الشبلى[4] ويقال أيضاً إن أبا الباس أخـذ معناه فى بيته من قول بعض الصوفيـة ، وقيل له لِمَ تصفر الشمس عند الغروب

---

(١) احفظ الشطر الثانى هكذا : « فإنه مر المذاق »

(٢) أى بحسب النظر والكلام كله تخييل لاحقيقة

(٣) إذا قطع القضيب من الكرم يظل الماء ينقط من حيث قطع وهو ماعبر عنه ببكاء شجرة الكرم ولعله فيبكى أى القضيب .

(٤) الشبلى هوأبو بكر دلف ابن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد ، مات سنة ٣٣٤ هـ

فقال من حذر الفراق .

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولى :

الريح تحسدنى عليـ ـك ولم أخلها فى العدا!

لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب فى طباعها أن ترد الرداء عليه ، وأن تلفّ من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها وغيرة لمحبوبه . وهى من أجل مافى نفسها ، تحول بينه وبين أن ينال من وجهها ، وفى هـذه الطريقة قوله :

وحاربنى فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شىء بل أثبت محاربة من الزمان فى معنى الحبيب ثم جعل دليلاً عليها جواز أن يكون شريكا فى عشقه . وإذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة المحاربة وجمع بين الزمان والريح فى ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل . وذاك أن الكلام فى وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونهـا علةً لذلك الأمر . وكون العشق علة المعاداة فى المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر . فإذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة . وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون لذلك لعلة الحسد أو لغيرها لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فإن من حكم المحصل أن لا ينظر فى تلاقى المعانى وتناظرها إلى جمل الأمور ، وإلى الإطلاق والعموم ، بل ينبغى أن يدقق النظر فى ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل . فأنت فى نحو بيت ابن وهيب — وحاربنى الخ — تدعى صفة غير ثابتة إذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التى

ذكرها . وفى نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعاً . وهكذا قول المتنبى :

ملامى النوى فى ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذى بى من السقم
فـلو لم تغر لم تزو عنى لقاكم ولو لم تردكم لم تكن فيكم خصمى

الدعوى فى اثبات الخصومة وجعل النوى كالشىء الذى يعقل ويميز ويريد ويختار ، وحديث الغيرة والمشاركة فى هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن يفتقر منك إلى وضع واختراع .

ومما يلحق بالفن الذى بدأت به قوله :

بنفسى ما يشـكوه من راح طرفه ونرجسه ممـا دها حسنه ورد[1]
أراقت دمى عمداً محاسن وجهه فاضحى وفى عينيه آثاره تبدو

لأنه قد أتى بحمرة العين وهى تعرض لها من حيث هى عين معلة ، وأتى بإراقة الدم فى صورة العلة ، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فليس ثم إراقة دم . وأصل هذا قول ابن المعتز :

قالوا اشتـكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتهـا من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب[2]

---

(١) الواو فى (ونرجسه) للحال يريد الذى صار نرجس طرفه كالورد من الرمد .

(٢) احفظ المصراع الثانى من البيت الأول * من كثرة الفتك نالها وصب * وكلمة (الفتك) أطرف وأبلغ من كلمة القتل — ومن البيت الثانى بإبدال كلمة السيف بكلمة النصل . وفى معناها :

قالوا الحبيب شكا جعلت فداءه رمدا أضر بعينـــه كالعندم
فأجبتهم ما زال يفتك لحظه فى مهجتى حتى تلطخ بالدم ==

وبين هذا الجنس وبين نحو « الريح تحسدنى » فرق وذلك أن لك هناك فعلا هو ثابت واجب فى الريح وهو رد الرداء على الوجه ثم أحببت أن تتطرف فادعيت لذلك الفعل علة من عند نفسك . وأما ههنا فنظرت إلى صفة موجودة فتأولت فيها انها صارت إلى العين من غيرها وليست هى من شأنها أن تكون فى العين ، فليس معك هنا إلا معنى واحد . وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود معلوم ، والآخر مدعى موهوم ، فاعرفه .

ومما يشبه هـذا الفن الذى هو تأول فى الصفة فقط من غير أن يكون معلول وعلة ما تراه من تأولهم فى الأمراض والحميات انها ليست بأمراض ولـكنها فطن ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله :

وحوشدت أن تَضرَى بجسمك علة إلا أنها تلك العزوم الثواقب

وقال ابن بابك :

فترت وما وجـدت أبا العلاء سوى فرط التوقد والذكاء

ولـكشاجم بقوله فى على بن سليمان الأخفش :

ولقـد أخطأ قوم زعموا أنها من فضل برد فى العصب

هو ذاك الذهن أذكى ناره والمزاجُ المفرط الحـر التهب

ولا يكون قول المتنبى :

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا ما عذرها فى تركها خيراتها

أعجبتها شرفاً فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها

= قال صاحب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) : وقد قلت أحسن من هذا وهو :

لاتنكروا الحمرة فى طرف من يسفك بالطرف دماء البشر

وإنما الإنـكار من أنفس أرضية سالت بعـين القمر

من هذا فى شىء بأكثر من أن كلا القولين فى ذكر الحمى وفى تطييب النفس عنها ، فهو اشتراك فى العرض والجنس فأما فى عمود المعنى وصورته الخاصة فلا ، لأن المتنبي لم ينكر أن ما يجده الممدوح حمى كما أنكره الآخر ولكنه كأنه سأل نفسه كيف اجترأت الحمى على الممدوح مع جلالته وهيبته ؟ أم كيف جاز أن يقصد شىء إلى أذاه مع كرمه ونبله ؟ وأن المحبة من النفوس مقصورة عليه ؟ فتمحل لذلك جواباً ، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً ، وهو تصريح ما اقتصر فيه على التعجب فى قوله :

أيدرى ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب[1]

وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منه عجيب

الا ان ذلك الإيهام ، أحسن من هذا البيان ، وذلك التعجب موقوفاً غير مجاب ، أولى بالإعجاب ، وليس كل زيادة تفلح ، وكل استقصاء يملح .

ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز :

صدت سرير وأزمعت هجرى وصغت ضمائرها إلى الغدر[1]

قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

ألا تراه أنكر أن يكون الذى بدأ به شيبا ، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً إلى نفى العيب وقطع الخصومة ، ولم يسلك الطريقة العامية فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ، ويريه الخطأ فى عيبه به ، ويلزمه المناقضة فى مذهبه ، كنحو ما مضى أعنى كقول البحترى : « وبياض البازى » وهكذا

(١) قاله المتنبي فى دمل أصيب به سيف الدولة . وأرابه الشىء أحدث به ما يوجب القلق والريبة فى العاقبة والذى أرابه الدمل . « ومن يريب » استفهام وضمير يريب يعود إلى ما أرابك

(٢) فى نسخ الديوان التى بأيدينا « شرير » بالمعجمة .

إذا تأولوا في الشيب أنه ليس بابيضاض الشعر الكائن فى مجرى العادة وموضوع الخلقة ، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر ، وبان من وجهه وظهر ، كقول الطائى الكبير :

ولا يروعك إيماض القتير به ... فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب[1]

وينبغى أن باب التشبيهات قد حظىَ من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حداً يردُّ المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان ، وينفث فى عُقَد الوحشة ، وينشد ماضل عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما يطيل لسانهُ فى الفخر ، ويبين جملة ماللبيان من القدرة والقدر ، فمن ذلك قول ابن الرومى :

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليه شاهد

لم يُخجل الورد المورد لونه ... إلا وناحله الفضيلة عاند[2]

للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آب وحاد عن الطريقة حائد

فصل القضية ان هذا قائد ... زهر الرياض وان هذا طارد

شتان بين اثنين هذا موعِد ... بتسلُّب الدنيا وهذا واعد[3]

ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد

(١) القتير الشيب وقيل أول ما يظهر منه .

(٢) عاند من عند (كنصر وضرب) إذا مال عن الطريق أو خالف الحق وأنكره

(٣) يقال تسلبت المرأة إذا لبست السلاب وهى بالكسر ثياب الحداد السود ، والبيت بمعنى ما قبله ، والمراد أن النرجس المفضل عنده يظهر فى أول الربيع فتتلوه الأزهار والرياحين والورد المفضول يظهر فى آخر الربيع فيتوعد الرياحين سلب بهجتها حيث يذهب فى أثره زهر الرياض فالنرجس كالقائد والورد كالطارد . وابن الرومى مشهور بذم الورد وتفضيل النرجس .

اطلب بعقلك فى الملاح سميه ... أبداً فإنك لا محالة واجد
والورد إن فكرت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمىٌّ واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما ... شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

وترتيب الصنعة فى القطعة أنه عمل أولا على قلب طرفى التشبيه كما مضى فى فصل التشبيهات ، فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه واستحكمت صورته ، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل على النرجس ووضع فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار ينوب[1] من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزىء ، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ، ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها . ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر فى سحر البيان ، ما رأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له .

ومما هو خليق أن يوضع فى منزلة هذه القطعة ، ويلحق بها فى لطف الصنعة ، قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره ... حسناً فسلُّوا من قفاه لسانه
لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به ... فلشد ما رفع البنفسج شانه[2]

وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت ولطف وبدع وظرائف لا يستكثر لها الكثير من الثناء ، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة

---

(١) ينوب يرجع إلى نفسه .
(٢) مثل به من باب نصر أى نكل به .

الإطراء ، فمن ذلك قول ابن نباتة فى صفة الفرس :

وأدهم يستمد الليل منـــه وتطلع بين عينيـــه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشْكَ الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيـــا

وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله فى قطعة أخرى :

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض فى أحشائه

وأول القطعة[1] :

قد جاءنا الطرف الذى أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه[2]
أولاية وليتنـــا فبعثته رمحاً سبيب العرف عقد لوائه[3]
نختال منه على أغرَّ محجل ماء الدياجى قطرة من مائه[4]
فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض فى أحشائه
متمهلا والبرق من أسمائه متبرقعاً والحسن من أكفائه
ما كانت النيران تُكمِن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه

---

(١) القطعتان فى فرس أدهم أغر محجل حمله عليه سيف الدولة جعل غرته أثر لطمة من الصباح فى جبينه وتحجيله من خوض قوائمه الأربع فى أحشاء الصباح . وقد ترك المصنف البيت الأول وهو :

يا أيها الملك الذى أخلاقه من خلقه ورواؤه من رائه

أى أخلاقه مخلوقة له ورواؤه ومنظره من رأيه . وبعبارة أخرى هو فى خلقه وخلقه كأنه كون نفسه وخلقها كما يرى ويحب من الكمال .

(٢) الطرف الكريم بالكسر من الخيل والكريم الأطراف من الآباء والأمهات والهادى العنق يغلو فى وصفه بالطول .

العر مر رقبة الفرس الذى ينبت فى محدبها . والسبيب الخصلة من الشعر . شبهه على عنقه الطويل بالراية على الرمح .

(٤) فى نسختى الكتاب (نختل) وفى نسخة من الديوان (نختال) وهى أظهر

لا تعلق الألحاظ في أعطافه إلا إذا كفكفت من غُلوائه

لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه(١)

ومما له في هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإيداع مع السلامة من التكلف قوله :

وماذا على الرضراض يجرى(٢)

كأن بها من شدة الجرى جنة وقد ألبستهن الرياح سلاسلا

وإنما ساعده التوفيق ، من حيث وُطىء له من قبل الطريق ، فسبق العرف بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع فتدرج من ذلك إلى أن جعلها سلاسل كما فعل ابن المعتز في قوله :

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر

ثم أتم الحذق بأن جعل الماء صفة تقتضي أن يسلسل وقرّب مأخذ ما حاول عليه فإن شدة الحركة وفرط سرعتها من صفات الجنون كما أن التمهل فيها والتأني من أوصاف العقل .

---

(١) كنت في الطبعة الأولى ضبطت « الطرف » الأول من البيت بالكسر والثاني بالفتح بمعنى أن الجواد الكريم لا تكمل محاسنه حتى يأسر طرف الناظر إليه ، فلا يستطيع أن يتحول عنه ، وقد عكس شيخنا الضبط في نسخة الدرس فضبط الأول بالفتح والثاني بالكسر ولم يظهر لي جعل الجواد أسيرا للطرف كعكسه فتأمله .

(٢) هكذا وجدنا البيت في النسختين محرفاً ناقصا وقد أتمه شيخنا في الدرس بقوله : وماء على الرضراض يجرى كأنه أفاع عراها الذعر تطلب موئلا

وكتب بإزائه في حاشية نسخته : أتممت البيت على هذا الوجه ويغلب على ظني أن التتمة في معنى ما يريد الشاعر وعلى من وقف على البيت كلامه أن يفيدنا بما وجد . والرضراض ما دق من الحصى . قال :

يبدو له الداء الخفي كما بدا للعين رضراض الغدير الصافي

ومن هذا الجنس قول ابن المعتز فى السيف فى أبيات قالها فى الموفق وهى :

وفارس أغمد فى جُنة يقطع السيف إذا ما ورد[1]

كأنه ماء عليه جرى حتى إذا ما غاب فيه جمد

فى كفه عضب إذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة ، فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته . ويشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيب وعلق منه الرعدة فى قوله :

فإن عجمتنى نيوب الخطوب وأوهى الزمان قوى مُنتى[2]

فما اضطرب السيف من خيفة ولا أُرعِد الرمحُ من قِرة[3]

إلا أنه ذهب بها فى أسلوب آخر ، وقصد إلى أن يقول : إن كون حركات الرمح فى ظاهر حركة المرتعد ، لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض ، وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد فى الرمح للعلل التى لمثلها تكون فى الحيوان ، وأما ابن المعتز فحقق كونها فى السيف على حقيقة العلة التى لها تكون فى الحيوان فاعرفه ، وقد أعاد هذا الارتعاد على الجملة التى وصفت لك فقال :

(١) الجنة بالضم كل ما وقى من سلاح . يصف فارساً اشتمل عليه الحديد وعمته الدروع فإذا ورد عليه السيف قطعه فلا ينفذ فيه (ش) وجعله لفظ الجنة خاصا بالسلاح يريد به الحقيقة وقد استعمل فى غيرها مجازاً .

(٢) عجمه (كنصر) عضه ليختبر صلابته . والنيوب جمع ناب . والمنة كالقوة وزناً ومعنى وكذا الضعف فهى من الأضداد وكأنه أراد ضروب القوة وأنواعها . وأصل القوة الطاقة الواحدة من الحبل وجمعها قوى على القياس قال شيخنا هنا كأن القوة حبل ذو طاقات وقوى . وكان المناسب لفظا أن يقول كأن المنة الخ

(٣) القرة بالكسر ما يأخذ المرء من البرد . وأرعد بضم الهمزة وارتعد أصابته الرعدة وهى بالفتح والكسر للهيئة الرجفة والاضطراب .

قالوا طواه حزنه فانحنى فقلت والشك عدو اليقين

ماهيف النرجس من صبوة[١] ولا الضنى فى صفرة الياسمين

ولا ارتعاد السيف من قِرة ولاانعطاف الرمح من فرط لين

ومما حقه أن يكون طرازاً فى هذا النوع قول البحترى :

يتعثرْن فى النحور وفى الأو جه سكراً لما شربن الدماء[٢]

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثراً منها كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزه له ارتعاداً ، ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد فاعرفه .

ومن هذا الباب قول علبة .

وكأن السماء صاهرت الأر ض فصار النثار من كافور[٣]

وقول أبى تمام :

كأن السحاب الغر غيبن تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع

وقال السرىّ يصف الهلال :

جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال

ثم قال :

كأنه قيد فضة حرج فُضّ عن الصائمين فاختالوا

كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوهم أن الذى جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر ، وحصل بحضرتهم على الحقيقة

---

(١) هيف كيبس وهاف كخاف هيفا بالفتح وبالتحريك ضمر بطنه ورقت خاصرته فهو أهيف وهى هيفاء .

(٢) قوله لما شربن الخ فيه وجهان كسر اللام وتخفيف الميم على أن ما مصدرية والمعنى لشربهن الدماء — وفتح اللام وتشديد الميم على أن لما حينية . قاله (ش) .

(٣) المراد بالنثار هنا الثلج كما قال (ش) .

ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى يصيب له علة وأقام عليه شاهداً ، فأثبت علبة زفافا بين السماء والأرض ، وجعل أبو تمام للسحاب حبيباً قد غيب فى التراب . وادعى السرى أن الصائمين كانوا فى قيد وأنه كان حرجاً فلما فض عنهم انكسر بنصفين أو انسع فصار على شكل الهلال . والفرق بين بيت السرى وبيتى الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامى جار على الألسن وجعل القطر الذى ينزل من السحاب دموعاً ووصف السحاب والسماء بأنها تبكى كذلك ، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه إلا أن نظيره معتاد ومعناه من حيث الصورة موجود . وأعنى بالنظير ما مضى من تشبيه الهلال بالسوار المنفصم كما قال :

حاكيًا نصف سوار من نضار يتوقد

وكما قال السرى نفسه :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبات زرقاء اللباس

إلا أنه ساذج لا تعليل فيه يجب من أجله أن يكون سواراً وطوقا فاعرفه .

ورأيت بعضهم ذكر بيت السرى الذى هو : « كأنه قيد فضة حرج » مع أبيات شعر جمعه إليها وأنشد قطعة ابن الحجاج :

يا صاحب البيت الذى قد مات فيه الصيف جوعا
مالى أرى فلك الرغيـ ـف لديك مشترفاً رفيعا[1]
كالبدر لا نرجو إلى وقت المساء له طلوعا

---

(١) الفلك من كل شىء مستداره ومعظمه فقد يطلق بجانب الرغيف بلا تشبيه والمشترف فاعل من اشترف إذا انتصب والفرس كان مُشرف الخلق (ش) ولكن الشاعر قصد التشبيه وهو محل الشاهد .

قال إنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين إحداهما الاستدارة والثانى طلوعه مساء قال : وخير التشبيه ما جمع معنيين كقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسـ ... ـن وفى بعـــد المنال
جُد فقد تنفجر الصـ ... ـخرة بالمـاء الزلال

وأنشد أيضاً لابراهيم بن المهدى :

ورحمت أفراخاً كأفراخ القطا ... وحنين والهة كقوس النازع

ثم قال : ومثله قول السرى * كأنه قيد فضة حرج * وهو لا يشـبه ما ذكره إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شـكل الهلال بالقيد المفضوض ولونه بالفضة ، فأما إن قصد النـكتة التى هى موضع الإغراب فلا يستقيم الجمع بينه و بين ما أنشد لأن شيئاً من تلك الأبيات لا يتضمن تعليلا ، وليس فيها أكثر من ضم شبه إلى شبه كالحنين والانحناء من القوس ، والاستدارة والطلوع مساء من البدر ، وليس أحد المعنيين بعلة للآخر ، كيف ولا حاجة بواحد من الشبهين المذكورين إلى تصحيح غيره له .

ومما هو نظير لبيت السرى وعلى طريقه قول ابن المعتز :

سقانى وقد سُلّ سيف الصبا ... ح والليل من خوفه قد هرب

لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر فى قوله :

حتى بدا الصباح من نقاب ... كما بدا المنصل من قراب

وقوله :

أما الظلام فحين رق قميصه ... وأرى بياض الصبح كالسيف الصدى

ولـكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سيفاً مسلولا ، ويجعل نفسه كأنها لا تعلم أن ههنا تشبيهاً ، وأن القصد إلى لون البياض فى الشـكل المستطيل

فتوصل إلى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذى سل السيف فى قفاه فهو يهرب مخافة أن يضرب به .

ومثل هذا فى أن جعل الليـل يخاف الصبح لا فى الصنعة التى أنا فى سياقها قوله :

سبقنا إليها الصبح وهو مقنع   بكين وقلب الليل منه على حذر

وقد أخذ الخالدى بيته الأول أخذاً فقال :

والصبح قد جردت صـوارمه   والليـل قد هم منه بالهرب

وهذه قطعة لابن المعتز بيت منها هو المقصود

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت   مثـل البغى تتوجت لزناة

جاءتك زائرة كعام أول   وتلبست وتعطـرت بنبات

وإذا تعرى الصبح من كافوره   نطقت صنوف طيورها بلغات

والورد يضحك من نواظر نرجس   قذيت وآذن حينها بممات[1]

هذا البيت الأخير هو المراد ، وذلك أن الضحك فى الورد وكل ريحان ونور يتفتح مشهور معروف ، وقد قاله فى هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته ، وإبار دولته ، وبدو أمارات الفناء فيه ، وأعاد هذا الضحك من الورد فقال :

ضحك الورد فى قفا المنثور   واسترحنا من رعدة المقرور

أراد إقبال الصيف وحر الهواء ألا تراه قال بعده :

---

(١) قذيت دخل فيها القذى شبه النرجس أدركه الجفاف والتصوح بالعيون يصيبها القذى .

(٢) الرعدة بالكسر النافض أى الاضطراب من نحو برد وخوف ، والمقرور من أصابه القر « البرد » على غير قياس

واستطبنا المقيـل فى برد ظل وشممنا الريحـان بالـكافور[١]

فالرحيل الرحيل يا عسكر اللـ ـذات عن كل روضة وغدير

فهذا من شأن الورد الذى عابه به ابن الرومى فى قوله :

فصل القضـية ان هذا قائد زهر الرياض وإن هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر ، وابتز غيره ولاية الزمان واستبد بها .

ومما يشوب الضحك فيه شيء من التعليل قوله أيضاً :

مات الهوى منى وضاع شبابى وقضيت مرن لذاته آرابى

وإذا أردت تصابيا فى مجلس فالشيب يضحك بى مع الأحباب

لا شك أن لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك فى نحو قول دِعبل :

* ضحك المشيب برأسه فبكى *

وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطى الرجل ما لا يليق به ، وتكلفه الشيء ليس هو من أهله ، وفى ذلك ما ذكرت من إخفاء صورة التشبيه ، وأخذ النفس بتناسيه ، وهكذا قوله :

لما رأونا فى خميس يلتهب فى شارق يضحك من غير عجب[٢]

كأنه صب على الأرض ذهب وقد بدت أسـيافنا فى القرب

حتى تكون للمنايام سـبب نرفل فى الحديد والأرض تجب[٣]

---

(١) أراد انه استبدل الورق الأخضر بالزهر الأبيض لأن وقت الزهر قد انقضى فالباء فى الكافور للبدل (ش) .

(٢) الشارق الشمس والجانب الشرقى من الجبل وغيره وهو خلاف الغارب

(٣) تجب وجيبا تخفق .

وحن شريان ونبع فاصطخب تترسوا من القتال بالهرب[1]

المقصود قوله « يضحك من غير عجب » وذاك أن نفيه العلة إشارة إلى أنه من جنس ما يعلل ، وأنه ضحك قطعاً وحقيقة . ألا ترى أنك لو رجعت إلى صريح التشبيه فقلت : هيئته فى تلألؤه كهيئة الضاحك ثم قلت : من غير عجب — قلت قولاً غير مقبول . واعلم أنك إن عددت قول بعض العرب :

ونثرة تهزأ بالنصال كأن فيها حدق الهلال

الهلال الحية ههنا واللام للجنس فى هذا القبيل — لم يكن لك ذلك .

فصل

وهذا نوع آخر فى التعليل

وهو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجىء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفة ويضع له علة أخرى . مثاله قول المتنبى :

مابه قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلارادته هلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبى كما ترى أن العلة فى قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك .

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون فى استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير فى الذم كقصد المتنبى

(١) الشريان والنبع نوعان من الشجر تصنع منهما القسى . وحن القضيب صوّت عندليه . ويقال قوس حنانة .

ههنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الحد فلما علم إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح وهو يهزم العدا ويكسرهم كسراً لا يطمعون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم ، وأنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق ، ولا يعفوا إذا قدر ، وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه .

ومن الغريب فى هذا الجنس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى فى قصيدة يمدح بها بعض الوزراء ببخارى :

مغرم بالثناء صبٌ بكسب المـ ـجد يهتز للسماح ارتياحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه فى صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التى ليست من أوقات الإذن قلوا[1] فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم . والإفراط فى التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم[2] أنه يحتج له أنه ممن لا يرغب كل واحد فى أخذ عطائه وأنه ليس فى طبقة من قيل فيه :

عطاؤك زينٌ لامرىء إن أصبته بخير وما كل العطاء يزين

(١) قلوا . وفى نسخة قلوا ، أى صاروا قليلا ، وقل عنه عقله ذهب ثم عاد إليه (ش)

(٢) هذا يندفع بقوله رواحاً أى بعد أن غدا عليه وأخذ من عطائه أول النهار (ش)

ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أى بالاعتراض) أن الشاعر يهمه[1] أبداً إثبات ممدوحه جواداً أو تواقاً إلى السؤال فرحاً بهم . وأن يبرئه من عبوس البخل ، وقطوب المتكلف فى البذل ، الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ومن يهوى الثناء والثراء معاً ولا يتمكن فى نفسه معنى قول أبى تمام :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد فى كف امرىء والدراهم

فهو[2] يسرع إلى استماع المدائح ، ولا يبطىء عن صلة المادح ، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر فى خطرات الظنون . وقد يجوز بشىء من الوهم الذى ذكرته على قول المتنبى :

يعطى المبشر بالقصاد قبلهم كمن يبشره بالماء عطشانا

وهذا شىء عرض ولاستقصائه موضع آخر إن وفق الله .

وأصل بيت الطيف المستميح من نحو قوله :

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا[3]

وهذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضاً من باب ما استؤنف له علة غير معروفة إلا أنه لا يبلغ فى القوة ذلك المبلغ فى الغرابة والبعد من العادة ، وذلك أنه قد يتصور أن يريد المغرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه .

ومما يلحق بهذا الفصل قوله :

---

(١) قوله يهمه الخ أى فلا يتوهم أنه قصد ماذكره من الوهم (ش) .

(٢) أى الممدوح .

(٣) الشعر لمجنون يقال استغشى ثوبه وبثوبه إذا تغطى به . ويكنى بذلك عن طلب النوم .

رحل العزاء برحلتي فكأنني أتبعته الأنفاس للتشييع

وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ما هو المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف والمعنى رحل عني العزاء بارتحالي عنكم أي عنده ومعه أو به و بسببه ، فكأنه لما كان محل الصبر الصدر[1] وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً صار العزاء وتنفس الصُّعَداء كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة :

ومما يلاحظ هذا النوع ويجرى فى مسلكه وينتظم فى سلكه قول ابن المعتز :

عاقبت عينى بالدمع والسهر إذ غار قلبي عليك من بصرى

واحتملت ذاك وهى رابحة فيك وفازت بلذة النظر

وذاك أن العادة فى دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب ، أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب ، الموجبة للاكتئاب ، وقد ترك ذلك كله كما ترى ، وادعى أن العلة ما ذكره من غيرة القلب منها على الحبيب و إيثاره أن يتفرد برؤيته ، وأنه بطاعة القلب وامتثال رسمه رام للعين عقوبة فجعل ذاك أن أبكاها ، ومنعها النوم وحماها ، وله أيضا فى عقوبة العين بالدمع والسهر من قصيدة أولها :

---

(١) إن الحزن والخوف إنما تشعر النفس بهما بانقباض فى الصدر وكذا سائر الانفعالات النفسية . وأما الصبر فهو مقاومة الانفعال بقوة الإرادة حتى لا يترتب عليه من العمل ماهو ضار فهو ليس انفعالا بل معنى يشبه السلب لأنه حبس النفس ومنعها من الاسترسال فى الجزع وإنما يقال إن موضعه الصدر لأنه معالجة نفسية لما يشعر به فى الصدر الذى هو مكان القلب الذى هو ينبوع الدم . على أن الشعور لعصب القلب لا لدمه المتأثر به .

قل لأحلى العباد شكلا وقدًّا أبجِدٌ ذا الهجرُ أم ليس جِدًّا
ما بذا كانت المنى حدثتنى لهف نفسى أراك قد خنت وُدا
ما ترى فى متيم بك صب خاضع لا يرى من الذل بدا
إن زنَتْ عينه بغيرك فاضرب ها بطول السهاد والدمع حدا

قد جعل البكاء والسهاد عقوبة على ذنب أثبته للعين كما فعل فى البيت الأول إلا أن صورة الذنب ههنا غير صورته هناك ، فالذنب ههنا نظرها إلى غير الحبيب واستجازتها من ذلك ما هو محرم محظور ، والذنب هناك نظرها إلى الحبيب نفسه ، ومزاحمتها القلب فى رؤيته . وغيرة القلب من العين سبب العقوبة هناك ، فأما ههنا فالغيرة كائنة بين الحبيب وبين شخص آخر فاعرفه .

ولا شبهة فى قصور البيت الثانى عن الأول ، وأن للأول عليه فضلا كبيراً ، وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض ، وجعل الخصومة فى الحبيب بين عينيه وقلبه ، وهو تمام الظرف واللطف . فأما الغيرة فى البيت الأخير فعلى ما يكون أبداً — هذا ولفظ « زنت » وإن كان ما يتلوها من إحكام الصنعة يحسنها وورودها فى الخبر « العين تزنى » يؤنس بها ، فليست تدع ما هو حكمها من إدخال نفرة على النفس[1] .

وإن أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصـــــنعة فى أعجب صورة

---

(١) لله در المصنف فإنه لا يفوته شىء من بيان تأثير الكلام فى النفس الذى هو روح البلاغة وسرها ، ولعمرى إن كلمة الزنا الخبيثة لتؤثر فى النفس الطيبة تأثيراً يجعل الصنعة فى البيت صنعة خسيسة تشمئز منها أهل الحشمة والحياء ، ولاسيما العذارى وفضليات النساء . وأما حديث « العين تزنى » فهو للتنفير والزجر عن نظر الشهوة ولا أبلغ فى ذلك من التعبير عنه بالزنا ، وما أبعد الفرق بين خطاب الوعظ والتشريع وبين مغازلة المحب الحبيب .

أظرفها فانظر إلى قول القائل :

أتتني تؤنبني بالبكا فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين تراني بها(١)
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها(٢)

أعطاك بلفظة التأديب ، حسن أدب اللبيب ، في صيانة اللفظ عما يحوج إلى الاعتذار ، ويؤدي إلى النفار ، إلا أن الأستاذية تعد ظاهرة في بيت ابن المعتز . وليس كل فضيلة تبدو مع البديهة ، بل تعقب النظر والروية ، وبأن يفكر في أول الحديث وآخره . وأنت تعلم أنه لا يكون أبلغ في الذي أراد من تعظيم شأن الذنب من ذكر الحد وإن ذلك لا يتم إلا بلفظة « زنت » .

ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيرا من شأنه ، وطريقه طريق أبي تمام ولم يكن من المطبوعين . وموضع البسط في ذلك غير هذا ، فغرضي الآن أن أريك أنواعاً من التخييل ، وأضع شبه القوانين ليستعان بها على ما يراد من التفصيل والتبيين .

فصـــل

في تخييل . بغير تعليل

وهذا نوع آخر من التخييل ، وهو يرجع إلى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل . بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة ، ثم تراهم كأنهم

---

(١) في رواية «وقالت» بدل تقول . ويروى الشطر * أما تستحي يا قليل الوفاء * أتبكي الخ .

(٢) هذا أشرف من قول الآخر :

إذا زنت عيني بها فبالدموع تغتسل

قد وجدوا تلك الصفة بعينها ، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها ، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال ، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره فى الفضل والقدر والسلطان ، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان ، ألا ترى إلى قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة فى السما

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده ، بجعله صاعداً فى السماء من حيث المسافة الكائنة ، لما كان لهذا الكلام وجه . ومن أبلغ ما يكون فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

أعلم الناس بالنجوم بنونو   بختَ علماً لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سمواً   بترق فى المكرمات الصعاب
مبلغاً لم يكن ليبلغه الطا   لب إلا بتلكم الأسباب

وأعاده فى موضع آخر فزاد الدعوى قوة ومر فيها مرور من يقول صدقاً ، يذكر حقاً :

يا آل نوبخت لا عدمتكم   ولا تبدلت بعدكم بدلا
إن صح علم النجوم كان لكم   حقاً إذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن   قاس ولكن بأن رقى فعلا
أعلاكم فى السماء مجدكم   فلستم تجهلون ما جهلا
شافهتم البدر بالسؤال عن   الأمر إلى أن بلغتم زحلا

وهذا الحكم إذا استعاروا اسم الشىء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد فإنهم يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضى

بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة . ومثاله قوله :

قامت تظللني من الشمس نفس أعز على من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

فلولا أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى ، فليس ببدع ولا منكر أن يظل إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهجا بشخصه . وهكذا قول البحتري :

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق(١)

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية ما لم يروه قط ولم تجر العادة به وان يتم للتعجب معناه الذى عناه ولا تظهر صورته على وضعها الخاص حتى يجترىء على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر ولا يحفل بتكذيب الظاهر له ويسوم النفس — شاءت أم أبت — تصور شمس ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا وفقاً ، وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقاً ، ومدار هذا النوع الطالب على التعجب وهو والى أمره ، وصانع سحره وصاحب سره ، وتراه أبداً وقد أفضى بك إلى خلابة لم تكن عندك ، وبرز لك فى صورة ما حسبتها تظهر لك ، ألا ترى أن صورة قوله « شمس تظللني من الشمس » غير صورة قوله « وما عاينوا شمسين » وإن اتفق الشعران فى أنهما يتعجبان من وجود الشىء على خلاف ما يعقل ويعرف .

وهكذا قول المتنبي :

(١) قوله وفقاً : أى متوافقين متطابقين ويقال أتيته وفق طلعت الشمس : أى حين طلعت .

كَبُرت حول ديارهم لما بدت … منها الشموس وليس فيها المشرق

له صورة غير صورة الأولين . وكذا قوله :

ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه … ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

تعرض تلك الصور كلها[1] ، والاشتراك بينها عامى لا يدخل فى السرقة ، إذ لا اتفاق بأكثر من أن أثبت الشيء فى جميع ذلك على خلاف ما يعرفه الناس . فأما إذا جئت إلى خصوص ما يخرج به عن المتعارف ، فلا اتفاق ولا تناسب ، لأن مكان الأعجوبة مرة أن تظلل الشمس من الشمس وأخرى أن ترى الشمس مثلا لما تطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق ، وثالثة أن ترى الشمس طالعة من ديارهم . وعلى هذا الحد قوله : * ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه * العجب من أن يمشي البدر إلى آدمى وتعانق الأسد رجلا .

واعلم أن فى هذا النوع مذهباً هو كأنه عكس مذهب التعجب ونقيضه وهو لطيف جداً . وذلك أن تنظر إلى خاصية ومعنى دقيق يكون فى المشبه به ثم تثبت تلك الخاصية وذلك المعنى المشبه وتتوصل بذلك إلى إيهام أن التشبيه قد خرج من البين ، وزال عن الوهم والعين ، أحسن توصل وألطفه ، ويقام منه شبه الحجة على أن لا تشبيه ولا مجاز .

ومثاله قوله :

لا تعجبوا من بلى غلالته … قد زر أزراره على القمر

قد عمد كما ترى إلى شيء هو خاصية فى طبيعة القمر وأمر غريب من تأثيره ، ثم جعل يرى أن قوماً أنكروا بلى الكتان بسرعة ؛ وأنه قد أخذ ينهاهم عن التعجب من ذلك ويقول : أما ترونه قد زر أزراره على القمر ، والقمر

---

(١) تعرض (بوزن تضرب) أى تبدو وتظهر — وتلك الصور فاعلة ، ويجوز أن يكون تعرض خطاباً للقارىء وتلك الصور مفعولة (ش) .

من شأنه أن يسرع بلى الكتان . وغرضه بهذا كله أن يعلم أن لا شك ولا مرية فى أن المعاملة مع القمر نفسه ، وأن الحديث عنه بعينه ، وليس فى البين شىء من غيره ، وأن التشبيه قد نسى وأنسى وصار كما يقول الشيخ أبو على فيما يتعلق به الطرف : إنه شريعة منسوخة . وهذا موضع فى غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحى طبع الشعر ، وخفى حركته التى هى كالهمس ، وكسرى النفس فى النفس ، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم فى هذا النحو على إخفاء التشبيه ومحو صورته من الوهم ، فابرز صفحة التشبيه واكشف عن وجهه وقل : « لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زَرَّ أزراره على من حسنهُ حسنُ القمر » . ثم انظر هل ترى إلا كلاماً فاتراً ، ومعنى نازلا ؟ واخبر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأريحية ! وانظر فى أعين السامعين هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الإعجاب ؟ ومن أين ذلك وأنى ؟ — وأنت بإظهار التشبيه تبطل على نفسك ما له وُضع البيتُ من الاحتجاج على وجوب البلى فى الغلالة ، والمنع من العجب فيه بتقرير الدلالة ؟

وقد قال آخر فى هذا المعنى بعينه إلا أن لفظه لا ينبىء عن القوة التى لهذا البيت فى دعوى القمر وهو قوله :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر فى كل وقت طالع فيها[1]

ومما ينظر إلى قوله : * قد زَر أزراره على القمر * فى أنه بلغ فى دعواه فى المجاز حقيقة مبلغ الاحتجاج به ، كما يحتج بالحقيقة قول العباس بن الأحنف[2]

(١) المعاجر : جمع معجر (كمنبر) ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها .
(٢) قوله : حقيقة مفعول دعواه . وقول العباس من مؤخر خبره ومما ينظر .

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

صورة هذا الكلام ونُصبته[1] والقالب الذى فيه أفرغ يقتضى أن التشبيه لم يجر فى خلده وأنه معه كما يقال « لست منه وليس منى » وأن الأمر فى ذلك قد بلغ مبلغاً لا حاجة معه إلى إقامة دليل وتصحيح دعوى بل هو فى الصحة والصدق بحيث تصحح به دعوى ثابتة . ألا تراه كأنه يقول للنفس ما وجه الطمع فى الوصول وقد علمتِ أن حديثك مع الشمس ومسكن السماء ؟ أفلا تراه قد جعل كونها الشمس حجة على نفسه يصدفها بها عن أن ترجو الوصول إليها ويلجئها إلى العزاء وَردَّها فى ذلك إلى مالا تشك فيه وهو مستقر ثابت كما تقول « أو ما علمت ذلك » و « أليس قد علمت » ؟ ويَبين لك هذا التفسير والتقرير فضلَ بيان بأن تقابل هذا البيت بقول الآخر :

فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها قريب ولكن فى تناولها بعد

وتتأمل أمر التشبيه فيه فإنك تجده على خلاف ما وصفت لك وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ما ذكر بعدُ من قرب شخصها ومثالها فى العين مع بعد منالها ، بل قال « هى الشمس » كذا قولا مرسلا يومىء فيه بل يفصح بالتشبيه ولم يرد أن يقول : لا تعجبوا أن تقرب وتبعد بعد أن علمتم أنها الشمس . حتى كأنه يقول : ما وجه شككم فى ذلك ، ولم يشك عاقل فى أن الشمس كذلك ؟ كما أراد العباس أن يقول : كيف الطمع فى

---

(١) النصبة بالضم واحدة النصب وهى أعلام وسوارى تنصب لمعرفة الطريق والمراد هنا كما قال شيخنا : ساريته وعموده الذى عليه يقوم .

الوصول إليها مع علمك بأنها الشمس وأن الشمس مسكنها السماء ؟ فبيت ابن أبي عيينة في أن لم ينصرف عن التشبيه جملة ولم يبرز في صورة الجاحد له والمتبرىء منه كبيت بشار الذى صرح فيه بالتشبيه وهو :

أو كبدر السماء غير قريب حين يوفى والضوء فيه اقتراب

وكبيت المتنبي :

كأنها الشمسُ يعيي كفَّ قابضه شعاعها ويراه الطرف مقتربا

فإن قلت : فهذا من قولك يؤدى إلى أن يكون الغرض من ذكر الشمس بيان حال المرأة في القرب من وجه والبعد من وجه آخر دون المبالغة في وصفها بالحسن وإشراق الوجه وهو خلاف المعتاد لأن الذى يسبق إلى القلوب أو يقصد من نحو قولنا : هى كالشمس أو هى شمس — الجمالُ والحسن والبهاء[1] فالجواب أن الأمر وإن كان على ما قلت فإنه في نحو هذه الأحوال التى يقصد فيها إلى بيان أمر غير الحسن يصير كالشىء الذى يعقل من طريق العرف، وعلى سبيل التبع ، فأما أن يكون الغرض الذى له وضع الكلام فلا . وإذا تأملت قوله :

* فقلت لأصحابي هى الشمس ضوءها *

وقول بشار « أو كبدر السماء » وقول المتنبي « كأنها الشمس » علمت أنهم جعلوا جل غرضهم أن يصيبوا لها شبها في كونها قريبة بعيدة وهو القياس أيضاً . فأما حديث الحسن فدخل في القصد على الحد الذى مضى في قوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

فكما أن هذا لم يضع كلامه لجعل النعمة كالشمس في الضياء والإشراق ولكنها عمت[2] كما تعم الشمس بإشراقها ، كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم

---

(١) الجمال خبر لأن الذى يسبق إلى القلوب .

(٢) قال شيخنا أصله : ولكن لأنها عمت الخ .

على أن يجعلوا المرأة كالشمس والبدر فى الحسن ونور الوجه بل أموا نحو المعنى الآخر ، ثم حصل هذا لهم من غير أن احتاجوا فيه إلى تجشم . وإذا كان الأمر كذلك فلم يقل إن النعمة إنما عمت لأنها شمس ولكن أراك لعمومها وشمولها قياساً ، تحرى أن يكون ذلك القياس من شىء شريف له بالنعمة شبه من جهة أوصافه الخاصة فاختار الشمس . وكذلك لم يرد ابن أبى عيينة أن يقول إنها إنما دنت ونأت لأنها شمس أو لأنها الشمس بل قاس أمرها فى ذلك كما عرفتك : وأما العباس فإنه قال إنها إنما كانت بحيث لا تنال ووجب اليأس من الوصول إليها لأجل أنها الشمس فاعرفه فرقاً واضحاً .

ومما هو على طريقة بيت العباس فى الاحتجاج وإن خالفه فيما أذكره لك قول الصابىء فى بعض الوزراء يهنئه بالتخلص من الاستتار :

صح أن الوزير بدر منير إذ توارى كما توارى البدور

غاب لا غاب ثم عاد كما كا ن على الأفق طالعاً يستنير

لا تسلنى عن الوزير فقد بيّـ ـنتُ بالوصف أنه سابور

لا خلا منه صدر دست إذا ما قرّ فيه تقرّ منه الصدور[1]

فهو كما تراه يحتج أن لا مجاز فى البين فإن ذكر البدر وتسمية الممدوح به حقيقة واحتجاجه صريح لقوله صح أنه كذلك . وأما احتجاج العباس وصاحبه فى قوله : * قد زر أزراره على القمر * فعلى طريق الفحوى . فهذا وجه الموافقة . وأما وجه المخالفة فهو أنهما ادعيا الشمس والقمر بأنفسهما

---

(١) الدست بالفتح المجلس ويطلق على البيت وعلى الوسادة وعلى الثوب وعلى الحيلة والخديعة والنوبة من الغلبة كما يقال فى الشطرنج ونحوه : الدست لى والدست على (ش)

وادعى الصابىء بدراً لا البدر على الاطلاق . ومن ادّعاء الشمس على الاطلاق قول بشار :

بعثت بذكرها شعرى وقدمت الهوى شركا

فلما شــاقها قولى وشب الحب فاحتنكا

أتتنى الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلـكا

وجدت العيش فى سعدى وكان العيش قد هلـكا

فقوله : « ولم تك تبرح الفلـكا » يريك أنه ادعى الشمس نفسها .

وقال أشجع يرثى الرشيد فبدأ بالتعريف ثم نـكّر فخلط إحدى الطريقتين بالأخرى وذلك قوله :

غربت بالمشرق الشمـ سُ فقل للعين تدمع

ما رأينـا قط شمساً غربت من حيث تطلع

فقوله : « غربت بالمشرق الشمس » على حد قول بشار : « أتتنى الشمس زائرة » فى أنه خيّل إليك شمس السماء . وقوله بعد « ما رأينا قط شمساً » يُفتِر[1] أمر هذا التخييل ويميل بك إلى أن تـكون الشمس فى قوله : « غربت بالمشرق الشمس » غير شمس السماء أعنى غير مدّعَى أنها هى وذلك مما يضطرب عليه المعنى ويقلق لأنه إذا لم يدّع الشمس نفسها لم يجب أن تـكون جهة خراسان شرقاً لها وإذا لم يجب ذلك لم يحصل ما أراده من الغرابة فى غروبها من حيث تطلع . وأظن الوجه فيه أن تتأول تنـكيره للشمس فى الثانى على قولهم : خرجنا فى شمس حارّة . يريدون فى يوم كان للشمس فيه حرارة وفضل توقُّد ، فيصـــير كأنه قال : ما عهدنا يوماً غربت فيه

(١) يفتر من الافتار يضيق أو يفتر من التفتير أى يجعله فاتراً (ش) والمؤدى واحد

الشمس من حيث تطلع وهوت فى جانب المشرق . وكثيراً مايتفق فى كلام الناس مايوهم ضربا من التنكير فى الشمس كقولهم : « شمس صيفية » وكقوله :

* والله لاطلعت شمس ولاغربت *

ولافرق بين هذا و بين قول المتنبي :

لم يُر قَرنُ الشمس فى شرقه فشكت الأنفس فى غربه[1]

ويجيء التنكير فى القمر والهلال على هذا الحد فمنه قول بشار :

أملى لا تأت فى قمر بحديث واتق الدُّرَعا[2]

وتوقَّ الطيب ليلتنا إنه واش إذا سطعا

فهذا بمعنى : لاتأت فى وقت قد طلع فيه القمر . وهكذا قول عمر بن أبى ربيعة :

وغاب قُمير كنت أرجو غيوبه وروّح رعيانٌ ونوّمَ سُمّرُ[3]

ظاهره يوهم أنه كقولك : جاءنى رجل ، وليس كذلك فى الحقيقة لأن الاسم لا يكون نكرة حتى يعم شيئين وأكثر وليس هنا شيئان يعمهما اسم القمر[4] وهكذا قول أبى العتاهية :

---

(١) قوله « فشكت » معطوف على « ير » أى لم ير الشروق مقروناً بالشك فى الغروب بل من رأى الشمس شارقة أيقن بغروبها .

(٢) الدرع (كصرد) ثلاث ليال تلى البيض سميت بذلك لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها .

(٣) روّح الرعيان أى ردوا إبلهم إلى المراح . والسمر جمع سامر وهو المحادث ليلا . والبيت من القصيدة المشهورة التى أنشدها عمر بن عباس (رضى الله عنهما) فحفظها من مرة واحدة ومطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

ولام ابن عباس بعض أصحابه على حفظ هذه القصيدة فقال منكراً لومه : « أمن آل نعم » ؟ يستجيدها .

(٤) أى بحسب ما يرى الناس بأبصارهم فيجرى فيه كلامهم وشعرهم . والواقع الذى ثبت بالنظر فى المرايا الفلكية أن فى السماء أقماراً متعددة تابعة لبعض الدرارى فالمشترى منها له أربعة أقمار .

تسر إذا نظرت إلى هلال ونقصك إذ نظرت إلى الهلال

ليس المنكر غير المعرف ، على أن للهلال فى هذا التنكير فضل تمكن ليس للقمر[١] ألا تراه قد جمع فى قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة) ولم يجمع القمر على هذا الحد .

ومن لطيف هذا التنكير قول البحترى :

وبدرين أنضيناهما بعد ثالث أكلناه بالايجاف حتى تمحقا

ومما أتى مستكرها نابيا يتظلم منه المعنى وينكره قول أبى تمام :

قريب الندى نائى المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازله

سبب الاستكراه وأن المعنى ينبو عنه أنه يوهم بظاهره أن ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم ، أعنى أنه يتناءى مكانه ويدنو نوره ، وذلك محال ، فالذى يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفا على حده فى بيت البحترى .

كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

فإن قلت أقطع واستأنف فأقول « كأنه هلال » وأسكت ثم أبتدىء وآخذ فى الحديث عن شأن الهلال بقولى « قريب النور ناء منازله » أمكنك[٢] ولكنك تعلم مايشكوه إليه المعنى من نبو اللفظ وسوء ملاءمة العبارة . واستقصاء هذا الموضع يقطع عن الغرض وحقه أن يفرد له فصل .

* * *

وأعود إلى حديث المجاز وإخفائه ودعوى الحقيقة وحمل النفس على تخيلها . فما يدخل فى هذا الفن ويجب أن يوازن بينه وبين مامضى قول سعيد بن حميد .

---

(١) يعنى أن الهلال أشد قبولا للتنكير ويجرى فيه معناه بخلاف القمر (ش) .

(٢) أمكنك : جواب فإن قلت .

وعد البدر بالزيارة ليلا فإذا ما وفى قضيت نذورى
قلت يا سيدى ولم تؤثر اللـ يل على بهجة النهار المنير؟
قال لى لا أحب تغيير رسمى هكذا الرسم فى طلوع البدور

قالوا وله فى ضده :

قلت زورى فأرسلت أنا آتيك سحره
قلت فالليل كان أخ فى وأدنى مسره
فأجابت بحجة زادت القلب حسره
أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغى أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتاً للزيارة فى تلك والليل فى هذه فأما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق خصوصاً من حيث ينظر الآن فمثل وشبيه ؛ وليس بضد ولا نقيض .

ثم اعلم أنا إن وازنا بين هاتين القطعتين وبين ما تقدم من بيت العباس « هى الشمس مسكنها فى السماء » وما هو فى صورته وجدناهما أمراً بين أمرين — بين ادعاء البدر والشمس أنفسهما ، وبين إثبات بدر ثان وشمس ثانية ، ورأينا الشاعر قد شاب فى ذلك الإنكار بالاعتراف ، وصادفت صورة المجازُ تعرضُ عنك مرة وتعرض لك أخرى . فقوله « البدر » بالتعريف مع قوله « لا أحب تغيير رسمى » وتركه أن يقول : رسم مثلى يخيل إليك البدر نفسه ، وقوله « فى طلوع البدور » بالجمع دون أن يفرد فيقول هكذا الرسم فى طلوع البدور » يلتفت بك إلى بدر ثان ويعطيك الاعتراف بالمجاز على وجه . وهكذا القول فى القطعة الثانية لأن قولك « أنا شمس » بالتنكير اعتراف بشمس ثانية أو كالاعتراف .

ومما يدل دلالة واضحة على دعوى الحقيقة ولا يستقيم إلا عليها قول المتنبي :

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معا

أراد فأرتنى الشمس والقمر ثم غلب اسم القمر كقول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

لولا تخيل أنها الشمس نفسها لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف واللام معنى . وكذلك لولا ضبطه نفسه حتى لا يجرى المجاز والتشبيه فى وهمه لكان قوله « فى وقت معاً » لغواً من القول فليس بعجيب أن يتراءى لك وجه غادة حسناء فى وقت طلوع القمر وتوسطه السماء ، وهذا أظهر من أن يخفى . وأما تشبيه أبى الفتح لهذا البيت بقول القائل :

وإذا الغزالة فى السماء ترفعت وبدا النهار لوقته يترجل(١)

أبدت لوجه الشمس وجهاً مثله تلقى السماء بمثل ما تستقبل

فتشبيه على الجملة ومن حيث أصل المعنى وصورته فى المعقول فأما الصورة الخاصة التى تحدث له بالصنعة فلم يعرض لها .

ومما له طبقة عالية فى هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة وعلو المأخذ قول الفرزدق :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والدّلو يمطر

أجار بنات الوائدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر(٢)

(١) ترجلت الشمس ارتفعت وترجل النهار ارتفع قال * وهاج به لما ترجلت الضحى *

(٢) رواية الأغانى يعلم بالبناء للمفعول . والفرزدق : الرغيف الضخم وهو لقب غلب على الشاعر المشهور وكان وجهه غليظاً جهماً واسمه همام ابن غالب بن صعصعة الذى يفتخر به فى البيت الأول . فالمراد بقوله (أبى) جده وكان مشهوراً فى الجاهلية بشراء البنات اللائى يراد وأدهن لتخليصهن من الموت والمخفر مزيل الخفارة وهى من اسم خفره إذا حماه ومنعه وأمنه .

أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ومن لا يخطر ببـاله أنه مجاز فيه ومتناول له من طريق التشبيه وحتى كأن الأمر في هذه الشهرة بحيث يقال : أى الغيثين أجود ؟ فيقال صعصعة ، وحتى بلغ تمكن ذلك فى العرف إلى أن يتوقف السامع عند اطلاق الاسم ، فإذا قيل أتاك الغيث لم تعلم أيراد صعصعة أم المطر . وإن أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة فى هذا التخييل وأن مصـدره مصدر الشيء المتعارف الذى لا حاجة به إلى مقدمة يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقول : أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ، ثم تقول : وهو خـير الغيثين لأنه لا يختلف إذا اختلفت الأنواء[1] فانظر إلى موقع الاسم فإنك تراه واقعاً موقعا لا سبيل لك فيه إلى حل عقد التثنية[2] وتفريق المذكورين بالاسم وذلك أن (أفعل) لا تصح إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر فلا يقال : جاءنى أفضـل زيد وعمرو ، ولا أتى اعـلم بكر وخالد عندى . بل ليس إلا أن تضيف إلى اسم مثنى أو مجموع فى نفسه نحو أفضل الرجلين وأفضـل الرجال وذلك أن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه أبداً فحقـه أن يضاف إلى اسم يحويه وغيره . وإذا كان الأمر كذلك علمت أن اللفظ بالتشبيه والخروج عن صريح جعل اللفظ للحقيقة متعذر عليك إذ لا يمكنك أن تقول : أبى أحمد الغيث والثـانى له والشـبيه به ، ولا شيئاً من هذا النـحو ، لأنك تقع بذلك فى إضافة أفعـل إلى اسمين معطوف أحـدهما على الآخر .

وإذ قد عرفت هذا فانظر إلى قول الآخر :

---

(١) أى لا تختلف أوقاته وحق التعبير : لا يتخلف إذا تخلفت الأنواء . قاله وكتبه شيخنا

(٢) وفى نسخة « البنية » .

قد قحط النـاس فى زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدِّرَر[١]

غيثان فى ساعة لنـــا اتفقا فمرحباً بالأمـــير والمطــر

فإنك تراه لا يبلغ هذه المـنزلة وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثـاً ولا يدعى فيه عرفاً جارياً وأمراً مشهوراً متعارفاً يعلم كل واحد منه ما يعلمه. وليس بمتعذر أن يقول: غيث ثان للغيث اتفقا[٢]. أو يقول: الأمير ثانى الغيث والغيث اتفقا. فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت فى مكانه وكان موضعه من الـكلام أضن به وأشـد محاماة عليه وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم.

واعلم أن قول البحترى:

غيثان إن جدب تتابع أقبلا وهما ربيع مؤمـل وخريفـه

لا يكون ممـا نحن بصدده فى شىء لأن كل واحد من الغيثين فى هذا البيت مجاز لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث. والذى نحن بصدده هو أن يضم المجـاز إلى الحقيقة فى عقد التثنية ولـكن إن ضممت إليه[٣] قوله:

فلم أر ضرغامين أصدقَ منكما عراكاً إذا الهيابة النكس كذبا[٤]

كان لك ذلك لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز. فإن قلت فهنا شىء يردك إلى ما أبينه من بقـاء حكم التشبيه فى جعله إياه الغيث وذلك

(١) قحط كعلم وبضم القاف المجهول والدرر بالكسر جمع درة كسدرة وسدر السحاب
(٢) أى فيجوز حل عقد التثنية (ش)
(٣) أى إلى ما نحن بصدده.
(٤) الهيابة صيغة مبالغة من هاب أى الكثير الخوف والنكس بالكسر الرذل.

أن تقدير الحقيقة فى المجاز إنما يتصور فى نحو بيت البحترى : « فلم أر ضرغامين » من حيث عمد إلى واحد من الأسود ثم جعل الممدوح أسداً على الحقيقة قد قارنه وضامه ولا سبيل للفرزدق إلى ذلك لأن الذى يقرنه إلى أبيه هو الغيث على الإطلاق . وإذا كان الغيث على الإطلاق لم يبق شىء يستحق هذا الإسم ويدخل تحته[1] وإذا كان كذلك حصل منه أن لا يكون أبو الفرزدق غيثاً على الحقيقة — فالجواب أن مذهب ذلك ليس على ما تتوهمه ولكن على أصل فى التشبيه وهو أن يقصد إلى المعنى الذى من أجله يشبه الفرع بالأصل كالشجاعة فى الأسد والمضاء فى السيف وينحى سائر الأوصاف جانباً وذلك المعنى فى الغيث هو النفع العام . و إذا قدر هذا التقدير صار جنس الغيث كأنه عين واحدة[2] وشىء واحد . و إذا عاد بك الأمر إلى أن تتصوره تصور العين الواحدة دون الجنس كان ضم أبى الفرزدق إليه بمنزلة ضمك إلى الشمس رجلا أو امرأة تريد أن تبالغ فى وصفهما بأوصاف الشمس وتنزيلهما منزلتها كما تجده فى نحو قوله :

فليت طالعة الشمسين غائبة ... وليت غائبة الشمسين لم تغب

(١) أى لجميع أفراد الغيث دخل فى لفظه فأبو الفرزدق خارج عنه بالضرورة فمتى ذكره ثانى الغيث علم أنه مجاز لأنه ليس له غيثان بل لا غيث إلا واحد شامل لجميع أفراده وليس منها أبو الفرزدق (ش)

(٢) أى مشخصة لا عموم فيها وذلك انك لاحظت الغيث فى جميع أفراده جملة واحدة ونظرت إليه نظرك إلى الشىء الواحد ثم شبهت به أبا الفرزدق وضممته إليه (ش)

فصـــل

« فى الفرق بين التشبيه والاستعارة »

إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هوله لمشابهة بينهما كان ذلك على ما مضى من الوجهين : (أحدهما) أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال[١] أنك أردته وذلك أن تقول « عنت لنا ظبية » وأنت تريد امرأة « ووردنا بحراً » وأنت تريد الممدوح ، فأنت فى هذا النحو من الكلام إنما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له فى أصل اللغة بدليل الحال أو إفصاح المقال بعد السؤال أو بفحوى الكلام وما يتلوه من الأوصاف . مثال ذلك أنك إذا سمعت قوله :

ترنح الشرب واغتالت حلومهم　　شمس ترجل فيهم ثم ترتحل[٢]

استدللت بذكر الشرب واغتيال الحلوم والارتحال أنه أراد قينة[٣] ولو قال ترجلت شمس ولم يذكر شيئاً غيره من أحوال الآدميين لم يعقل قط أنه أراد امرأة إلا بإخبار مستأنف أو شاهد آخر من الشواهد .

ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روى أن عدى ابن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط فى قوله تعالى : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) وحمله على ظاهره فقد روى أنه قال لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتى فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « إن وسادك لطويل عريض إنما هو الليل والنهار[٤] » .

---

(١) أى من أول الأمر وبمجرد اللفظ

(٢) الشرب بالفتح جماعة الشاربين وترجلت الشمس ارتفعت والمراد تظهر ويسطع ضوءها

(٣) القينة المغنية والعازفة .

(٤) الحديث فى الصحيحين وغيرهما ولفظه : « إن وسادك لعريض » وفى مسلم « وسادتك » وهى أخص . إنما « هو سواد الليل وبياض النهار »

(والوجه الثانى) أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول : زيد أسد ، وهند بدر ، وهذا الرجل الذى تراه سيف صارم على أعدائك .

وقد كنت ذكرت فيما تقدم أن فى إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثانى بعض الشبهة ووعدتك بكلام يجىء فى ذلك وهذا موضعه .

اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضى فى الوساطة[1] أن لا تطلق الاستعارة على نحو قولنا : « زيد أسد وهند بدر » . ولكن نقول هو تشبيه ؛ فإذا قال : هو أسد ، لم تقل استعار له اسم الأسد ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول فى الأول إنه استعارة لا تتوقف فيه ولا تتحاشى البتة ، وإن قلت فى القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً ، من حث تخبر عما فى نفس المتكلم وعن أصل الغرض ، وإن أردت تمام البيان قلت أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة . فإن قلت فكذلك فقل فى قولك « زيد أسد » إنه أراد تشبيهه بالأسد فأجرى اسمه عليه ، ألا ترى أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت : زيد أسد كما تقول زيد واحد من الأسود فما الفرق بين الحالين ، وقد جرى الاسم فى كل واحد منهما على المشبه ؟ فالجواب أن الفرق بين ، وهو أنك عزلت فى القسم الأول الاسم الأصلى عنه واطرحته وجعلته كأن ليس باسم له ، وجعلت الثانى هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً فى نفسك ، مكنوناً فى ضميرك وصار فى ظاهر الحال وصورة الكلام وقضيته ، كأنه الشىء الذى وضع له

---

(١) أى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ونقد شعره للقاضى أبى الحسن على ابن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ وهو الذى ينقل المصنف عنه كثيراً .

الاسم فى اللغة وتصور أن تعلقه الوهمُ كذلك . وليس كذلك القسم الثانى لأنك قد صرحت فيه بالمشبه وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به . وإذا سمع السامع قولك : « زيد أسد وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء » استحال أن يظن ، وقد صرحت له بذكر زيد أنك قصدت أسداً وسيفاً ، وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيله فى هذا أن يقع فى نفسه من قولك : زيد أسد ، حال الأسد فى جراءته وإقدامه وبطشه ، فأما أن يقع فى وهمه أنه رجل وأسد معاً بالصورة والشخص فمحال .

ولما كان كذلك ، كان قصد التشبيه من هذا النحو بيناً لائحاً ، وكائناً من مقتضى الكلام ، وواجباً من حيث موضوعه ، حتى إن لم يحمل عليه كان محالا ؛ فالشيء الواحد لا يكون رجلا وأسداً ، وإنما يكون رجلا وبصفة الأسد فيما يرجع إلى غرائز النفوس والأخلاق ، أو خصوص فى الهيئة كالكراهة فى الوجه ، وليس كذلك الأول ، لأنه يحتمل الحمل على الظاهر على الصحة ، فلست بممنوع من أن تقول : عنّت لنا ظبية ، وأنت تريد الحيوان ، وطلعت شمس وأنت تريد الشمس ، كقولك : طلعت اليوم شمس حارة ، وكذلك تقول : هززت على الأعداء سيفاً ، وأنت تريد السيف ، كما تقوله وأنت تريد رجلا باسلا استعنت به ، أو رأياً ماضياً وفقت فيه ، وأصبت به من العدو فأرهبته وأثرت فيه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن يفصل بين القسمين فيسمى الأول استعارة على الإطلاق ، ويقال فى الثانى إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيهاً فغير ممنوع ولا غريب ، إلا أنه على أنك تخبر عن الغرض وتنبيء عن مضمون الحال ، فاما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحاً فلا ، فإن قلت : فكذلك قولك « هو أسد » ليس فى ظاهره تشبيه لأن التشبيه

يحصل بذكر الكاف أو « مثل » أو نحوها — فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن موضوعه من حيث الصورة يوجب قصدك التشبيه لاستحالة أن يكون له معنى وهو على ظاهره وله مثال من طريق العادة وهو أن مثال الاسم مثل الهيئة التي يستدل بها على الأجناس كزى الملوك وزى السوقة ، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوقة ونفيت عنهُ كل شيء يختص بالسوقة وألبسته زى الملوك فأبديته للناس فى صورة الملوك حتى يتوهموه ملكا وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار أو اختبار واستدلال من غير الظاهر — كنت قد أعرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعانى التى تدل على كونه سوقة لم تكن قد أعرته بالحقيقة هيئة الملك لأن المقصود من هيئة الملك أن يحصل بها المهابة فى النفس وأن يتوهم العظمة ، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقة .

افرض هذه الموازنة فى الشيء الواحد كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً وإنما اعتبر الهيئة وهى تحصل بمجموع أشياء وذلك أن الهيئة هى التى يشبه حالها حال الاسم لأن الهيئة تخص جنساً كما أن الاسم كذلك والثوب على الاطلاق لا يفعل ذلك إلا بخصائص تقترن به وتراعى معه ، فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لا يتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة لم يكن الاسم قد لحقه ولم تكن قد أعرته إياه إعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك .

هذا — وإذا تأملنا حقيقة الاستعارة فى اللغة والعادة كان فى ذلك أيضاً بيان لصحة هذه الطريقة ووجوب الفرق بين القسمين ، وذاك أن من

شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافعه على الحد الذى يحصل للمالك فإن كان ثوباً لبسه كما لبسه ، وإن كان أداة استعملها فى الشىء تصلح له ، حتى إن الرائى إذا رآه معه لم تنفصل حاله عنده من حال ما هو ملك يد ليس بعارية وإنما يفضله المالك فى أن له أن يتلف الشىء جملة أو يدخل التلف على بعض أجزائه قصداً وليس المستعير ذلك ، ومعلوم أن ما هو كالمنفعة من الاسم أن يوجب ذكره القصد إلى الشىء فى نفسه ، فإذا قلت « زيد » علم أنك أردت أن تخبر عن الشخص المعلوم ، وإذا قلت « لقيت أسداً » علم أنك علقت اللقاء بواحد من هذا الجنس ، وإذا كان الأمر كذلك ثم وجدنا الاسم فى قولك « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ولا يعلم أنك قصدت امرأة ، وقد وقع من المرأة فى هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحة فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكه فيلبسه ، لبسه ويتجمل به تجمله ، ويكون مكانه عنده مكان الشىء المملوك ، حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له ، ولما وجدنا الاسم فى قولك « زيد أسد » لايقع من زيد ذلك الموقع من حيث أن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقاً عليه ومتناولا له على حد تناوله ما وضع له وزان ذلك وزان أن يضع الرجل عند الرجل ثوباً ويمنعه أن يلبسه أو بمنزلة أن تطرح عليه طرف ثوب كان عليك فلا يكون ذلك عارية صحيحة لأنك لم تدخله فى جملته ، ولم تعطه صورة ما يختص به ويصير إليه ويخفى كونه لك دونه ، فاعرفه .

* * *

وههنا فصل آخر من طريق موضوع الكلام يبين وجوب الفرق

بين القسمين ، وهو أن الحالة التى يختلف فى الاسم إذا وقع فيها أيسمى استعارة أم لا يسمى — هى الحالة التى يكون الاسم فيها خبر مبتدإ أو متنزلا منزلته ، أعنى أن يكون خبر كان ومفعولا ثانيا لباب علمت ، لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ وخبر ، ويكون حالا لأن الحال عندهم زيادة فى الخبر فحكمها حكم الخبر فيما قصدته ههنا خصوصا ، والاسم إذا وقع فى هـــذه المواضع فأنت واضع كلامك لإثبات معناه وإن أدخلت النفى على كلامك تعلق النفى بمعناه .

تفسير هذة الجملة أنك إذا قلت « زيد منطلق » فقد وضعت كلامك لإثبات الانطلاق لزيد . ولو نفيت فقلت « ما زيد منطلقا » كنت نفيت الانطلاق عن زيد . وكذلك « كان زيد منطلقا . وعلمت زيداً منطلقا ، ورأيت زيداً منطلقا » . أنت فى ذلك كله واضع كلامك ومزج له لتثبيت الانطلاق لزيد ولو خولفت فيــه انصرف الخلاف إلى ثبوته . وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت : زيد أسد ، ورأيت أسداً ، فقد جعلت اسم المشبه به خبراً عن المشبه . والاسم إذا كان خبراً عن الشيء كان خبراً عنه إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق فى قولك « زيد منطلق » أو إثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل فإذا امتنع فى قولنا « زيد أسد » أن تثبت شبه الجنسية لزيد على الحقيقة كان لإثبات شبه من الجنس له ، وإذا كنا إنما نثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله فى حيز الحصول والثبوت ، وإذا كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها إذا كان إنما جاء ليفيده ويوجبه .

وأما الحالة الأخرى التى قلنا إن الاسم فيها يكون استعارة من غير

خلاف فهى حالة إذا وقع الاسم فيها لم يكن الاسم مجتلبا لإثبات معناه للشيء ولا الكلام موضوعا لذلك لأن هذا حكم لا يكون إلا إذا كان الاسم فى منزلة الخبر من المبتدأ . فأما إذا لم يكن وكان مبتدأ بنفســـه أو فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فأنت واضع كلامك لإثبات أمر آخر غير ما هو معنى الاسم .

بيان ذلك أنك إذا قلت : جاءنى أسد ورأيت أسداً ومررت بأسد ، فقد وضعت الكلام لإثبات المجيء واقعاً من الأسد ، والرؤية والمرور واقعين منك عليه . وكذلك إن قلت : الأسد مقبل ، فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد لا لإثبات معنى الأسد . وإذا كان الأمر كذلك ثم قلت : عنت لنا ظبية وهززت سيفا صارما على الأعداء — وأنت تعنى بالظبية امرأة وبالسيف رجلا ، لم يكن ذكرك للاسمين فى كلامك هذا لإثبات الشبه المقصود الآن . وكيف يتصور أن يقصد إلى إثبات الشبه منهما لشيء وأنت لم تذكر قبلهما شيئا ينصرف إثبات الشبه إليه وإنما يثبت الشبه من طريق الرجوع إلى الحال والبحث عن خبيء فى نفس المتكلم وإذا كان كذلك بأن أن الاسم فى قولك : زيد أسد — مقصود به إيقاع التشبيه فى الحال وإيجابه .

وأما فى قولك : عنت لنا ظبية ، وسللت سيفا على العدو ، فوُضِعَ الاسم هكذا انتهازاً واقتضابا على المقصود وادعاء أنه من الجنس الذى وضع له الاسم فى أصل اللغة . وإذا افترقا هذا الافتراق وجب أن يفرق بينهما فى الاصطلاح والعبارة كما أنا نفصـــل بين الخبر والصفة فى العبارة لاختلاف الحكم فيهما بأن الخبر إثبات فى الوقت للمعنى ، والصفة تبيين وتوضيح وتخصيص

بأمر قد ثبت واستقر وعرف ، فكما لم نرض لاتفاق الغرض فى الخبر والصفة على الجملة واشترا كهما إذا قلت « زيد ظريف وجاءنى زيد الظريف » فى التباس زيد فى الظرف واكتسائه له أن نجعلهما فى الوضع الاصطلاحى شيئاً واحداً ولا نفرق بتسميتنا هذا خبرا وذاك صفة ، كذلك ينبغى أن لا يدعونا اتفاق قولنا : جاءنى أسد : وهززت سيفاً صارماً ، وقولنا : زيد أسد وسيف صارم فى — مطلق التشبيه — إلى التسوية بينهما وترك الفرق من طريق العبارة ، بل وجب أن نفرق فنسمى ذالا استعارة وهذا تشبيها فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثانى فينبغى أن تعلم أن إطلاقها لا يجوز فى كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة وذلك نحو قولك : هو الأسد وهو شمس النهار ، وهو البدر حسنا وبهجة ، والقضيب عطفاً[1] وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف . فإن قلت : « هو بحر وهو ليث ووجدته بحراً » وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذرَ أشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبثاً بطرف من الصواب ، وذلك أن الإسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت هو كأسد وهو كبحر ، كان كلاماً نازلاً غير مقبول كما يكون قولك هو كالأسد ، إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه الكاف فإنه يحسن فيه « كأن » كقولك : كأنه أسد ، أوما يجرى مجرى « كأن » فى نحو « تحسبه أسدا وتخاله سيفا » فإن غمض[2] مكان الكاف وكأن بأن يوصف الإسم الذى فيه

---

(١) عطف المرء — قيل وغيره — جانباه من لدن رأسه إلى وركيه وقد يكون اللفظ هنا عطفاً بالفتح أى تمايلا (ش)

(٢) غمض من بابى نصر وضرب غمضا وغموضا أى غاب أو خفى .

التشبيه بصفة لا تكون فى ذلك الجنس وأمر خاص غريب فقيل : هو بحر من البلاغة ، وهو بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب . وكقوله :

شمس تألَّقُ والفراق غروبها   عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن تسميه استعارة لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام وتبدل صورته فتقول : هو كالشمس المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف .

وقد يكون فى الصفات التى تجىء فى هذا النحو والصلات التى توصل بها ما يختل به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه وذلك مثل قوله :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه   موت فريص الموت منه ترعد[١]

لا سبيل لك الى أن تقول هو كالأسد وهو كالموت لما يكون فى ذلك من التناقض لأنك إذا قلت هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع المعروف ومحال أن تجعله محمولا فى الشبه على هذا الجنس[٢] أولا ثم تجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه دليل على أنه دونه ، وقولك بعد « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل على أنه فوقها . وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ثم تجعله يخافه ، وترتعد منه أكتافه ، وكذا قوله :

سحاب عدانى سيله وهو مسبل   وبحر عدانى فيضه وهو مفعم
وبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً   وموضع رحلى منه أسود مظلم

---

(١) الفريص جمع فريصة وهى لحمة بين الثدى والكتف وقيل بين الجنب والكتف ترعد عند الفزع ولهذا قال المصنف فيما يأتى ترعد منه أكتافه وأرعد بضم الهمزة أخذته الرعدة وهى بالكسر الرجفة من برد أو خوف

(٢) أى ملحقاً به قاله شيخنا

إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت هو كالبدر ثم جئت تقول : أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلى مظلم لم يضىء به ، كنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك ، وذلك محال وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بدراً مفرداً له هذه الخاصة العجيبة التى لم تعرف للبدر ، وهذا إنما يأتى بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال هل سمعت بأن البدر يطلع فى أفق ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التى هى معرضة له وكائنة فى مقابلته حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه ؟ ومعلوم بعد هذا من طريقة البيت فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد فى جنس البدر واحد له حكم وخاصة لم تعرف . وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعاً لا لإثبات الشبه بينه وبين البدر ولكن لإثبات الصفة فى واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك : زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت . فلا يكون قصدك إثبات الصفة التى ذكرتها له فإذا خرج الاسم الذى يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالإثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم من كون الاسم لإثبات الشبه . فالبحترى فى قوله : « وبدر أضاء الأرض » قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بدراً أمر قد استقر وثبت وإنما يعمل فى إثبات الصفة الغريبة والحالة التى هى موضع التعجب . وكما يمتنع دخول الكاف فى هذا النحو كذلك يمتنع دخول « كأن وتحسب وتخال » فلو قلت : « كأنه بدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلى منه مظلم » كان خلفا من القول . وكذلك إن قلت « تحسبه بدراً أضاء الأرض ورحلى منه مظلم » كان كالأول فى الضعف .

ووجه بعده من القبول بين وهو أن « كأن وحسبت وخلت وظننت » تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثانى أمراً معقولا ثابتاً فى الجملة إلا أنه فى كونه متعلقاً بما هو اسم كأن أو المفعول الأول من حسبت مشكوك فيه كقولنا « كأن زيداً منطلق » أو مجاز يقصد به خلاف ظاهره نحو « كأن زيداً أسد » فالأول على الجملة ثابت معروف والغريب هو كون زيد إياه ومن جنسه . والنكرة فى نحو هذه الأبيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شىء لا يعرف ولا يتصور . وإذا كان كذلك كان إدخال « كأن وحسبت » عليه كالقياس على المجهول :

وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانياً إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً لأن موضوع الاستعارة كيف دارت القضية على التشبيه وإذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس إذا قلبت عن سره ونقرت عن خبيئه فمحصوله أنك تدعى حدوث شىء هو من الجنس المذكور إلا أنه اختص بصفة غريبة وخاصية بعيدة لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس كأنك تقول : ما كنا نعلم أن ههنا بدراً هذه صفته — كان تقدير التشبيه فيه نقضاً لهذا الغرض ، لأنه لا معنى لقولك أشبهه ببدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف .

وهذا موضع لطيف جداً لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه ، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبارة لدقة مسلكه ، ويتصل به أن فى الاستعارة الصحيحة مالا يحسن دخول كلم التشبيه عليه وذلك إذا قوى الشبه بين الأصل والفرع حتى يتمكن الفرع فى النفس بمداخلة ذلك الأصل والاتحاد به وكونه إياه وذلك فى نحو النور إذا استعير للعلم والإيمان

والظلمة للكفر والجهل ، فهذا النحو لتمكنه وقوة شبهه ومتانة سببه قد صار كأنه حقيقة ولا يحسن لذلك أن تقول فى العلم : كأنه نور ، وفى الجهل كأنه ظلمة ، ولا تكاد تقول للرجل فى هذا الجنس « كأنك قد أوقعتنى فى ظلمة » بل تقول : أوقعتنى فى ظلمة . وكذلك الأكثر على الألسن والأسبق إلى القلوب أن تقول : فهمت المسألة فانشرح صدرى وحصل فى قلبى نور ، ولا تقول : كأن نورا حصل فى قلبى ، ولكن إذا تجاوزت هذا النوع إلى نحو قولك : سللت منه سيفاً على الأعداء ، وجدت « كأن » حسنة هناك كثيراً كقولك : بعثته إلى العدو فكأنى سللت سيفاً ، وكذلك فى نحو : زيد أسد « كأن زيداً أسد » وهكذا يتدرج الحكم فيه حتى كلما كان مكان الشبه بين الشيئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر فى الاستعمال .

ومما يجب أن تجعله على ذُكر منك أبدا وفيه البيان الشافى أن بين القسمين تبايناً شديداً أعنى بين قولك : زيد أسد ، وقولك : رأيت أسدا . وهو ما قدمته لك من أنك قد تجد الشىء يصلح فى نحو : زيد أسد ، حيث يذكر المشبه باسمه أولا ثم يجرى اسم المشبه به عليه ولا يصلح فى القسم الآخر الذى لا يذكر فيه المشبه أصلا وتطرحه . ومن الأمثلة البينة فى ذلك قول أبى تمام :

وكان المطل فى بدء وعود دخاناً للصنيعة وهى نار[1]

قد شبه المطل بالدخان ، والصنيعة بالنار ، ولكنه صرح بذكر المشبه وأوقع

---

(١) المصراع الأول فى نسخة الديوان المطبوعة هكذا « وكان المدح فى عود وبدء » وقبله =

المشبه به خبراً عنه ، وهو كلام مستقيم . ولو سلكت به طريقة ما يسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا : « أقبستنى ناراً لها دخان » . كان ساقطاً . ولو قلت : « أقبستنى نوراً أضاء أفقى به » . تريد علماً ، كان حسناً حسنه إذا قلت : « علمك نور فى أفقى » . والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على اسم المشبه به وتنزيله منزلته وإعطاءه الخلافة على المقصود ، إنما يصح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له وتستنيبه فى الدلالة ، وقد تقرر فى العرف الشبه بين النور والعلم وظهر واشتهر ، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية ، وبينها وبين الشمس ، ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنيعة والنار ، وإنما هو شىء يضعه الآن أبو تمام ، ويتمحله ويعمل فى تصويره ، فلابد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعاً ، حتى يعقل عندما يريده ، ويبين الغرض الذى يقصده ، وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم مثلا فيقول له : « عندى زيد » ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول عندى رجل مثل زيد أو غيره من المعانى ، وذلك تكليف علم الغيب ؛ فاعرف هذا الأصل وتبينه فإنك تزداد به بصيرة فى وجوب الفرق بين الضربين ، وذلك أنهما لو كانا يجريان مجرى واحداً فى حقيقة الاستعارة لوجب أن يستويا فى القضية حتى إذا استقام وضع الاسم فى أحدهما استقام وضعه فى الآخر فاعرفه .

= رأيت صنائعا معكت فأمست ذبائح والمطال لها شفار
نسيب البخل مذ كانا والا يكن نسب فبينهما جوار
لذلك قيل بعض المنع أدنى إلى مجد وبعض الجود عار

معكت بالبناء للمفعول مطلت يقال معكه دينه وبدينه إذا مطله .

فإن قلت : فما تقول فى نحو قولهم لقيت به أسداً ورأيت به ليثاً ؟ فإنه[1] مما لا وجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا : لئن لقيتَ فلاناً ليلقينك منه الأسد ، فأتوا به معرفة على حده إذا قالوا : احذر الأسد ، وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة وهو قوله عز وجل : (لهم فيها دار الخلد) والمعنى والله أعلم أن النار هى دار الخلد وأنت تعلم أن لا معنى ههنا لأن يقال إن النار شبهت بدار الخلد إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشىء يسمى دار الخلد كما تقول فى زيد : إنه مثل الأسد . ثم تقول : هو الأسد وإنما هو كقولك : النار منزلهم ومسكنهم ، نعوذ بالله منها . وكذا قوله :

* بأبى الظلامة منه النوفلُ الزفر[2] *

المعنى على أنه النوفل الزفر ، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد فيقال إنه شبه الممدوح به وإنما هو صفة كقولك هو الشجاع وهو السيد وهو النهاض بأعباء السيادة . وكذا قوله :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

لا يتصور فيه التشبيه وإنما المعنى أنه ليس ببخيل .

هذا — وإنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على ما يدعى أنه مستعار له والاسم فى قولك لقيت به أسداً ولقينى منه الأسد لا يتصور جريه على المذكور بوجه لأنه ليس بخبر عنه ولا صفة له ولا حال وإنما هو بنفسه مفعول لقيت وفاعل لقينى ولو جاز أن يجرى الاسم ههنا مجرى الاستعارة المتناولة المستعار له لوجب أن يقول فى قوله :

---

(١) قوله فإنه الخ جواب فإن قلت (س) .

(٢) النوفل الرجل المعطاء والزفر الشجاع وعلى هذا كلام المصنف فى جعلهما وصفين ولكن من معانى النوفل البحر ومن معانى الزفر الأسد

حتى إذا جن الظلام واختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط[1]

« إنه استعار اسم الذئب المذق » وذلك بين الفساد . وكذا نحو قوله :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد[2]

لا يكون استعارة وإن كنت تجد من يفهم البيت قد يقول : أراد بالأسد النعمان أو شبهه بالأسد . لأن ذلك بيان للغرض . فأما القضية الصحيحة وما يقع فى نفس العارف ويرحيه نقد الصيرف فإن الأسد واقع على حقيقته حتى كأنه قال : ولا قرار على زأر هذا الأسد — وأشار إلى الأسد خارجاً من عرينه ، مهدداً موعداً بزئيره . وأى وجه للشك فى ذلك وهو يؤدى إلى أن يكون الكلام على حد قولك ؟ ولا قرار على زأر من هو كالأسد . وفيه من العى والفجاجة شىء غير قليل[3] .

هذا — ومن حق غالط غلط فى نحو ما ذكرت على قلة عذره أن لا يغلط فى قول الفرزدق :

قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا

ولا يتوهم أن « هلالا » استعارة لسعيد لأن الحكم على الاسم بالاستعارة مع وجود التشبيه الصريح محال جار مجرى أن يكون كل اسم دخل عليه كاف التشبيه مستعاراً . وإذا لم يغلط فى هذا فالباقى بمنزلته فاعرفه .

---

(١) المذق بالفتح مصدر بمعنى اسم المفعول من مذق اللبن والشراب أى مزجه فأكثر من الماء فيه فهو مذوق ومذيق . والمذقة الطائفة أو الدفعة منه ويكنى الذئب بأبى مذقة لأن لونه يشبه اللبن الممزوج بالماء . وههنا يصح التشبيه المشار إليه برؤية الذئب ولا تصح الاستعارة كما قال المصنف

(٢) زأر الأسد وزئيره معروف وفعله من باب فتح وضرب ، شبه وعيد أبى قابوس بزئير الأسد فى أنه لا يقر المهدد به قرار .

(٣) قوله الفجاجة بالفتح حالة الفاكهة ونحوها قبل النضج والفج بالكسر الذى لم ينضج من الفواكه وغيرها واستعارها للكلام

فصـــل

« فى الاتفاق فى الأخذ والسرقة . والاستمداد والاستمانة »

اعـلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم أو فى وجـه الدلالة على الغرض . والاشتراك فى الغرض على العموم أن يقصد كل واحـد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء ، أو وصف فرسه بالسرعة أو ما جرى هذا الجرى ، وأما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر مايسـتدل به على اثباته له الشجاعة والسخاء مثلا وذلك ينقسم أقساماً منها التشبيه بما يوجـد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ والغاية البعيدة كالتشبيه بالأسد وبالبحر فى البأس والجود ، وبالبـدر والشمس فى الحسن والبهاء والإنارة والإشراق ومنها ذكر هيآت تدل على الصفة من حيث كانت[1] لا تكون إلا فيمن له الصفة كوصف الرجل فى حال الحرب بالابتسام وسـكون الجوارح وقلة الفـكر كقوله :

كأن دنانيراً على قسماتهم وإن كان قد شف الوجوه لقاء[2]

وكذلك الجواد يوصف بالتهلل عنـد ورود العفاة والارتياح لرؤية المجتدين[3] والبخيل بالعبوس والقطوب وقلة البشر مع سـعة ذات اليد ومساعدة الدهر .

---

(١) الضمير فى كانت للهيئات والصفة مثل الشجاعة والهيئة كالابتسام (ش) .

(٢) القسمات الوجوه وأراد أنها تشرق فى الحرب . وشفه الهم والرض والحب أوهنه وأذابه . والمراد بالوجوه وجوه المحاربين غير الممدوحين (ش)

(٣) العفاة كالقضاة بمعنى المجتدين وهم طلاب الفضل والجدا

فأما الاتفاق فى عموم الغرض فما لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، لا ترى من به حس يدعى ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل فى باب الأخذ ، وإنما يقع الغلط من بعض من لا يحسن التحصيل ولا ينعم التأمل فيما يؤدى إلى ذلك حتى يدعى عليه فى المحاجة أنه بما قاله قد دخل فى حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وأن الجهل مما يذم به ، فأما أن يقوله صريحاً ويرتكبه قصداً فلا .

وأما الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقراً فى العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصاً فى المعنى حكم العموم الذى تقدم ذكره ، من ذلك، التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وبالبدر فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلاء ، ونفى الالتباس عنه والخفاء ، وكذلك قياس الواحد فى خصلة من الخصال على المذكور بذلك والمشهور به والمشار إليه سواء كان ذلك ممن حضرك فى زمانك أو كان ممن سبق فى الأزمنة الماضية والقرون الخالية ، لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولا يحتاج فى العلم به إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، وإنما هو فى حكم الغرائز المركوزة فى النفوس ، والقضايا التى وضع العلم بها فى القلوب .

وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالأول فى حضوره إياه وكونه فى حكم ما يقابله[1] الذى لا معاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط

(١) أى بمنزلة ماهو بين يديه وتجاهه يقابله بوجهه لا يحجبه عنه شىء (ش)

والاستنارة ، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كِمٌّ يفتقر إلى شقه بالتفكر[١] وكان دراً فى قعر بحر لا بد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعاً فى شاهق لا يناله إلا بتجشم الصعود إليه ، وكامناً كالنار فى الزند لا يظهر حتى يقتدحه ، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التى لا تبدى صفحتها بالهوينا بل تنال بالحفر عنها ، و بعرق الجبين فى طلب التمكن منها ، نعم إذا كان هذا شأنه[٢] ، وههنا مكانه ، وبهذا الشرط يكون امكانه ، فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر ، وأن الثانى زاد على الأول ونقص عنه ، وترقى إلى غاية أبعد من غايته ، أو انحط إلى منزلة هى دون منزلته .

واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى ، والظاهر الجلى ، والذى قلت إن التفاضل لا يدخله ، والتفاوت لا يصح فيه ، إنما يكون كذلك منه ما كان صريحاً ظاهراً لم تلحقهُ صنعة ، وساذجاً لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض ، والرمز والتلويح فقد صار بما غير من طريقته ، واستؤنف من صورته ، واستُجد له من المِعرض[٣] ، وكسى من ذلك التعرض[٤] ، داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل ، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل ،

---

(١) الكم بالكسر الغلاف الذى يحيط بالثمر والزهر وينشق عنه .

(٢) شأنه بالرفع لأن الغرض أن يخبر عن الشأن بهذا — لأن « هذا » معناه الأحوال المتقدمة وهى المجهولة التى يحتاج أن يخبر بها عن الشأن (ش)

(٣) المعرض كمنبر هو الثوب الذى تجلى به العروس وتقدم .

(٤) المراد من التعرض الطلب (ش)

وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » كقول بعض العرب :

سلبن ظباء ذى نفر طلاها ونجل الأعين البقر الصوارا [١]

وكقوله :

إن السحاب لتستحيى إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها

وكقوله :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارها إلا بوجه ليس فيه حياء

وكقوله :

واهتز فى درع الندى فتحركت حركات غصن البانة المتأود

وكقوله :

فأقصيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر الأفق حين أقابله

إلى مسرف فى الجود لو أن حاتماً لديه لأمسى حاتم وهو عاذله

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ولكن كنى لك عنه وخُودِعت فيه وأتيت به من طريق الخلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل ؛ فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب ، لا يدين لكل أحد ، يأبى العطف لا يدين به إلا المروى المجتهد ، وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه ، والحالة التى تراها تنفى الاشتراك [٢] وتأباه ، إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف ، بل هو فى حد لحن القول والتعمية اللذين يتعمد فيهما

(١) الطلا بالضم جمع طلية وهى الاعناق ونجل الأعين من إضافة الصفة إلى الموصوف . والصوار بالضم وبالكسر القطيع من بقر الوحش . والمعنى سلبن البقر أعينها النجل

(٢) جملة تنفى الاشتراك مفعول ثان لتراها . وقوله بعدها . إنما هما الخ خبر قوله : فالخصوص . . والحالة . . والضمير فى « انهم جعلوا التشبيه » يعود إلى الشعراء الذين روى أبياتهم (ش)

إلى إخفاء المقصود ، حتى يصير المعلوم اضطراراً يعرف امتحاناً واختباراً ؛ كقوله :

مررت بباب هندَ فكلّ متنى فلا والله ما نطقت بحرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام ، وأن الميم موصولة باللام ، كذلك المشبه إذا قال : « سرقن الظباء العيون » . فقد أوهم أن ثم سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر . وكذلك يوهمك بقوله : « إن السحاب لتستحيي » إن السحاب حى يعرف ويعقل ، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزى ويخجل ، فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلا شبيهاً بما يقع فى نفس الناظر إلى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتخلب ، وتروق وتونق ، وتدخل النفس من مشاهدتها ، حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شأنه ، فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها ، والإعظام لها ، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ، ويوقعه فى النفوس من المعانى التى يتوهم بها الجامد الصامت ، فى صورة الحى الناطق ، والموات الأخرس ، فى قضية الفصيح المعرب ، والمبين المميز ، والمعدوم المفقود فى حكم الموجود المشاهد ؛ كما قدمت القول عليه فى باب التمثيل حتى يكسب الدنى رفعة ، والغامضَ القدرِ نباهة .

وعلى العكس ، يغض من شرف الشريف ، ويطأ من قدر ذى العزة

المنيف ، ويظلم الفضل ويتهضمه ، ويخدش وجه الجمال ويتخونه[1] ، ويعطى الشبهة سلطان الحجة ، ويرد الحجة إلى صيغة الشبهة ، ويصنع من المادة الخسيسة بدْعاً يغلو فى القيمة ويعلو ، ويفعل من قلب الجواهر ، وتبديل الطبائع ، ما ترى به الكيمياء وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وضحت ، إلا أنها روحانية تتلبس بالأوهام والأفهام ، دون الأجسام والأجرام ، وكذلك قال[2] :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

وقال :

عليم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يقمع الحق باطله

وقال ابن سكرة فأحسن :

والشعر نار بلا دخان وللقوافى رقى لطيفة
لو هُجى المسك وهو أهل لكل مدح لصار جيفة
كم من معتل فى المحل سام هوت به أحرف خفيفة

وقد عرفت ما كان سبيله من أهى القبيلة الذين كانوا يعيرون بأنف الناقة حين قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فنفى العار ، ووضح الافتخار ، وجعل ما كان نقصاً وشيناً ، فضلا وزينا ، وما كان لقباً ونبزاً يسوء السمع ، شرفاً وعزاً يرفع الطرف ، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ولطف القريحة الصناع ، والذهن الناقد فى دقائق

(١) يتخونه بتشديد الواو يتنقصه قال ابن دريد * لم يتخون جسمه مس الضوى *
(٢) فى النسخة الأخرى : ولذلك قال :

الإحسان والإبداع ، كما كساهم الجمال من حيث كانوا عروا منه ، وأثبتهم في نصاب الفضل من حيث نفوا عنه ، ولرب أنف سليم قد وضع الشعر عليه حده فجدعه ، واسم رفيع قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعه ، كما قال :

يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد ولكن أنت سعد الذابح

ومن العجب في ذلك قول القائل في كثير بن أحمد :

لو علم الله فيه خيراً ما قال « لاخير في كثير »

فانظر من أي مدخل دخل عليه ، وكيف بالهوينا هدى البلاء إليه ، وكثير هذا هو الذي يقول فيه الصاحب : « ومثل كثير في الزمان قليل » فقد صار الاسم الواحد وسيلة إلى الهدم والبناء ، والمدح والهجاء ، وذريعة إلى التزيين والتهجين .

ومن عجيب ما اتفق في هذا الباب قول ابن المعتز في ذم القمر ، واجتراؤه بقدرة البيان على تقبيحه وهو الأصل والمثل ، وعليه الاعتماد والمعول في تحسين كل حسن ، وتزيين كل مزين ، وأول ما يقع في النفوس ، إذ أريد المبالغة في الوصف بالجمال ، والبلوغ فيه غاية الكمال ، فيقال : وجه كأنه القمر وكأنه فلقة قمر[1] . ذلك لثقته بأن هذا القول إذا شاء سحر ، وقلب الصور ، وأنه لا يهاب أن يخرق الاجماع ، ويسحر العقول ويقتسر الطباع ، وهو :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مثكلي طيب الكرى ومُنَغِّصي

أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلخ بهقاً كلون الأبرص

(١) الفلقة بالفتح نصف الشيء المفلوق كالنواة وبالكسر القطعة من الشيء .

وقد علم أنه ليس فى الدنيا مثله أخزى وأشنع ، ونكال أبلغ وأفظع ، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكاراً ، وتنزعج القلوب استفظاعاً له واستنكاراً ، ويُغرى الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، من أن يصلب المقتول ويشبح فى الجذع[1] . ثم قد ترى مرثية أبى الحسن لابن بقية حين صلب وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها ، وتأوّل فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى منه العجب[2] :

علو فى الحياة وفى المات ... بحق أنت إحدى المعجزات[3]

كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات

كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد المات

أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات

لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات

وتشعل عندك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة[4]

ركبت مطية من قبلُ زيدٌ ... علاها فى السنين الماضيات

وتلك فضيلة فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العداة

أسأت إلى الحوادث فاستثارت ... فأنت قتيل ثأر النائبات

(١) أى يثبت عليه منتصباً ممدود اليدين من شبح الجلد ونحوه إذا مد بين أعواد مشدوداً بها لئلا يتقلص

(٢) يفنى منه العجب

(٣) ويروى الشطر * لحق أنت إحدى المعجزات *

(٤) يعنى نيران الضيافة المعهودة عند أجواد العرب كانوا يوقدونها فى البادية ليلاً ليهتدى بها الضيفان

ولو أنى قدرت على قيامى بفرضك والحقوق والواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلال النائحات
ولكنى أصبِّر عنك نفسى مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

ومما هو من هذا الباب إلا أنه مع ذلك احتجاج عقلى صحيح قول المتنبى .

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فحق هذا أن يكون عنوان هذا الجنس وفى صدر صحيفته ، وطرازا لديباجته ، لأنه دفع النقص وإبطال له ، من حيث يشهد العقل للحجة التى نطق بها بالصحة ، وذلك أن الصفات الشريفة شريفة بأنفسها وليس شرفها من حيث الموصوف . وكيف والأوصاف سبب التفاضل بين الموصوفات فكان الموصوف شريفا أو غير شريف من حيث الصفة ولم تكن الصفة شريفة أو خسيسة من حيث الموصوف . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يعترض على الصفات الشريفة بشىء إن كان نقصاً فهو فى خارج منها ، وفيما لا يرجع إليها أنفسها ولا حقيقتها ، وذلك الخارج ههنا هو كون الشخص على صورة دون صورة . وإذ كان كذلك كان الأمر ، فمقدار ضرر التأنيث إذا وجد فى الخلقة على الأوصاف الشريفة مقداره إذا وجد فى الاسم الموضوع للشىء الشريف ، لأنه فى أن لا تأثير له من طريق العقل فى تلك الأوصاف في الحالين على صورة واحدة ؛ لأن الفضائل التى بها فضل الرجل على المرأة لم تكن فضائل لأنها قارنت صورة التذكير وخلقته ولا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقة دون تلك ، بل

إنما أوجبته لأنفسها ومن حيث هى ، كما أن الشىء لم يكن شريفا أو غير شريف من حيث أنث اسمه أو ذكر ، بل يثبت الشرف وغير الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها ، لامن حيث أسماؤها ، لاستحالة أن يتعدى من لفظ هو صوت مسموع نقص أو فضل إلى ما جعل علامة له فاعرفه .

واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير هذا البيت والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لاأن يقال إن المعنى أن المرأة إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة كانت من حيث المعنى رجلا وأن عدت فى الظاهر امرأة ، لأجل أنه يفسد من وجهين أحدهما أنه قال : « ولا التذكير فخر للهلال » ومعلوم أنه لايريد أن يقول : ان الهلال وأن ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال ؟ هذا بين التناقض .

فصــــل

فى حدى الحقيقة والمجاز

واعلم أن كل واحد من وصفى المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به الفرد غير حده إذا كان موصوفاً به الجملة : و إنا نحدها فى المفرد : كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع — و إن شئت قلت : فى مواضعة — وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهى حقيقة . وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث فى قبيلة من العرب أو فى جميع العرب أو فى جميع الناس مثلا ،أو تحدث اليوم . ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمرو أو مرتجلة كغطفان . وكل كلمة استؤنف بها[1] على الجملة مواضعة أو ادُّعى الاستئناف فيها .

و إنما اشترطت هذا كله لأن وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث أن لها دلالة على الجملة لا من حيث هى عربية أو فارسية أو سابقة فى الوضع أو محدثة مولدة ، فمن حق الحد أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالة . ونظير هذا نظير أن تضع حداً للاسم والصفة فى أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير لغة العرب وجدته يجرى فيها جريانه فى العربية ، لأنك تحد من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة . ألا ترى أن حدك الخبر بأنه « ما احتمل الصدق والكذب » مما لا يخص لساناً دون لسان . ونظائر ذلك كثيرة وهو أحد ما غفل عنه الناس ودخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية ، وأن مسائله كلها مشبهة باللغة فى كونها اصطلاحاً يتوهم عليها النقل والتبديل . ولقد فحش غلطهم فيه ، وليس هذا موضع القول فى ذلك .

و إن أردت أن تمتحن هذا الحد فانظر إلى قولك « الأسـد » تريد به

---

(١) وفى نسخة الاستانة « لها »

السبع فإنك تراه يؤدى جميع شرائطه لأنك قد أردت به ما يعلم أنه وقع له في وضع واضع اللغة . وكذلك تعلم أنه غير مستند فى هذا الوقوع إلى شيء غير السبع أى لا يحتاج أن يتصور له أصل أداه إلى السبع من أجل التباس بينهما وملاحظة . وهذا الحكم إذا كانت الكلمة حادثة ولو وضعت اليوم متى كان وضعها كذلك . وكذلك الأعلام . وذلك أنى قلت : « ما وقعت له فى وضع واضع أو مواضعة » على التنكير ولم أقل فى وضع الواضع الذى ابتدأ اللغة أو فى المواضعة اللغوية فيتوهم أن الأعلام أو غيرها مما تأخر وضعه عن أصل اللغة يخرج عنه . ومعلوم أن الرجل يواضع قومه فى اسم ابنه فإذا سماه زيداً فحاله الآن فيه كحال واضع اللغة حين جعله مصدراً لزاد يزيد وسبق واضع اللغة فى وضعه للمصدر المعلوم لا يقدح فى اعتبارنا لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعاً باتاً ولا تستند حاله هذه إلى السابق من حاله بوجه من الوجوه .

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهى مجاز . وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز[1] بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز . ومعنى الملاحظة هو أنها تستند فى الجملة إلى غير هذا الذى تريده بها الآن إلا أن هذا الاستناد يقوى ويضعف . بيانه ما مضى من أنك إذا قلت : رأيت أسداً ، تريد رجلاً شبيهاً بالأسد لم يشتبه عليك الأمر فى حاجة الثانى إلى الأول إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذى أردته على التشبيه على حد المبالغة وإيهام أن معنى من الأسد

---

(١) تجوز بضمتين وتشديد الواو المكسورة فعل ماض مبنى للمفعول وهو من التجوز فى الشيء الترخص فيه وعد ما يتوهم فيه عدم الجواز جائزا ومنه تجوز فى الصلاة إذا خففها وتجوز فى أخذ الدراهم إذا جوزها ولم يردها ثم استعملوه فى المجاز من الكلام أو تجوز مضارع كتقول من جزت العقبة إذا قطعتها وجاوزتها .

حصل فيه إلا بعد أن تجعل كونه اسماً للسبع إزاء عينيك . فهذا استناد تعلمه ضرورة ، ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالا فتى عقل فرع من غير أصل ومشبه من غير مشبه به ؟ وكل ما طريقه التشبيه فهذا سبيله ، أعنى كل اسم جرى على الشيء للاستعارة فالإسناد فيه قائم ضرورة .

وأما ماعدا ذلك فلا يقوى استناده هذه القوة حتى لو حاول محاول أن ينكره أمكنه فى ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج إلى المحال ، وذلك كاليد للنعمة ، لو تكلف متكلف فزعم أنه وضع مستأنف أو فى حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه إلا برفق وباعتبار خفى وهو ما قدمت من أنا رأيناهم لا يوقعون هذه اللفظة على ما ليس بينه وبين هذه الجارحة التباس واختصاص . ودليل آخر وهو أن اليد لا تكاد تقع للنعمة إلا وفى الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها ، ولا تصلح حيث تراد النعمة مجردة من إضافة لها إلى المنعم أو تلويح به . بيان ذلك أن تقول اتسعت النعمة فى البلد ، ولا تقول اتسعت اليد فى البلد ، وتقول اقتنى نعمة ، ولا تقول اقتنى يداً . وأمثال ذلك تكثر إذا تأملت . وإنما يقال : جلت يده عندى ، وكثرت أياديه لدى . فتعلم أن الأصل صنائع يده وفوائده الصادرة عن يده وآثار يده ، ومحال أن تكون اليد اسماً للنعمة هكذا على الإطلاق ثم لا تقع موقع النعمة . لو جاز ذلك لجاز أن يكون المترجم للنعمة باسم لها فى لغة أخرى واضعاً اسمها من تلك اللغة فى مواضع لا تقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال .

ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل : إن له عليها أصبعاً ، أى أثراً حسناً وأنشدوا :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له   عليها إذا ما أجدب الناس أصبعا

وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قول الآخر : « صلب العصا بالضرب قد دمَّاها » أى جعلها كالدمى[1] فى الحسن . وكأن قوله « صلب العصا » وإن كان ضد قول الآخر « ضعيف العصا » فإنهما يرجعان إلى غرض واحد وهو حسن الرعية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها ، فأراد الأول بجعله ضعيف العصا أنه رفيق بها مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير ما لان من العصى . وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعى ، يزجرها عن المراعى التى لا تحمد ، ويتوخى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضاً أنه يمنعها عن التشرد والتبدد ، وأنها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزيمته تنساق وتستوثق فى الجهة التى يريدها من غير أن يجدد لها فى كل حال ضرباً وقال آخر : « صلب العصا جاف عن التغزل » فهذا لم يبين ما بينه الآخر — وأعود إلى الغرض .

فأنت الآن لا تشك أن الأصبع مشار بها إلى أصبع اليد وأن وقوعها بمعنى الأثر الحسن ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين ألا تراهم لا يقولون : رأيت أصابع الدار ، بمعنى آثار الدار ، وله أصبع حسنة وأصبع قبيحة ، على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك . وإنما أرادوا أن يقولوا له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالأصبع لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع وما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع

(١) الدمى جمع دمية (كغرفة) وهى الصورة من العاج ويضرب بها المثل فى الحسن .

واللطف فى رفعها ووضعها كما يعلم فى الخط والنقش وكل عمل دقيق وعلى ذلك قالوا فى تفسير قوله عز وجل (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) أى نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة ، فكما علمت ملاحظة الأصبع لأصلها وامتناع أن تكون مستأنفة بأنك رأيتها لا يصح استعمالها حيث يراد الأثر على الإطلاق[1] ولا يقصد الإشارة إلى حذق فى الصنعة وأن تجعل أثر الأصبع أصبعا كذلك ينبغى أن تعلم ذلك فى اليد لقيام هذه العلة فيها أعنى إن لم تجعل أثر اليد يداً لم تقع للنعمة مجردة من هذه الإشارات وحيث لا يتصور ذلك كقولنا اقتنى نعمة فاعرفه .

ويشبه هذا فى أن عبر عن أثر اليد والأصبع باسمهما وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم : عليه خاتم الملك وعليه طابع من الكرم والمحصول أثر الخاتم والطابع قال :

وقلن حرام قد أحل ربنا   وتترك أموال عليها الخواتم

وكذا قول الآخر :

إذا فضت خواتمها وفكت   يقال لها دم الودج الذبيح[2]

وأما تقدير الشيخ أبى على فى هذين البيتين حذف المضاف وتأويله على معنى « وتترك أموال عليها نقش الخواتم » « وإذا فض ختم خواتمها » فبيان لما يقتضيه الكلام فى أصله دون أن يكون الأمر على خلاف ماذكرت من جعل أثر الخاتم خاتما . وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصة به وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه لم تشك فى أن الأمر على ما أشرت لك إليه ويدل على أن المضاف قد وقع فى المنسأة وصار كالشريعة المنسوخة تأنيث الفعل فى قوله

(١) قوله بأنك متعلق بعلمت

(٢) الكلام فى الخمرة .

« إذا فضت خواتما » ولو كان حكمه باقيا لذكرت الفعل كما تذكره مع الإظهار[1] ولاستقصاء هذا موضع آخر .

وينظر إلى هذا المكان قولهم « ضربته سوطا » لأنهم عبروا عن الضربة التى هى واقعة بالسوط باسمه وجعلوا أثر السوط سوطا ، ويعلم على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم إن المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام فى أصله وأن ذلك قد نسى ونسخ وجعل كأن لم يكن فاعرفه .

وأما إذا أريد باليد القدرة فهى إذن أحن إلى موضعها الذى بدئت منه[2] واضبث بأصلها[3] لأنك لاتكاد تجدها تراد معها القدرة إلا والكلام مثل صريح ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها أو هناك تلويح بالمثل ، فمن الصريح قولهم فلان طويل اليد يراد فضل القدرة ، فأنت لو وضعت القدرة ههنا فى موضع اليد أحلت كما أنك لو حاولت فى قول النبى صلى الله عليه وسلم — وقد قالت له نساؤه صلى الله عليه وسلم : أيتنا أسرع لحاقا بك يارسول الله ؟ فقال « أطولكن يدا » يريد السخاء والجود وبسط اليد بالبذل ، إن تضع موضع اليد شيئا مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول ، وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك إلى هذه . وطلبه من اليد وحدها طلب الشىء على غير وجهه .

ومن الظاهر فى كون الشبه مأخوذاً مابين اليد وغيرها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) المعنى على أنهم

(١) يريد إظهار المضاف المحذوف الذى هو نقش .

(٢) فى النسخة الأخرى « أجن » بالجيم بدل احن .

(٣) اضبث تفضيل من ضبث بالشىء (كضرب) إذا قبض عليه قبضاً شديداً .

أمروا باتباع الأمر فلما كان المتقدم بين يدى الرجل خارجا عن صفة المتابع له ضرب له جملة هذا الكلام مثلا للاتباع فى الأمر ، فصار النهى عن التقدم متعلقا باليد نهيا عن ترك الاتباع . فهذا مما لا يخفى على ذى عقل أنه لا تكون فيه اليد بانفرارها عبارة عن شيء كما يتوهم أنها عبارة عن النعمة ومتناولة لها كالوضع المستأنف حتى كأن لو لم تكن قط اسم جارحة وهكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم » المعنى وإن كان على قولك وهم عون على من سواهم ، فلا تقول إن اليد بمعنى العون حقيقة بل المعنى أن مثلهم مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة فى التصرف كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين ، لأن كلة التوحيد جامعة لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة ، فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه بأن اليد على انفرادها لا تقع على شيء فيتوهم لها نقل من معنى إلى معنى على حد وضع الاسم واستئنافه .

وأما ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين فكقوله تعالى : (والسموات مطويات بيمينه) تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة ويصلون إليه قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين[1]

---

(١) قبل البيت :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

كما فعل أبو العباس فى الكامل فإنه أنشد البيت ثم قال قال أصحاب المعانى معناه بالقوة ، وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقصد إلى نفى الجارحة بسرعة ، خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه ، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ، ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التى منها يحصل على القدرة والقوة ، وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل ، وكما أنا نعلم فى صدر هذه الآية وهو قوله عز وجل (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) أن محصول المعنى على القدرة ثم لا نستجيز أن نجعل القبضة اسماً للقدرة بل نصير إلى القدرة من طريق التأويل والمثل ، فنقول إن المعنى والله أعلم أن مثل الأرض فى تصرفها تحت أمر الله وقدرته وأنه لا يشذ شىء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشىء يكون فى قبضة الآخذ له مناو الجامع يده عليه — كذلك حقنا أن نسلك بقوله « مطويات بيمينه » هذا المسلك فكان المعنى والله أعلم انه عز وجل يخلق فيها صفة الطى حتى ترى كالكتاب المطوى بيمين الواحد منكم ، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم المثل . وإذا كنت تقول « الأمر كله لله » فتعلم أنه على سبيل أن لا سلطان لاحد دونه ولا استبداد وكذلك إذا قلت للمخلوق « الأمر بيدك » أردت المثل وأن الأمر كالشىء يحصل فى يده من حيث لا يمتنع عليه — فما معنى التوقف فى أن اليمين مثل وليست باسم للقدرة ، وكاللفة المستأنفة ؟ ومن أين يتصور ذلك وأنت لا تراها تصلح حيث لا وجه للمثل والتشبيه ؟ فلا يقال : هو عظيم اليمين بمعنى عظيم القدرة ، وقد عرفت يمينك على هذا ، كما تقول عرفت قدرتك ، وهكذا شأن البيت ، إذا حسنت النظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل

ولم تأخذ مجموع المعنى من مجموع التلقى واليمين على حسد قولهم « تقبله بكلتا اليدين » وكقوله :

ولكن تلقت باليدين ضمانتى وحل بفلج والقنافذ عودى(١)

وقبل هذا البيت :

لعمرك ماملت ثواء ثويها دليجة إذ ألقى مراسى مقعد(٢)

وهو يشكوك إلى طبع الشعر(٣) ورأيت المعنى يتألم ويتظلم ، وإن أردت أن تختبر ذلك فقل :

إذا ما راية رفعت لمجد تناولها عرابة باليمين

ثم انظر هل تجد ما كنت تجد إن كنت ممن يعرف طبع الشعر ، ويفرق بين التفه الذى لا يكون له طعم ، وبين الحلو اللذيذ ؟ . ومما يبين ذلك من جهة العبارة أن الشعر كما تعلم لمدح الرجل بالجود والسخاء لأنه سأل الشماخ عما أقدمه فقال : جئت لامتار . فأوقر رواحله تمراً وبراً وأتحفه بغير ذلك .

وإذا كان كذلك كان المجد الذى تطاول له ومد إليه يده من المجد الذى أراده أبو تمام بقوله :

توجع أن رأت جسمى نحيفا كأن المجد يدرك بالصراع

ولو كان فى ذكر البأس والبطش وحيث تراد القوة والشدة لكان حمل اليمين على صريح القوة أشبه ، وبأن يقع منه فى القلب معنى يتماسك أجدر ، فإن قال أراد تلقاها بجد وقوة رغبة ، قيل فينبغى أن يضع اليمين فى مثل هذه

(١) الضمانة المرض كالزمانة وفلج والقنافذ موضعان

(٢) الثواء الإقامة والثوى (بوزن فعيل) الضيف والمراسى جمع مرساة لانجر السفينة ، ويقال ألقى مراسيه أى أقام ، والمقعد بالضم من يصاب بداء القعاد وهو داء يقعد من يصاب به .

(٣) الجملة حال من ضمير وجدته ، وقوله « ورأيت » معطوف على وجدته

المواضع[١] ومن التزم ذلك فالسكوت عنه أحسن وما زال الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حثه على الأمر وأن يأخذ فيه بالجد « أخرج يدك اليمنى » وذاك أنها أشرف اليدين وأقواها والتى لا غناء للأخرى دونها ، فلا غنى إنسان بشىء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله . ومتى ما قصدوا جعل الشىء فى جهة العناية جعلوه فى اليد اليمنى ، وعلى ذلك قول البحترى :

وإن يدى وقد أسندت أمرى إليه اليوم فى يدك اليمين

« إليه » يعنى إلى يونس بن بغا وكان حظياً عند الممدوح وهو المعتز بالله ولو أن قائلا قال :

إذا ما راية رفعت لمجد ومكرمة مددت لها اليمينا

لم تره عادلا باليمين عن الموضع الذى وضعها الشماخ فيه . ولو أن هذا التأويل منهم كان فى قول سليمان بن قتة العدوى :

بنى تيم بن مرة إن ربى كفانى أمركم وكفا كمونى
فحيوا ما بدا لكم فإنى شديد الفرس للضغن الحرون[٢]
يعانى فقدكم أسد مدل شديد الأسر يضبث باليمين[٣]

لكانوا أعذر فيه ، لأن المدح مدح بالقوة والشدة . وعلى ذلك فإن اعتبار الأصل الذى قدمت وهو أنك لا ترى اليمين حيث لا معنى لليد يقف بنا

---

(١) يريد بهذا الوضع أن يستعملها فى هذا المعنى استعمالا حقيقيا لا مثلا .

(٢) الفرس مصدر فرس الأسد فريسته (كضرب) إذا دق عنقها ثم توسع فيه فاستعمل فى القتل مطلقا . والضغن (ككتف) المنطوى على الحقد . والحرون الصعب لا ينقاد .

(٣) المدل المجترئ والأسر مصدر أسر (كضرب) أى قبض وأخذ وهو فيما يصنعه رجل بآخر فلا يقال أسر الشىء وشد الله أسره أحكم ربط أعضائه بالاعصاب . ويضبث يقبض بكفه بشدة وتقدم .

على الظاهر كأنه قال : إذا ضبث ضبث باليمين .

ومما يبين موضع بيت الشماخ إذا اعتبرت[١] به قول الخنساء :

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يداً

فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعداً

إذا رجعت إلى نفسك لم تجد فرقاً بين أن يمد إلى المجد يداً وبين أن يتلقى رايته باليمين ، وهذا إن أردت الحق أبين من أن تحتاج فيه إلى فضل قول إلا أن هذا الضرب من الغلط كالداء الدوى حقه أن يستقصى فى الكى عليه والعلاج منه ، فجنايته على معانى ما شرف من الكلام عظيمة ، وهو مادة المتكلفين فى التأويلات البعيدة والأقوال الشنيعة .

ومثل من توقف فى التفات هذه الأسامى إلى معانيها الأول وظن أنها مقطوعة عنها قطعاً يرفع الصلة بينها وبين ما جازت إليه مثل من إذا نظر فى قوله تعالى (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) فرأى المعنى على الفهم والعقل أخذه ساذجاً[٢] وقبله غفلا ، وقال القلب ههنا بمعنى العقل ، وترك أن يأخذه من جهته ، ويدخل إلى المعنى من طريق المثل ، فيقول : انه حين لم ينتفع بقلبه ، ولم يفهم بعد أن كان القلب للفهم جعل كأنه قد عدم القلب جملة وخلع من صدره خلعا ، كما جعل الذى لا يعى الحكمة ولا يعمل الفكر فيما تدركه عينه وتسمعه أذنه كأنه عادم للسمع والبصر ، وداخل فى العمى والصمم ويذهب[٣] عن أن الرجل إذا قال : قد غاب عنى قلبى ، وليس يحضرنى قلبى ، فإنه يريد أن يخيل إلى السامع أنه قد فقد قلبه دون أن يقول

(١) أى اعتبرت بذلك الذى يبين موضع بيت الشماخ (ش)

(٢) وجملة أخذه جواب : إذا نظر . .

(٣) ويذهب معطوف على قوله قال القلب ههنا بمعنى العقل الخ (ش) .

غاب عنى علمى وعزب عقل ، وإن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك كما أنه إذا قال : لم أكن ههنا ، يريد شدة غفلته عن الشىء ، فهو يضع كلامه على تخييل أنه كان غاب هكذا بجملته وبذاته ؛ دون أن يريد الرجل الاخبار بأن علمه لم يكن هناك .

وغرضى بهذا أن أعلمك أن من عدل عن الطريقة فى الخفى ، أفضى به الأمر إلى أن ينكر الجلى ، وصار من دقيق الخطأ إلى الجليل ، ومن بعض الانحراف إلى ترك السبيل ، والذى جلب التخليط والخبط الذى تراه فى هذا الفن ، أن الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشىء وحده ، وبين أن يؤخـذ ما بين شيئين ، وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفتك فى الفرق بين الاستعاره والتمثيل ، من أن من القول ما تدخل فيه الشبهة على الانسان من حيث لا يعلم ، وهو[1] من السهل الممتنع ، يريك أن قد انقاد وبه اباء ، ويوهمك أن قد أثرت فيه رياضتك وبه بقية شماس .

ومن خاصيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق والمخالف ، والمعترف به والمنـكر له ، فانك ترى الرجل يوافقك فى الشىء منه ويقر بأنه مثل حتى إذا صار إلى نظير له خلط إما فى أصل المعنى وإما فى العبارة ، فالتخليط فى المعنى كما مضى من تأول اليمين على القوة ، وكذكرهم أن القلب فى الآية بمعنى العقل ثم عدهم ذلك وجهاً ثانيا . والتخليط فى العبارة كنحو ماذكره بعضهم فى قوله :

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

فإنه استشهد به فى تأويل خبر جاء فى عظم الثواب على الزكاة إذا كانت

(١) أى الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشىء الواحد أو ما بين شيئين .

من الطيب ثم قال : الكف هٰهنا بمعنى السلطان والملك والقدرة . قال : وقيل الكف هٰهنا بمعنى النعمة . والخبر هو ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب جعل الله ذلك فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه[1] حتى يبلغ بالتمرة مثل احد » ما يظن بمن نظر فى العربية يوماً أن يتوهم أن الكف تكون على هذا الإطلاق وعلى الإنفراد بمعنى السلطان والقدرة والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة ، إلا أن من سوء العبارة ما أثر التقصير فيه أظهر ، وضرره على الكلام أبين ، فاستقصاء هذا الباب لا يتم حتى يفرد بكلام والوجه الرجوع إلى الغرض . ويجب أن يعلم قبل ذلك أن خلاف من خالف فى اليد واليمين وسائر ما هو مجاز لا من طريق التشبيه الصريح أو التمثيل لا يقدح فيما قدمت من حد الحقيقة والمجاز ، لأنه لا يخرج فى خلافه عن واحد من الاعتبارين ، فمتى جعل اليمين على انفرادها تفيد القوة فقد جعلها حقيقة ، وأغناها عن أن تستند فى دلالتها إلى شىء ، وإن اعترف بضرب من المجاز إلى الحاجة والنظر إليها فقد وافق فى أنها مجاز ، وكذا القياس فى الباب كله فاعرفه .

(١) الفلو بالفتح وتشديد الواو كعدو وبالكسر المهر إذا فصل عن أمه وقال بعضهم المهر واجحش إذا فطما أو بلغ سنة وجمعه أفلاء كأعداء . ومعنى بلوغ التمرة مثل أحد أن ثوابها يكون فى عظمه كذلك الجبل .

فصـــل

« فى المجاز العقلى والمجاز اللغوى والفرق بينهما »

والذى ينبغى أن يذكر الآن حد الكلمة فى الحقيقة والمجاز إلا أنك تحتاج أن تعرف فى صدر القول عليها ومقدمته أصلا وهو المعنى الذى من أجله اختصت الفائدة بالجملة ولم تجز حصولها بالكلمة الواحدة كالاسم الواحد والفعل من غير اسم يضم إليه . والعلة فى ذلك أن مدار الفائدة فى الحقيقة على الإثبات والنفى ، ألا ترى أن الخبر أول معانى الكلام وأقدمها والذى تستند سائر المعانى إليه وتترتب عليه وهو ينقسم إلى هذين الحكمين . وإذا ثبت ذلك فإن الإثبات يقتضى مثبتاً ومثبتاً له ونحو أنك إذا قلت . ضرب زيد أو زيد ضارب فقد أثبت الضرب فعلا أو وصفاً . وكذلك النفى يقتضى منفياً ومنفياً عنه فإذا قلت : ما ضرب زيد ، مازيد ضارب . فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلا له . فلما كان الأمر كذلك احتيج إلى شيئين يتعلق الإثبات والنفى بهما فيكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتا له ، وكذلك يكون أحدهما منفياً والآخر منفياً عنه ، فكان ذانك الشيئان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل ، وقيل المثبت والمنفى مسند وحديث وللمثبت له والمنفى عنه مسند إليه ومحدّث عنه . وإذا رمت الفائدة أن تحصل لك من الاسم الواحد أو الفعل وحده صرت كأنك تطلب أن يكون الشىء الواحد مثبتاً ومثبتاً له ومنفياً ومنفياً عنه وذلك محال .

فقد حصل من هذا أن لكل واحد من حكمى الإثبات والنفى حاجة إلى تقييده مرتين ، وتعلقه بشيئين ، تفسير ذلك أنك إذا قلت : ضرب

زيد ، فقد قصدت إثبات الضرب لزيد فقولك « إثبات الضرب » تقييد الاثبات بإضافته إلى الضرب ثم لا يكفيك هذا التقييد حتى تقيده مرة أخرى فتقول : إثبات الضرب لزيد . فقولك « لزيد » تقييد ثان وفى حكم إضافة ثانية . وكما لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مطلق غير مقيد بوجه أعنى أن يكون إثباتاً ولا مثبت له ولا شيء يقصد بذلك الإثبات إليه لا صفة ولا حكم ولا موهوم بوجه من الوجوه ، كذلك لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مقيد تقييداً واحداً نحو إثبات شيء فقط دون أن تقول : إثبات شيء لشيء . كما مضى من إثبات الضرب لزيد . والنفى بهذه المنزلة فلا يتصور نفى مطلق ولا نفى شيء فقط ، بل يحتاج إلى قيدين كقولك نفى شيء عن شيء .

فهذه هى القضية المبرمة الثابتة التى تزول الراسيات ولا تزول . ولا تنظر إلى قولهم : فلان يثبت كذا أى يدعى أنه موجود وينفى كذا أى يقضى بعدمه كقولنا : أبو الحسن يثبت مثال جحدب (بفتح الدال) وصاحب الكتاب ينفيه لأن الذى قصدته هو الإثبات والنفى فى الكلام .

ثم اعلم أن فى الإثبات والنفى بعد هذين التقييدين حكما آخر هو كتقييد ثالث وذلك أن للاثبات جهة وكذلك النفى ، ومعنى ذلك أنك تثبت الشيء للشيء مرة من جهة وأخرى من جهة غير تلك الأولى . وتفسيره أنك تقول ضرب زيد فتثبت الضرب فعلا لزيد . وتقول مرض زيد فتثبت المرض وصفا له ، وهكذا سائر ما كان من أفعال الغرائز والطباع وذلك فى الجملة على مالا يوصف الإنسان بالقدرة عليه نحو كرُم وظرُف وحسن وقبح وطال وقصر . وقد يتصور فى الشيء الواحد أن تثبته من الجهتين

جميعاً وذلك فى كل فعل دل على معنى يفعله الإنسان فى نفسه نحو قام وقعد . إذا قلت قام زيد ، فقد أثبت القيام فعلا له من حيث تقول فعل القيام وأمرته بأن يفعل القيام ، وأثبته أيضاً وصفاً له من حيث إن تلك الهيئة موجودة فيه وهو فى اكتسابه لها كالشخص المنتصب والشجرة القائمة على ساقها التى توصف بالقيام لا من حيث كانت فاعلة له بل من حيث كان وصفاً موجوداً فيها .

وإذ قد عرفت هذا الأصل فهہنا أصل آخر يدخل فى غرضنا وهو أن الأفعال على ضربين : متعد وغير متعد ، فالمتعدى على ضربين ضرب يتعدى إلى شىء هو مفعول به كقولك : ضربت زيداً « زيدا » مفعول به لأنك فعلت به الضرب ولم يفعله بنفسه و « ضرب » يتعدى إلى شىء هو مفعول على الإطلاق وهو فى الحقيقة كفعل . وكل ما كان مثله فى كونه عاماً غير مشتق من معنى خاص كصنع وعمل وأوجد وأنشأ ، ومعنى قولى « من معنى خاص » أنه ليس كضرب الذى هو مشتق من الضرب أو أعلم الذى هو مأخوذ من العلم . وهكذا كل ما كان له مصدر ذلك المصدر فى حكم جنس من المعانى فهذا الضرب[1] إذا أسند إلى شىء كان المنصوب له مفعول لذلك الشىء على الإطلاق كقولك فعل زيد القيام . فالقيام مفعول فى نفسه وليس بمفعول به . وأحق من ذلك أن تقول : خلق الله الأناسى ، وأنشأ العالم ، وخلق الموت والحياة . المنصوب فى هذا كله مفعول مطلق[2] لا تقييد فيه إذ من المحال أن يكون معنى « خلق العالم »

(١) يريد بهذا الضرب نحو فعل وصنع الخ

(٢) يريد بمطلق معناه اللغوى فلا يشكل على المقيدين بظواهر الألفاظ فيحسبون أنه المفعول المطلق الاصطلاحى ثم يتكلفون الأجوبة .

فعل الخلق به كما تقول فى « ضربت زيداً » فعلت الضرب بزيد ، لأن الخلق من خلق كالفعل من فعل فلو جاز أن يكون المخلوق كالمضروب لجاز أن يكون المفعول نفسه كذلك حتى يكون معنى فعل القيام فعل شيئاً بالقيام وذلك من شنيع المحال .

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الإثبات فى جميع هذا الضرب أعنى فيما منصوبه مفعول وليس مفعولا به يتعلق بنفس المفعول . فإذا قلت : فعل زيد الضرب ، كنت أثبت الضرب فعلا لزيد وكذلك تثبت العالم فى قولك « خلق الله العالم » خلقا لله تعالى ولا يصح فى شىء من هذا الباب أن تثبت المفعول وصفا[1] البتة وتوهم ذلك خطأ عظيم وجهل نعوذ بالله منه .

وأما الضرب الآخر وهو الذى منصوبه مفعول به فإنك تثبت فيه المعنى الذى اشتق منه فعل فعلا للشىء كإثباتك الضرب لنفسك فى قولك : ضربت زيداً ، فلا يتصور أن يلحق الإثبات مفعوله لأنه إذا كان مفعولا به ولم يكن فعلا لك استحال أن تثبته فعلا وإثباته وصفاً أبعد فى الإحالة فأما قولنا فى نحو : ضربت زيداً أنك أثبت زيداً مضروباً فإن ذلك يرجع إلى أنك تثبت الضرب واقعاً به منك ، فاما أن تثبت ذات زيد لك فلا يتصور ، لأن الإثبات معنى لا بد له من جهة ولا جهة ههنا . وهكذا إذا قلت أحيا الله زيداً كنت فى هذا الكلام مثبتاً الحياة فعلا لله تعالى فى زيد . فأما ذات زيد فلم تثبتها فعلا لله بهذا الكلام وإنما يتأتى لك ذلك بكلام آخر نحو أن تقول : خلق الله زيداً وأوجده وما شاكله مما لا يشتق

(١) أى كما أثبته وصفا فى فعل القيام . وقوله « من هذا الباب » أى باب خلق الله الأناسى الخ .

من معنى خاص كالحياة والموت ونحوهما من المعانى .

وإذ قد تقررت هذه المسائل فينبغى أن تعلم أن من حقك إذا أردت أن تقضى فى الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين :

(إحداهما) أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو فى حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟ .

(والثانية) أن تنظر إلى المعنى المثبت أعنى ما وقع عليه الإثبات كالحياة فى قولك أحيا الله زيداً ، والشيب فى قولك أشاب الله رأسى أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنها ؟ وإذا مثل لك دخول المجاز على الجملة من الطريقين عرفت إثباتها على الحقيقة منها .

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت قوله :

وشيب أيام الفراق مفارقى وأنشزن نفسى فوق حيث تكون

وقوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشى

المجاز واقع فى اثبات الشيب فعلا للأيام ولكر الليالى وهو الذى أزيل عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه ، لأن من حق هذا الإثبات أعنى إثبات الشيب فعلا أن لا يكون إلا مع أسماء الله تعالى فليس يصح وجود الشيب فعلا لغير القديم سبحانه ، وقد وجه فى البيتين كما ترى إلى الأيام والليالى ، وذلك مالا يثبت له فعل بوجه لا الشيب ولا غير الشيب . وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى . وهكذا إذا قلت : سرنى الخبر وسرنى لقاؤك . فالمجاز فى الإثبات دون المثبت لان المثبت هو السرور وهو حاصل على حقيقته .

ومثال ما دخل المجاز فى مثبته دون إثباته قوله عز وجل : (أو من

كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس) وذاك أن المعنى والله أعلم على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب على حسد قوله : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) فالمجاز فى المثبت وهو الحياة فأما الإثبات فواقع على حقيقته لأنه ينصرف إلى أن الهدى والعلم والحكمة فصل من الله وكائن من عنده ، ومن الواضح فى ذلك قوله عز وجل (فأحيينا به الأرض بعد موتها) وقوله (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها فكان ذلك مجازاً فى المثبت من حيث جعل ماليس بحياة حياة على التشبيه فأما نفس الإثبات فمحض الحقيقة لأنه إثبات لما ضرب الحياة مثلا له فعلا لله تعالى ولاحقيقة أحق من ذلك .

وقد يتصور أن يدخل المجاز للجملة من الطريقين جميعا وذلك أن يشبه معنى بمعنى وصفة بصفة فيستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلا لما لايصح الفعل منه أوفعل تلك الصفة فيكون أيضاً فى كل واحد من الإثبات والمثبت مجاز كقول الرجل لصاحبه . أحيتنى رؤيتك . يريد آنستنى وسرتنى ونحوه فقد جعل الأنس والمسرة الحاصلة بالرؤية حياة أولا ثم جعل الرؤية فاعلة لتلك الحياة . وشبيه به قول المتنبي :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل مايحيي التبسم والجدا

جعل الزيادة والوفور حياة فى المال وتفريقه فى العطاء قتلا ثم أثبت الحياة فعلا للصوارم والقتل فعلا للتبسم مع العلم بأن الفعل لايصح منهما ونوع منه « أهلك الناس الدينار والدرهم » جعل الفتنة هلا كا على المجاز ثم أثبت الهلاك فعلا للدينار والدرهم وليسا مما يفعلان فاعرفه .

وإذ قد تبين لك المنهاج فى الفرق بين دخول المجاز فى الإثبات وبين دخوله فى المثبت وبين أن ينتظمهما وعرفت الصورة فى الجميع فاعلم أنه إذا وقع فى الإثبات فهو متلقى من العقل فإذا عرض فى المثبت فهو متلقى من اللغة فإن طلبت الحجة على صحة هذه الدعوى فإن فيما قدمت من القول ما بينها لك ويختصر لك الطريق إلى معرفتها وذلك أن الإثبات إذا كان من شرطه أن يقيد مرتين كقولك إثبات شىء لشىء ولزم من ذلك أن لا يحصل إلا بالجملة التى هى تأليف بين حديث ومحدث عنه ومسند ومسند إليه علمت أن مأخذه العقل وأنه القاضى فيه دون اللغة لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفى وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وأن المرض صفة له أو ليس بصفة له شىء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب أو اعتراف أو إنكار وتصحيح أو إفساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة فى ذلك بسبيل ولا منه فى قليل ولا كثير .

وإذا كان كذلك كان كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض وليس للغة فيه حظ فلا تحلى ولا تمر والعربى فيه كالعجمى والعجمى كالتركى لأن قضايا العقول هن القواعد والأسس التى يبنى غيرها عليها ، والأصول التى يرد ماسواها إليها .

فأما إذا كان المجاز فى المثبت كنحو قوله تعالى : (فأحيينا به الأرض) فإنما كان مأخذه اللغة لأجل أن طريقه المجاز بأن أجرى اسم الحياة على ماليس بحياة تشبيهاً وتمثيلاً ثم اشتق منها وهى فى هذا التقدير الفعل الذى

هو « أحيا » واللغة هي التي اقتضت أن تكون الحياة اسماً للصفة التي هي ضد الموت فإذا تجوز في الاسم فأجرى على غيرها فالحديث مع اللغة فاعرفه .

إن قال قائل في أصل الكلام الذي وضعته على أن المجاز يقع تارة في الإثبات وتارة في المثبت وأنه إذا وقع في الإثبات فهو طالع عليك من جهة العقل وبادلك من أفقه ، وإذا عرض في المثبت فهو آتيك من ناحية اللغة : ما قولكم إن سويت بين المسألتين وادعيت أن المجاز بينهما جميعاً في المثبت وأنزل هكذا فأقول الفعل الذي هو مصدر فعل قد وضع في اللغة للتأثير في وجود الحادث كما أن الحياة موضوعة للصفة المعلومة فإذا قيل « فعل الربيع النور » جعل تعلق النور في الوجود بالربيع من طريق السبب والعادة فعلا ، كما تجعل خضرة الأرض وبهجتها حياة والعلم في قلب المؤمن نوراً وحياة . وإذا كان كذلك كان المجاز في أن جعل ما ليس بفعل فعلا وأطلق اسم الفعل على غير ما وضع له في اللغة كما جعل ما ليس بحياة حياة وأجرى اسمها عليه وإذا كان ذلك مجازاً لغوياً فينبغي أن يكون هذا كذلك .

فالجواب أن الذي يدفع هذه الشبهة أن تنظر إلى مدخل المجاز في المسألتين فإن كان مدخلهما[1] من جانب واحد فالأمر كما ظننت وإن لم يكن كذلك استبان لك الخطأ في ظنك . والذي يبين اختلاف دخوله فيهما أنك تحصل على المجاز في مسألة الفعل بالإضافة لا بنفس الاسم فلو قلت اثبت النور فعلا لم تقع في مجاز لأنه فعل لله تعالى وإنما تصير إلى المجاز إذا قلت اثبت النور فعلا للربيع . وأما في مسألة الحياة فإنك تحصل على المجاز بإطلاق الاسم فحسب من غير إضافة

(١) في النسخة الأخرى « فإذا كان يدخلهما »

وذلك قولك : اثبت بهجة الأرض حياة أو جعلها حياة . أفلا ترى المجاز قد ظهر لك فى الحياة من غير أن أضفتها إلى شيء أى من غير أن قلت لكذا . وهكذا إذا عبرت بالنفى تقول فى مسألة الفعل جعل ما ليس بفعل للربيع فعلا له . وتقول فى هذه : جعل ما ليس بحياة حياة وتسكت ولا تحتاج أن تقول : جعلت ما ليس بحياة للأرض حياة للأرض بل لا معنى لهذا الكلام لأنه يقتضى أنك أضفت حياة حقيقة إلى الأرض وجعلتها مثلا تحيا بحياة غيرها وذلك بين الإحالة . ومن حق المسائل الدقيقة أن تُتأمل فيها العبارات التى تجرى بين السائل والمجيب وتحقق فإن ذلك يكشف عن الغرض ويبين جهة الغلط . وقولك « جعل ما ليس بفعل فعلا » احتذاءاً لقولنا : جعل ما ليس بحياة حياة — لا يصح لأن معنى هذه العبارة أن يراد بالاسم غير معناه لشبه يدعى أو شيء كالشبه ، لا أن يعطل الاسم من الفائدة فيراد بها ما ليس بمعقول فنحن إذا تجوزنا فى الحياة فأردنا بها العلم فقد أودعنا الاسم معنى وأردنا به صفة معقولة كالحياة نفسها ولا يمكنك أن تشير فى قولك « فعل الربيع النور » إلى معنى تزعم أن لفظ الفعل ينقل عن معناه إليه فيراد به حتى يكون ذلك المعنى معقولا منه كما عقل التأثير فى الوجود وحتى تقول لم أرد به التأثير فى الوجود ولكن أردت المعنى الفلانى الذى هو شبيه به أو كالشبيه أو ليس بشبيه مثلا ، إلا أنه معنى خلف معنى آخر على الاسم إذ ليس وجود النور بعقب المطر أو فى زمان دون زمان ، فما يعطيك معنى فى المطر أو فى الزمان فتؤديه بلفظ الفعل فليس إلا أن تقول لما كان النور لا يوجد إلا بوجود الربيع توهم للربيع تأثير فى وجوده فاثبت له ذلك اثبات الحكم أو الوصف لما ليس له قضية عقلية لا تعلق لها فى صحة وفساد باللغة فاعرفه .

ومما يجب ضبطه فى هذا الباب أن كل حكم يجب فى العقل وجوبا حتى لا يجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللغــة وجعله مشروطاً فيها محال لأن اللغــة تجرى مجرى العــلامات والسمات ولا معنى للعلامة والســمة حتى يحتمل الشىء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخــلافه ، فإنمـا كانت « ما » مثلا علماً للنفى لأن ههنا نقيضاً له وهو الإثبات . وهكذا إنمـا كانت « مـن » لمـا يعقل لأن ههنا ما لا يعقل . فمن ذهب يدعى أن فى قولنا فعل وصنع ونحوه دلالة من جهة اللغــة على القادر فقد أساء من حيث قصــد الإحسان لأنه والعياذ بالله يقتضى جواز أن يكون ههنا تأثير فى وجود الحادث لغير القادو حتى يحتاج إلى تضمين اللفظ الدلالة على اختصاصه بالقادر ، وذلك خطأ عظيم . فالواجب أن يقال : الفعل موضوع للتأثير فى وجود الحادث فى اللغــة والعقلُ قد قضى و بت الحــكم بأن لا حظّ فى هذا التأثير لغير القادر وما يقوله أهل النظر من أن من لم يعلم الحادث موجوداً من جهة القادر عليه فهو لم يعلمه فعلا لا يخالف هذه الجمــلة بل لا يصح حق صحته إلا مع اعتبارها وذلك أن الفعل إذا كان موضوعاً للتأثير فى وجود الحادث وكان العقل قد بين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة استحالة أن يكون لغير القادر تأثير فى وجود الحادث وأن يقع شىء ممـا ليس له صفة القادر ، فمن ظن الشىء واقعاً من غير القادر فهو لم يعلمه فعــلا لأنه لا يكون مستحقاً هذا الاسم حتى يكون واقعاً من غيره ، ومن نسب وقوعه إلى مالا يصح وقوعه منــه ولا يتصور أن يكون له تأثير فى وجوده وخروجه من العدم فلم يعلمه واقعاً من شىء البتــة ، وإذا لم يعلمه واقعاً من شىء لم يعلمه فعلا كما أنه إذا لم يعلمه كائناً بعد إن لم يكن لم يعلمه واقعاً ولا حادثاً فاعرفه .

واعلم أنك إن أردت أن ترى المجاز وقد وقع فى نفس الفعل والخلق ولحقهما من حيث هما لا اثباتهما وإضافتهما فالمثال فى ذلك قولهم فى الرجل يشفى على هلكة ثم يتخلص منها : هو إنما خلق الآن ، وإنما أنشىء اليوم ، وقد عدم ثم أنشىء نشأة ثانية ، وذلك أنك تثبت ههنا خلقاً وإنشاء من غير أن يعقل ثابتاً على الحقيقة بل على تأويل وتنزيل وهو إن جعلت حالة اشفائه على الهلكة عدماً وفناء وخروجاً من الوجود حتى أنتج هذا التقدير أن يكون خلاصه منها ابتداء وجود وخلقا وإنشاء ، أفيمكنك أن تقول فى نحو « فعل الربيع النور » بمثل هذا التأويل فتزعم أنك أثبت فعلا وقع على النور من غير أن كان ثم فعل ومن غير أن يكون النور مفعولا ؟ أو هو مما يتعوذ بالله منه وتقول الفعل واقع على النور حقيقة وهو مفعول مجهول على الصحة إلا أن حق الفعل فيه أن يثبت لله تعالى وقد تجوز باثباته للربيع ؟ أفليس قد بان أن التجوز ههنا فى إثبات الفعل للربيع لا فى الفعل نفسه فإن التجوز فى مسئلة المتخلص من الهلكة حيث قلت « إنه خلق مرة ثانية » فى الفعل لا فى اثباته فلك كيف نظرت فرق بين المجاز فى الإثبات وبينه فى المثبت ، وينبغى أن تعلم أن قولى فى المثبت مجاز ليس مرادى أن فيه مجازاً من حيث هو مثبت ولكن المعنى أن المجاز فى نفس الشىء الذى تناوله الإثبات نحو انك أثبت الحياة صفة للأرض فى قوله تعالى (يحيي الأرض بعد موتها) والمراد غيرها فكان المجاز فى نفس الحياة لا فى إثباتها هذا — وإذا كان لا يتصور إثبات شىء لا لشىء استحال أن يوصف المثبت من حيث هو مثبت بأنه مجاز أو حقيقة .

ومما ينتهى فى البيان إلى الغاية أن يقال للسائل : هبك تغالطنا بأن

مصدر فعل نقل أولا عن موضوعه فى اللغة ثم اشتق منه فقل لنا ما نصنع بالأفعال المشتقة من معانى خاصة كنسج وصاغ ووشى ونقش ؟ أتقول إذا قيل نسج الربيع وصاغ الربيع ووشى أن المجاز فى مصادر هذه الأفعال التى هى النسج والوشى والصوغ أم تعرف أنه فى إثباتها فعلا للربيع ؟ وكيف تقول إن فى أنفسها مجازاً وهى موجودة بحقيقتها ؟ بل ماذا يغنى عنك دعوى المجاز فيها لو أمكنك ولا يمكنك أن تقتصر عليها فى كون الكلام مجازاً أعنى لا تملك أن تقول إن الكلام مجاز من حيث لم يكن ائتلاف تلك الأنوار نسجاً ووشيا وتدع حديث نسبتها إلى الربيع جانباً ، هذا — وههنا ما لا وجه لك لدعوى المجاز فى صدور الفعل كقولك « سرنى الخبر » فإن السرور بحقيقته موجود والكلام مع ذلك مجاز . وإذا كان كذلك علمنا ضرورة أن ليس المجاز إلا فى إثبات السرور فعلا للخبر وإيهام أنه أثر فى حدوثه وحصوله ويعلم كل عاقل أن المجاز لو كان من طريق اللغة لجعل ما ليس بالسرور سروراً . فأما الحكم بأنه فعل للخبر فلا يجرى فى وهم أنه يكون من اللغة بسبيل فاعرفه .

فإن قال : النسج فعل معنى وهو المضامة بين الأشياء وكذلك الصوغ فعل الصورة فى الفضة ونحوها وإذا كان كذلك قدرت أن لفظ الصوغ مجاز من حيث دل على الفعل والتأثير فى الوجود حقيقة من حيث دل على الصورة كما قدرت * « حيا الله الأرض » ان أحيا من حيث دل على معنى فعل حقيقة ، ومن حيث دل على الحياة مجاز . قيل ليس لك أن تجىء إلى لفظ أمرين فتفرق دلالته وتجعله منقولا عن أصله فى أحدهما دون الآخر . لو جاز هذا لجاز أن تقول فى اللطم الذى هو ضرب باليد أن

يجعل مجازاً من حيث هو ضرب ، وحقيقة من حيث هو باليد ، وذلك محال لأن كون الضرب باليد لا ينفصل عن الضرب فكذلك كون الفعل فعلا للصورة لا ينفصل عن الصورة ، وليس الأمر كذلك فى قولنا : أحيا الله الأرض ، لأن معنا هناك لفظين أحدهما مشتق وهو « أحيا » والآخر مشتق منه وهو « الحياة » فنحن نقدر فى المشتق منه أنه نقل عن معناه الأصلى فى اللغة إلى معنى آخر ثم اشتق منه « أحيا » بعد هذا التقدير ومعه وهو مثل لفظ اليد ينقل إلى النعمة ثم يشتق منه « يديت » فاعرفه[1] .

ومما يجب أن يعلم فى هذا الباب أن الإضافة فى الاسم كالاسناد فى الفعل فكل حكم يجب فى إضافة المصدر من حقيقة أو مجاز فهو واجب فى إسناد الفعل ، فانظر الآن إلى قولك : أعجبنى وشى الربيع الرياض وصوغه تبرها وحوكه ديباجها . هل تعلم لك سبيلا فى هذه الإضافات إلى التعلق باللغة وأخذ الحكم عليها منها ؟ أم تعلم امتناع ذلك عليك ؟ وكيف والإضافة لا تكون حتى تستقر اللغة ويستحيل أن يكون للغة حكم فى الاضافة ورسم حتى يعلم بها أن حق الاسم أن يضاف إلى هذا دون ذلك . وإذا عرفت ذلك فى هذه المصادر التى هى الصوغ والوشى والحوك فضع مصدر فعل الذى هو عمدتك فى سؤالك وأصل شبهتك موضعها وقل ما ترى إلى فعل الربيع لهذه المحاسن ثم تأمل هل تجد فصلا بين إضافته وإضافة تلك ؟ فإذا لم تجد الفصل البتة فاعلم صحة قضيتنا وانفض يدك بمسئلتك ودع النزاع عنك وإلى الله تعالى الرغبة فى التوفيق .

---

(١) يدى فلانا (كوقى) أصاب يده . ويدى (كرضى) ويدى (مجهول) أصابه بر من آخر .

فصـــل

قال أبو القاسم الآمدى فى قول البحترى :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق وحاك ما حاك من وشى وديباج

صوغ الغيث وحوكه النبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ولذلك لا يقال : هو صائغ ولا كأنه صائغ . وكذلك لا يقال : حائك وكأنه حائك . على أن لفظة حائك خاصة فى غاية الركاكة إذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام فى قوله :

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه خلت حُقُبُ حرس له وهو حائك(١)

وهذا قبيح جداً والذى قاله البحترى « وحاك ما حاك » حسن مستعمل ، فانظر ما بين الكلامين ، لتعلم ما بين الرجلين .

قد كتبت هذا الفصـــل على وجهه والمقصود منه منعه أن تطلق الاستعارة على الصوغ والحوك — وقد جعلا فعلا للربيع — واستدلاله على ذلك بامتناع أن يقال : وكأنه صائغ وكأنه حائك . اعلم أن هذا الاستدلال كأحسن ما يكون إلا أن الفائدة تتم بأن تبين جهته ومن أين كان كذلك .

---

(١) الضمير فى « نسجه » للروض . وغاداه باكره . وأول الشطر الثانى على ما فى الديوان « أتت حقبة » الخ . قال فى المصباح : الحقب الدهر والجمع أحقاب مثل : قفل وأقفال — وضم القاف للاتباع لغة . ويقال : الحقب ثمانون سنة . والحقبة بمعنى المدة والجمع حقب — مثل سدرة وسدر ، وقيل الحقبة — أى بالكسر — مثل الحقب أى بالضم اهـ . قال شيخنا فى الدرس : إن تأنيث الفعل « خلت » باعتبار معنى الحقب بالضم وهو المدة أو على أنها بضم ففتح جمع حقبة بالكسر وهى المدة اهـ . وحرس بالمهملة يريد بها طويلة . والحرس بالفتح الدهر . ويقال حرس « كعلم » أى عاش طويلا .

والقول فيه أن التشبيه كما لايخفى يقتضى شيئين مشبها ومشبها به ، ثم ينقسم إلى الصريح وغير الصريح . فالصريح أن تقول « كأن زيداً الأسد » فتذكر كل واحد من المشبه والمشبه به باسمه ، وغير الصريح أن تسقط المشبه به من الذكر وتجرى اسمه على المشبه كقولك : رأيت أسداً . تريد رجلا شبيها بالأسد إلا أنك تغير اسمه مبالغة وإيهاما أن لاتصل بينه وبين الأسد وأنه قد استحال إلى الأسدية . فإذا كان الأمر كذلك وأنت تشبه شخصاً بشخص فإنك إذا شبهت فعلا بفعل كان هذا حكمه ، فأنت تقول مرة : كأن تزيينه لكلامه نظم در . فتصرح بالمشبه والمشبه به . وتقول أخرى : إنما ينظم دراً ، تجعله كأنه ناظم درا على الحقيقة . وتقول فى وصف الفرس : كأن سيره سباحة وكأن جريه طيران طائر ، هذا إذا صرحت وإذا أخفيت واستعرت قلت : يسبح براكبه ، ويطير بفارسه ، فتجعل حركته سباحة وطيرانا .

ومن لطيف ذلك ما كان كقول أبى دلامة يصف بغلته :

أرى الشهباء تعجن إذ غدونا   برجليها وتخبز باليمين

شبه حركة رجليها حين لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه وهوتا ذاهبين نحو يديها بحركة يدى العاجن فإنه لا يثبت اليد فى موضع بل نزلها إلى قدام وتزول من عند نفسها لرخاوة العجين ، وشبه حركة يديها بحركة يد الخابز من حيث كان الخابز يثنى يده نحو بطنه ويحدث فيها ضرباً من التقويس ، كما تجد فى يد الدابة إذا اضطربت فى سيرها ولم تقف على ضبط يديها ، وأن ترمى بها إلى قدام ، وأن تشد اعتمادها حتى تثبت فى الموضع الذى تقع عليه فلا تزل عنه ولا تنثنى ؛ وأعود إلى المقصود .

فإذا كان لا تشبيه حتى يكون معك شيئان ، وكان معنى الاستعارة أن تغير لفظ المشبه بلفظ المشبه به ولم يكن معنا فى « صاغ الربيع » أو « حاك الربيع » إلا شىء واحد وهو الصوغ أو الحوك كان تقدير الاستعارة فيه محالا جاريا مجرى أن يشبه الشىء بنفسه وتجعل اسمه عارية فيه وذلك بين الفساد ، فإن قلت : أليس الكلام على الجملة معقوداً على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصوغ والنسج به فكيف لم يجز دخول « كأن » فى الكلام من هذه الجهة ؟ فإن هذا التشبيه ليس هو التشبيه الذى يعقد فى الكلام[1] ويفاد بكأن والكاف ونحوهما ، وإنما هو عبارة عن الجهة التى راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر فى إسناد الفعل إليه . ووزانه وزان قولنا إنهم يشبهون « ما » بليس فيرفعون بها المبتدأ وينصبون بها الخبر فيقولون : ما زيد منطلقا ، فنخبر عن تقدير قدروه فى نفوسهم وجهة راعوها فى إعطاء « ما » حكم « ليس » فى العمل ، فكما لا يتصور أن يكون قولنا « ما زيد منطلقا » تشبيهاً على حد « كأن زيدا الأسد » كذلك لا يكون « صاغ الربيع » من التشبيه فكلامنا إذن فى تشبيه منقول منطوق به وأنت فى تشبيه معقول غير داخل فى النطق — هذا — وإن يكن ههنا تشبيه فهو فى الربيع لا فى الفعل المسند إليه واختلافنا فى صاغ وحاك هل يكون تشبيهاً واستعارة أم لا فلا يلتقى التشبيهان أو يلتقى المشئم والمعرق .

وهذا هو القول على الجملة إذا كانت حقيقة أو مجازاً وكيف وجه الحد فيها ، فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهى حقيقة ولن تكون كذلك حتى تعرى من التأول ، ولا فصل

---

(١) قوله فإن هذا التشبيه الخ هو جواب فإن قلت الخ .

بين أن تكون مصيباً فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئاً ، وصادقاً أو غير صادق . فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا : خلق الله تعالى الخلق وأنشأ العالم وأوجد كل موجود سواه فهذه من أحق الحقائق وأرسخها فى العقول ، وأقعدها نسباً فى المعقول ، والتى إن رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك ، ومتى هممت بالتوقف فى ثبوتها استولى النفى على معقولك ، ووجدتك كالمرمى به من حالق إلى حيث لا مقر لقدم ، ولا مساغ لتأخر وتقدم ، كما قال أصدق القائلين جلت أسماؤه ، وعظمت كبرياؤه ، (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) . وأما مثال أن توضع الجملة على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل وليس كذلك إلا أنه صادر عن اعتقاد فاسد وظن كاذب فمثل ما يجىء فى التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو (وما يهلكنا إلا الدهر) فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه إطلاق من يضع الصفة فى موضعها ، لا يوصف بالمجاز ولكن يقال عند قائله إنه حقيقة ، وهو كذب وباطل ، وإثبات لما ليس بثابت ، أو نفى لما ليس بمنتف ، وحكم لا يصححه العقل فى الجملة بل يرده ويدفعه ، إلا أن قائله جهل مكان الكذب والبطلان فيه أو جحد وباهت .

ولا يتخلص لك الفصل بين الباطل و بين المجاز حتى تعرف حد المجاز ، وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول فهى مجاز ومثاله ما مضى من قولهم « فعل الربيع » وكما جاء فى الخبر

« إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »(١) قد أثبت الانبات للربيع

(١) قال الأزهرى : وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » فإن أبا عبيد فسر الحبط وترك من تفسير هذا الحديث أشياء لا يستغنى أهل العلم عن معرفتها فذكرت الحديث على وجهه لأفسر منه كل ما يحتاج من تفسيره . قال — وذكر سنده إلى أبى سعيد الخدرى أنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : « إنى أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » . قال : فقال رجل : أويأتى الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرحضاء وقال : « أين هذا السائل » وكأنه حمده فقال : « إنه لا يأتى الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم الا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وان هذا المال خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل — أوكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وانه من يأخذه بغير حقه فهو كالآكل الذى لا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة » . قال الأزهرى : وإنما تقصيت رواية هذا الخبر لأنه إذا بتر استغلق معناه وفيه مثلان : ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه . والمثل الآخر ضربه للمقتصد فى جمع المال وبذله فى حقه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : « وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا » . فهو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع . وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحلولها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب . وأما مثل المقتصد المحمود فقوله صلى الله عليه وسلم : « إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خواصرها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت » وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلا ولكنه من الجنبة التى ترعاها بعد هيج العشب ويبسه . قال : وأكثر ما رأيت العرب يجعلون الخضر ما كان أخضر من الحلىّ الذى لم يصفر والماشية ترتع منه شيئا شيئا ولا تستكثر منه فلا تحبط =

وذلك خارج عن موضعه من العقل لأن إثبات الفعل لغير القادر لا يصح

= بطونها . قال : وقد ذكره طرفة فبين أنه من نبات الصيف فى قوله :

كبنات المخر يمأدن إذا أنبت الصيف عساليج الخضر

فالخضر من كلاء الصيف فى القيظ وليس من أحرار بقول الربيع والنعم لاتستربله ولا تحبط بطونها عنه . وقال : وبنات مخر أيضاً وهى سحائب يأتين قبيل الصيف قال : وأما الخضارة فهى من البقول الشتوية وليست من الجنبة فضرب النبى صلى الله عليه وسلم آكلة الخضر مثلا لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى قمها والحرص عليها وانه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت من الخضر استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت . وإذا ثلطت فقد ذهب حبطها وإنما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل واتطمت عليها بطونها . وقوله : « إلا آكلة الخضر » معناه لكن آكلة الخضر . وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن هذا المال خضرة حلوة » فهو ههنا الناعمة الغضة اه لسان العرب . وفيه والحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها اه .

وفى العبارة ألفاظ غريبة على طلاب العلم فى هذا العصر نفسرها ونضبطها وهى الرحضاء بضم الراء وفتح الحاء المهملة العرق الكثير . ويلم مضارع ألم ومعناه هنا يقارب . وثلط « كضرب » سلح رقيقاً ليناً بسهولة . و أحرار العشب الرقيق الرطب منه وقالوا : أحرار البقول ما أكل منه غير مطبوخ كالخس وهو مجاز وقال أبو الهيثم : أحرار البقول ما رق منها ورطب ، وذكورها ما غلظ منها وخشن ، والجنبة بالفتح هى كما قال الأزهرى اسم لنبوت كثيرة وهى كلها عروق سميت جنبة لأنها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التى لا أرومة لها فى الأرض . وقال غيره : هى ما له أصل غامض فى الأرض والخضر بفتح فكسر ضرب من الجنبة واحدته بالهاء « خضرة » والحلى « كعلى » ما ابيض من يبيس النصى وهو « بوزنه » نبات سبط من أفضل المراعى ونبات المخر فى بيت طرفة ويقال نبات مخر سحائب بيض رقاق تأتى قبل « كعنق » الصيف . وقوله : يمأدن من مأد النبات يمأد اهتز وتروى وجرى فيه الماء والمراد تتحرك ويضطرب فيها ماؤها . والعساليج جمع عسلوج وهو قضيب الشجر والكرم ونحوه أول ما ينبت

فى قضايا العقول إلا أن ذلك على سبيل التأول وعلى العرف الجارى بين الناس أن يجعلوا الشيء إذا كان سبباً أو كالسبب فى وجود الفعل من فاعـله كأنه فاعل . فلما أجرى الله سبحانه العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار وتلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع صار يتوهم فى ظاهر الأمر ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشـياء حاجة إلى الربيع فأسند الفعل إليـه على هذا التأويل والتنزيل .

وهذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن فمنه قوله تعـالى : (تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وقوله عز اسمه : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمـانا) وفى الأخرى : (فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) وقوله : (وأخرجت الأرض أثقالها) وقوله عز وجل : (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت) أثبت الفعل فى جميع ذلك لمـا لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل ولا الآيات توجد العلم فى قلب السامع لها ، ولا الأرض تخرج الكامن فى بطنها من الأثقال ولـكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيهـا وأودع جوفها . وإذا ثبت ذلك فالمبطل والـكاذب لا يتأول فى إخراج الحـكم عن موضعه واعطائه غير المستحق ، ولا يشبه كون المقصود سبباً بكون الفاعل فاعلا بل يثبت القضـية من غير أن ينظر فيها من شيء إلى شيء ، ويرد فرعا إلى أصل ، وتراه أعمى أكمه يظن مالا يصح صحيحا ، ومالا يثبت ثابتاً ، وما ليس فى موضعه من الحكم موضوعاً موضعه . وهكذا المتعمد للـكذب يدعى أن الأمر على ماوضعه تلبيساً وتمويها وليس هو من التأول .

والنـكتة أن المجاز لم يكن مجازاً لأنه إثبات الحـكم لغير مستحقه بل لأنه

أثبت لما لا يستحق تشبيهاً ورداً له إلى ما يستحق ، وأنه ينظر من هذا إلى ذاك ، وإثباته ما أثبت للفرع الذى ليس بمستحق يتضمن الإثبات للأصل الذى هو المستحق ، فلا يتصور الجمع بين شيئين فى وصف أو حكم من طريق التشبيه والتأويل حتى يبدأ بالأصل فى إثبات ذلك الوصف والحكم له . ألا تراك لا تقدر على أن تشبه الرجل بالأسد فى الشجاعة ما لم تجعل كونها من أخص أوصاف الأسد وأغلبها عليه نصب عينيك ، وكذلك لا يتصور أن يثبت المثبت الفعل للشىء على أنه سبب ما لم ينظر إلى ما هو راسخ فى العقل من أن لا فعل على الحقيقة إلا للقادر ، لأنه لو كان نسب الفعل إلى هذا السبب نسبة مطلقة لا يرجع فيها إلى حكم القادر والجمع بينهما من حيث تعلق وجوده بهذا السبب من طريق العادة كما يتعلق بالقادر من طريق الوجوب لما اعترف بأنه سبب ولا ادعى أنه أصل بنفسه مؤثر فى وجود الحادث كالقادر ، وإن تجاهل متجاهل فقال بذلك على ظهور الفضيحة وإسراعها إلى مدعيه كان الكلام عنده حقيقة ولم يكن من مسئلتنا فى شىء ، ولحق بنحو قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر » وليس ذلك المقصود فى مسئلتنا لأن الغرض ههنا ما وضع فيه الحكم واضعه على طريق التأول فاعرفه .

ومن أوضح ما يدل على أن إثبات الفعل للشىء لأنه سبب يتضمن إثباته للمسبب من حيث لا يتصور دون تصوره أن تنظر إلى الأفعال المسندة إلى الأدوات والآلات كقولك : قطع السكين وقتل السيف . فإنك تعلم أنه لا يقع فى النفس من هذا الإثبات صورة ما لم تنظر إلى إثبات الفعل لمعمل الأداة والفاعل بها ، فلو فرضت أن لا يكون ههنا قاطع بالسكين

ومصرف لما أعناك[١] أن تعقل من قولك « قطع السكين » معنى بوجه من الوجوه . وهذا من الوضوح بحيث لا يشك عاقل فيه ، وهذه الأفعال المسندة إلى من تقع تلك الأفعال بأمره كقولك « ضرب الأمير الدراهم وبنى السور » لا تقوم فى نفسك صورة لإثبات الضرب والبناء فعلا للأمير بمعنى الأمر به حتى تنظر إلى ثبوتهما للمباشر لهما على الحقيقة ، والأمثلة فى هذا المعنى كثيرة تتلقاك من كل جهة وتجدها أنى شئت .

واعلم أنه لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين فأما أن يكون الشيء الذى أثبت له الفعل مما لا يدعى أحد من المحقين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له وذلك نحو قول الرجل : محبتك جاءت بى إليك . وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها : هن مخرجاتى من الشام ، فهذا مالا يشتبه على أحد أنه مجاز ، وأما أنه يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا للقادر ، وأنه ممن لا يعتقد الاعتقادات الفاسدة كنحو ما قاله المشركون وظنوه من ثبوت الهلاك فعلا للدهر فإذا سمعنا نحو قوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ ـرَ كر الغداة ومرُّ العشى

وقول أبى الأصبع :

أهلكنا الليل والنهار معاً والدهر يغدو مصمماً جذعا[٢]

كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد إما بمعرفة أحوالهم

---

(١) أعناك أتعبك أى أوقعك فى العناء .

(٢) مصمما — ماضياً فى سيره . والدهر جذع أى شاب دائما لايهرم ، ويسمى الدهر الازلم الجذع وهو مجاز وأصل الازلم ما يقطع طرف أذنه من كرام الإبل والشاء والجذع ماقبل الثنى .

السابقة أو بأن تجد فى كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو ما يكشف عن قصد المجاز فيه كنحو ما صنع أبو النجم فإنه قال أولا :

قد أصبحت أمُّ الخيار تدعى على ذنباً كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع ميز عنه قنزعاً عن قنزع[1]
مرُّ الليالى ابطئى أو أسرعى

فهذا على المجاز وجعل الفعل لليالى ومرورها إلا أنه خفى غير بادى الصفحة . ثم فسر وكشف عن وجه التأول ، وأفاد أنه بنى أول كلامه على التخييل ، فقال :

أفناه قيلُ الله للشمس اطلعى حتى إذا وأراك أفق فارجعى

فبين أن الفعل لله وأنه المعيد والمبدىء والمنشىء والمفنى ، لأن المعنى فى « قيل الله » أمر الله ، وإذ جعل الفناء بأمره فقد صرح بالحقيقة ، وبين ما كان عليه من الطريقة

واعلم أنه لا يصح أن يكون قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر » من باب التأويل والمجاز وأن يكون الإنكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ وأن فيه إيهاماً للخطأ . كيف وقد قال تعالى بعقب الحكاية عنهم : (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) والمتجوز أو المخطىء فى العبارة لا يوصف بالظن ، إنما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله وكما يوجبه ظاهر كلامه ، كيف يجوز أن يكون الإنكار من طريق إطلاق اللفظ دون إثبات الدهر فاعلا للهلاك وأنت ترى فى نص القرآن ما جرى فيه اللفظ على إضافة فعل

---

(١) المعروف فى الشطر الرابع روايتان إحداهما « طير عنها قنزعا » الخ والأخرى « صير عنه » والقنزع جمع قنزعة وهى الشعر حوالى الرأس ، وقيل فى وسط الرأس خاصة

الملاك إلى الريح مع استحالة أن تكون فاعلة ؟ وذلك قوله عز وجل (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) وأمثال ذلك كثير .

ومن قدح فى المجاز ، وهم أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطاً عظيما وتهدف لما لا يخفى . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به ، حتى تحصل ضروبه ، وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة ، لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عدها ، وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفية يأتيهم منها فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويلقيهم فى الضلالة من حيث ظنوا أنهم يهتدون ؟ وقد اقتسمه البلاء فيه من جانبى الإفراط والتفريط ، فمن مغرور مغرى بنفيه دفعة ؛ والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن اسمه ، يرى أن لزوم الظواهر فرض لازم ، وضرب الخيام حولها حتم واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حده ويخبط ، فيعدل عن الظاهر والمعنى عليه ، ويسوم نفسه التعمق فى التأويل ولا سبب يدعو إليه .

أما التفريط ، فما تجد عليه قوماً فى نحو قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) . وقوله : (وجاء ربك . و : الرحمن على العرش استوى) وأشباه ذلك من النبو عن أقوال أهل التحقيق . فإذا قيل لهم إن الإتيان والمجىء انتقال من مكان إلى مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وأن الاستواء إن حمل على ظاهره لم يصح إلا فى جسم يشغل حيزاً ويأخذ مكاناً ، والله عز وجل خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشىء كل ما تصح عليه الحركة والنقلة

والتمكن والسكون ، والانفصال والاتصال ، والماسة والمحاذاة ، وأن المعنى على : (إلا أن يأتيهم أمر الله ، وجاء أمر ربك) . وأن حقه أن يعبر بقوله تعالى : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) وقول الرجل : آتيك من حيث لا تشعر — يريد أنزل بك المكروه ، وأفعل ما يكون جزاء لسوء صنيعك فى حال غفلة منك ، ومن حيث[1] تأمن حلوله بك . وعلى ذلك قوله :

أتيناهم من أيمن الشق عندهم ويأتى الشقى الحين من حيث لا يدرى

نعم إذا قلت ذلك للواحد منهم رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه ، فبين جنبيه قلب قلب يتردد فى الحيرة ويتقلب ، ونفس تفر من الصواب وتهرب ، وفكر واقف لا يجىء ولا يذهب ، يحضره الطبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد وجه الخلاص من عنائه ، ويأبى إلا نفاراً عن العقل ، ورجوعاً إلى الجهل ، لا يحضره التوفيق بقدر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجرى فى قوله تعالى : « واسئل القرية » . على الظاهر لأجل علمه أن الجماد لا يُسأل ، مع أنه لو تجاهل متجاهل فادعى أن الله تعالى خلق الحياة فى تلك القرية حتى عقلت السؤال وأجابت عنه ونطقت ، لم يكن قال قولا يكفر به ، ولم يزد على شىء يعلم كذبه فيه ؛ فمن حقه أن لا يجثم ههنا على الظاهر[2] ، ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتى لا يعى ولا يراعى مع ما فيه إذا أخذ على ظاهره من التعرض للهلاك والوقوع فى الشرك .

فأما الإفراط فيما يتعاطاه قوم يحبون الإغراب فى التأويل ، ويحرصون

(١) الضمير فى حلوله للمكروه أو ما يكون جزاء الخ

(٢) جملة « فمن حقه » الخ جواب قوله « إذا كان لايجرى » الخ . الجثم والجثوم من الطائر والإنسان وغيرهما التلبد بالأرض والمراد هنا شدة التمسك .

على تكثير الوجوه ، وينسون أن احتمال اللفظ شرط فى كل ما يعدل به عن الظاهر فهم يستكرهون الألفاظ على الأمثلة من المعانى يدعون السليم من المعنى إلى السقيم ويرون الفائدة حاضرة وقد أبدت صفحتها وكشفت قناعها ، فيعرضون عنها حباً للتشوف[١] وقصداً إلى التمويه وذهاباً فى الضلالة .

وليس القصد ههنا بيان ذلك فأذكر أمثلته ، على أن كثيراً من هذا الفن يرغب عن ذكره لسخفه ، وإنما غرضى بما ذكرت أن أريك عظم الآفة على الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله ، وأن الخطأ فيه مورط صاحبه ؛ وفاضح له ومسقط قدره ، وجاعله ضحكة يتفكه به[٢] وكاسيه عاراً يبقى على وجه الدهر . وفى مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[٣] وليس حمله روايته وسرد ألفاظه ، بل العلم بمعانيه ومخارجه ، وطرقه ومناهجه ، والفرق بين الجائز والممتنع ، والمنقاد المصحب ، والنافى النافر[٤] .

وأقل ما كان ينبغى أن تعرفه الطائفة الأولى وهم المنكرون للمجاز أن التنزيل كما لم يقلب اللغة فى أوضاعها المفردة عن أصولها ، ولم يخرج الألفاظ عن دلالتها ، وأن شيئاً من ذلك إن زيد إليه ، ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه ، أو ضمن ما لم يتضمنه أتبع ببيان من عند النبى صلى الله عليه وسلم وذلك كبيانه

---

(١) التشوف التزين .

(٢) الضحكة بضم فسكون من يضحك عليه الناس

(٣) المراد بالغالين المبتدعة وبالمبطلين الذين يتعمدون الباطل وينتحلون من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يؤيد باطلهم

(٤) المصحب اسم فاعل من أصحب له الرجل والدابة انقادا له وذلا وحقيقته دخل فى الصحبة . وقوله « النافى » من اللازم أى البعيد المتجافى والتحقيق أن سبب الإفراط والتفريط هو الجهل .

للصلاة والحج والزكاة والصـــوم — كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها ، ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم ، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع . وكذلك كان من حق الطائفة الأخرى أن تعلم أنه عز وجل لم يرض لنظم كتابه الذى سماه هدى وشفاء ، ونوراً وضياء ، وحياة تحيا بها القلوب ، وروحاً تنشرح عنه الصدور ، ما هو عند القوم الذين خوطبوا به خلاف البيان ، وفى حد الإغلاق والبعد من التبيان ، وأنه تعالى لم يكن ليعجز بكتابه من طريق الإلباس والتعمية ، كما يتعاطاه الملغز من الشعراء ، والمحاجى من الناس ، كيف وقد وصفه بأنه « عربى مبين » .

هذا وليس التعسف الذى يرتكبه بعض من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أصحاب الألغاز والأحاجى ، بل هو شىء يخرج عن كل طريق ويباين كل مذهب ، وإنما هو ســوء نظر منهم ووضع الشىء فى غير موضعه ، وإخلال بالشريطة ، وخروج عن القانون وتوهم أن المعنى إذا دار فى نفوسهم وعقل من تفسيرهم فقد فهم من لفظ المفسر وحتى كان الألفاظ تنقلب عن سجيتها ، وتزول عن موضوعها ، فتحمل ما ليس من شأنها أن تحتمله ، وتؤدى مالا يوجب حكمها أن تؤديه .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هذا كلام فى ذكر المجاز وفى بيان معناه وحقيقته)

« وفيه بيان المنقول والمشـــترك والمجاز المرسل وعلاقته »

المجاز مفعل من جاز الشىء يجوزه إذا تعداه . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلى أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولا .

ثم اعلم بعد أن فى اطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطاً وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل . ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول أنه مجاز فيه بسبب بينه و بين الذى تجعله حقيقة فيه نحو أن اليد تقع للنعمة وأصلها الجارحة لأجل أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم ، وما يقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجبلة . ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها والموهوبة هى منه . وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة لأن القدرة أكثر ما يظهر سلطانها فى اليد ، وبها يكون البطش والأخذ والدفع والمنع ، والجذب والضرب والقطع ، وغير ذلك من الأفاعيل التى تخبر فضل اخبار عن وجوه القدرة وتنبىء عن مكانها ولذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئاً لا ملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه .

ولوجوب اعتبار هذه النكتة فى وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجز استعماله فى الألفاظ التى يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كبعض الأسماء المجموعة فى الملاحن مثل أن الثور يكون اسماً للقطعة الكبيرة من الاقط والنهار اسم لفرخ الحبارى والليل لولد الكروان[1] كما قال :

أكلت النهار بنصف النهار وليلا أكلت بليل بهيم

---

(١) الاقط بالتثليث وبفتح الهمزة مع تثليث القاف وبكسرتين الجبن المتخذ من اللبن الحامض ، والحبارى بالضم والقصر طائر يضرب به المثل فى البلاهة والحمق لأنها إذا غيرت عشها نسيته وحضنت بيض غيرها ، يقال « هو أبله من الحبارى ، وكل شىء يحب ولده إلا الحبارى » واللفظ يطلق على الذكر والأنثى ، وهو ممنوع من الصرف معرفا ومنكراً . والكروان بالتحريك هو كما فى المصباح طائر طويل الرجلين أغبر نحو الحمامة وله صوت حسن . وقيل هو الحجل .

وذلك أن اسم الثور لم يقع على الاقط لأمر بينه وبين الحيوان المعلوم ولا النهار على الفرخ لأمر بينه وبين ضوء الشمس أداه إليه وساقهُ نحوه .

والغرض المقصود بهذه العبارة — أعنى قولنا المجاز — أن تبين أن للفظ أصلا مبدوءا به فى الوضع ومقصوداً ، وإن جريه على الثانى إنما هو على سبيل النقل إلى الشىء من غيره ، وكما يعبق الشىء برائحة مايجاوره ، وينصبغ بلون مايدانيه ، ولذلك تراهم لا يطلقون المجاز فى الأعلام اطلاقهم لفظ النقل فيها حيث قالوا : العلم على ضربين منقول ومرتجل ، وإن المنقول منها يكون منقولا عن اسم جنس كأسد وثور وزيد وعمرو ، أو صفة كعاصم وحارث ، أو فعل كيزيد ويشكر ، أو صوت كببّه[1] فاثبتوا لهذا كله النقل من غير العلمية إلى العلمية ، ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلا إن « يشكر » حقيقة فى مضارع شكر ومجاز فى كونه اسم رجل ، وإن حجراً حقيقة فى الجماد ومجاز فى اسم الرجل ، وذلك أن الحجر لم يقع اسماً للرجل لالتباس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة وبينها وبين القدرة ولا كما كان بين الظهر الحامل وبين المحمول فى نحو تسميتهم المزادة راوية وهى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل ، وكتسميتهم البعير حفضاً وهو اسم لمتاع البيت الذى يحمل عليه — ولا كنحو ما بين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص كتسميتهم الرجل عيناً إذا كان ربيئة ، والناقة نابا — ولا كما بين النبت والغيث وبين السماء والمطر حيث قالوا : رعينا الغيث يريدون النبت الذى الغيث سبب فى كونه ، وقالوا : أصابتنا السماء . يريدون المطر . وقال « تلقه الأرواح والسمى[2] » وذلك أن فى هذا كله تأولا

---

(١) سيأتى تفسيره « ص ٣٥٣ »

(٢) السمى جمع سماء بمعنى المطر والأرواح الرياح

وهو الذى أفضى بالإسم إلى ما ليس بأصل فيه ، فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله ، إذ كان لولا هداها لا يغنى شيئاً مع فقدها ، والغيث لما كان النبت يكون عنه صار كأنه هو ، والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها .

واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول والمنقول عنه تختلف فى القوة والضعف والظهور وخلافه فهذه الأسماء التى ذكرتها إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ما هى له وبين ما ردت إليه وجدتها أقوى من نحو ماتراه فى تسميتهم الشاة التى تذبح عن الصبى إذا حلقت عقيقته عقيقة[1] وتجد حالها بعدُ أقوى من حال العقيرة فى وقوعها للصوت فى قولهم : رفع عقيرته . وذلك أنه شىء جرى اتفاقاً ولا معنى يصل بين الصوت وبين الرجل المعقورة . على أن القياس يقتضى أن لا يسمى مجازاً ولكن يجرى مجرى الشىء يُحكم فيه بعد وقوعه كالمثل إذا حكى فيه كلام صدر عن قائله من غير قصد إلى قياس وتشبيه بل الاخبار عن أمر من قصَده بالخطاب كقولهم « الصيف ضيعت اللبن[2] » .

ولهذا الموضع تحقيق لا يتم إلا بأن يوضع له فصل مفرد . والمقصود الآن غير ذلك لأن قصدى فى هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من الاستعارة وأن

---

(١) العقيقة شعر كل مولود من الناس والبهائم يولد وهو عليه

(٢) المثل يضرب لمن ضيع الشىء فى وقته وعاد يطلبه بعد فواته . وسببه أن امرأة كرهت زوجها الموسر فطلقها فتزوجت بمملق وأرسلت تستميح زوجها الأول فقال: فالتاء مكسورة . ويروى أن الأسود بن هرمز طلق امرأته العنود الشنية وتزوج بامرأة جميلة غنية من قومه فحدث ما أوجب طلاقها ثم راسل الأولى فقالته فى بيتين من الشعر فأيهما كان السابق ؟

الصحيح من القضية فى ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعنى علم الخطابة ونقد الشعر[1] والذين وضعوا الكتب فى أقسام البديع يجرى على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة .

قال القاضى أبو الحسن فى أثناء فصل ذكرها فيه : وملاك الاستعارة تقريب الشبه ومناسبة المستعار المستعار منه . وهكذا تراهم يدونها فى أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر[2] وغير ذلك من غير أن يشترطوا شرطاً ويعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا ومن البديع الاستعارة التى من شأنها كذا . فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعاً وإما قريباً من المقطوع عليه لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة . يبين ذلك أنها إن كانت تسارق

---

(١) لم يقل علماء البيان لأن البيان لم يكن قبله علما بل هو الذى جعله علما بهذا الكتاب وإنما خاض الباحثون فى نقد الكلام فى بعض مسائله ولم يضعوا لها حدوداً ولا رسوماً اصطلاحية تكون بها علما أو فناً .

(٢) كتب شيخنا فى تفسير هذه الاصطلاحات ما نصه :
التطبيق المطابقة كقوله تعالى : « وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء » والتوشيح كون فاتحة دالة بمعناها على خاتمته كقول أبى فراس :

إذا ما ثار سيف الدين ثرنا ... كما هيجت آساداً غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا ... صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات ... فكنا عند دعوته الجوابا

ورد العجز على الصدر تكرير كلة فى الشطرين من الشعر ، أو الفقرتين من النثر كقول بعضهم :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعى الندى بسريع

المجاز[١] وتجرى مجراه حتى تصلح لكل ماتصلح له[٢] فذكرها فى أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم حتى يكون إجراء اليد على النعمة بديعاً وتسمية البعير حَفَضا والناقة نابا والربيئة عينا والشاة عقيقة بديعا كله ، وذلك بين الفساد .

وأما مانجده فى كتب اللغة من إدخال ماليس طريق نقله التشبيه فى الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد فى الجمهرة فإنه ابتدأ بابا فقال : (باب الاستعارات) ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات فى الحرب ثم كثرت وصارت الحرب وغى وأنشد :

أضمامة من دونها الثلاثين   لها وغى مثل وغى الثمانين[٣]

يعنى اختلاط أصواتها . وذكر قولهم « رعينا الغيث والسماء » يعنى المطر وذكر ماهو أبعد من ذلك فقال : الخرس ماتطعمه النفساء ثم صارت

---

(١) فسر شيخنا تسارق بقوله : تنظر إليه وتميل إليه . وأرى أنها محرفة أصلها تساوقه بالواو أى تشاركه فى المساق أو السياق الواحد ويفسرها فى المعنى مابعدها .

(٢) قوله « حتى يصلح لكل ما تصلح له » صححه شيخنا بالعكس وبينه فى الدرس فى حاشية نسخته بأن معنى الأصل : حتى يصلح المجاز لكل ما تصلح له الاستعارة (قال) وهذا غير ما يراه أو يريده (أى المؤلف) فالصواب حتى تصلح الاستعارة لكل ما يصلح له المجاز كما أصلحناه انتهى . وأقول : الظاهر من السياق أنه لا فرق بين الضبطين هنا ، لأن كلا منهما مراد فقوله « حتى يصلح لكل ما تصلح له » يستلزم عكسه وهو : وتصلح لكل مايصلح له . ولكن هذا لايستلزم ذلك ، لأن كل استعارة مجاز ولا عكس كما حققه المصنف وأنكر على المتكلمين فى البديع ونقد الشعر أنهم لم يفرقوا هذه التفرقة كما أنكر عليهم هنا وقال إن كلامهم بين الفساد فتأمل .

(٣) الاضمامة الجماعة من الرجال .

الدعوة للولادة خرساً[1] والاعذار الختان وسمى الطعام للختان إعذاراً وأن الظعينة أصلها المرأة فى الهودج ثم صار البعير والهودج ظعينة ، والخطر ضرب البعير بذنبه جانبى وركيه[2] ، ثم صار مالصق من البول بالوركين خطراً . وذكر أيضا الراوية بمعنى المزادة والعقيقة وذكر فيما بين ذكره لهذه الكلم أشياء هى استعارة على الحقيقة ، على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر لأنه قال : الظمأ العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك حتى قالوا « ظمئت إلى لقائك » . وقال الوجور ماأوجر الإنسان من دواء أو غيره[3] ثم قالوا أوجره الرمح إذا طعنه فى فيه .

فالوجه فى هذا الذى رواه من إطلاق الاستعارة على ما هو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ماليس من التشبيه فى شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسبب اختصاص وضرب من الملابسة بينهما وخلط أحدهما بالآخر أنهم كانوا[4] نظروا إلى مايتعارفه الناس فى معنى العارية وأنها شيء حول عن مالكه ونقل عن مقره الذى هو أصل فى استحقاقه إلى ماليس بأصل ، ولم يراعوا عرف القوم . ووزانهم فى ذلك وزان من يترك عرف النحويين فى التمييز واختصاصهم له بما احتمل أجناسا مختلفة كالمقادير والاعداد وما شاركها فى أن الإبهام الذى يراد كشفه منه هو احتماله الأجناس فيسمى الحال مثلا تمييزاً من حيث أنك إذا قلت « راكبا » فقد ميزت المقصود وبينته كما فعلت ذلك فى قولك : عشرون

(١) المعروف فى طعام النفساء الخرسة بالتاء . وأما الخرس فهو طعام الولادة وكلاهما بالضم ،

(٢) الخطر بالفتح ويكسر مع سكون الطاء فيهما .

(٣) الوجور بالفتح ويضم وهو ما يوجر أى يصب فى الحلق .

(٤) قوله إنهم كانوا الخ خبر قوله فالوجه

درهما ومنوان سمناً وقفيزان براً ولى مثله رجلا ولله دره رجلا . وليس هذا المذهب بالمذهب المرضى بل الصواب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل التشبيه للمبالغة لأن هـذا نقل يطرد على حد واحد وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة فالتطفل به على غيره فى الذكر وتركه مغموراً فيما بين أشياء ليس لها فى نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ضعف من الرأى وتقصير فى النظر .

وربما وقع فى كلام العلماء بهذا الشأن الاستعارة على تلك الطريقة العامية إلا أنه لا يكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول . ومثاله أن أبا القاسم الآمدى[1] قال فى أثناء فصل يبحث عن شىء اعترض به على البحترى فى قوله :

---

(١) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الأديب صاحب كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء والموازنة بين أبى تمام والبحترى توفى سنة ٣٧٠ وتقدم ذكره قال فى الموازنة : « ومما نسبوا فيه البحترى إلى سوء القسمة قوله :

فكأن مجلسه المحجب محفل ... وكأن خلوته الخفية مشهد

وقالوا إنه ليس فى المصراع الثانى من الفائدة إلا ما فى الأول لأن مجلسه المحجب هى خلوته الخفية وقوله محفل كقوله مشهد . والمعنى عندى صحيح لأن المجلس المحجب قد يكون فيه الجماعة الذين يخصهم وفى الأكثر الأعم لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم . ألا ترى إلى قول مهلهل * واستب بعدك يا كليب المجلس * أى أهل المجلس على الاستعارة فجعل البحترى مجلسه الذى احتجب فيه مع من يخصه كالمحفل والمحفل هو الجمع الكثير . والخلوة الخفية قد يكون متفرداً ويكون معه محبوبه فبينها وبين المجلس فرق أى فكأنه إذا خلا خلوة خفية ففيها معه من يشاهده ، ومن يشاهده يجوز أن يكون واحداً أو اثنين والمحفل لا يكون إلا عدداً كثيراً ، فهذا أيضا فرق صحيح بين المحفل والمشهد . وإنما أراد البحترى أنه لا يفعل فى مجلسه المحجب إلا ما يفعله إذا حضره من يشاهده : ينسبه إلى شدة التصون وكرم السريرة » اهـ =

فكأن مجالسه المحجب محفل وكأن خلوته الخفية مشهد

إن المكان لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم . ثم قال : ألا ترى إلى قوم المهلهل « واستبّ بعدك يا كليب المجلس » على الاستعارة . فاطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون فى الأمور وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه .بل على وجه وقوع الشىء على ما يتصل به وتكثر ملابسته إياه ، وأى شبه يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة :

وقال الآمدى نفسه : ثم قد يأتى فى الشعر ثلاثة أنواع أخر يكتسى المعنى العام بها بهاء وحسناً حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصاً ثم قال : وهذه الأنواع هى التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس . فهذا نص فى موضع القوانين ، على أن الاستعارة من أقسام البديع ولن يكون النقل بديعاً حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما بينت لك وإذا كان كذلك ثم جعل الاستعارة على الاطلاق بديعاً فقد أعلمك أنها اسم للضرب المخصوص من النقل دون كل نقل فاعرفه .

واعلم أنا إذا أنعمنا النظر وجدنا المنقول من أصل التشبيه على المبالغة أحق بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى ، بيان ذلك أن ملك المعير لا يزول عن المستعار واستحقاقه إياه لا يرتفع ، فالعارية إنما كانت عارية لأن يد المستعير يد عليها ما دامت يد المعير باقية وملكه غير زائل ، فلا يتصور

= وأول بيت المهلهل الذى استشهد بمصراعه الآمدى * نبئت أن النار بعدك أوقدت * وبعده :

وتكلموا فى أمر كل عظيمة لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

أن يكون المستعير تصرف لم يستفده من المالك الذى أعاره ، ولا أن تستقر يده مع زوال اليد المنقول عنها . وهذه جملة لا تراها إلا فى المنقول نقل التشبيه لأنك لا تستطيع أن تتصور جرى الاسم على الفرع من غير أن تخرجه إلى الأصل : كيف ولا يعقل تشبيه حتى يكون ههنا مشبه ومشبه به ، هذا والتشبيه ساذج مرسل فكيف إذا كان على معنى المبالغة ، وعلى أن تجعل الثانى كأنه انقلب مثلا إلى جنس الأول فصار الرجل أسـداً وبحراً وبدراً ، والعلم نوراً ، والجهل ظلمة ، لأنه إذا كان على هذا الوجه كانت حاجتك إلى أن تنظر به إلى الأصل أمس ، لأنه إذا لم يتصور أن يكون هنا سبع من شأنه الجراءة العظيمة والبطش الشديد ، كان تقديرك شيئاً آخر يتحول إلى صفته ويصير فى حكمه من أبعد المحال .

وأما ما كان منقولاً ، لا لأجل التشبيه كاليد فى نقلها إلى النعمة فلا يوجد ذلك فيه ، لأنك لا تثبت للنعمة بإجراء اسم اليد عليها شيئاً من صفات الجارحة المعلومة ، ولا تروم تشبيهاً بهـا البتة ، لا مبالغاً ولا غير مبالغ ، فلو فرضنا أن تـكون اليد اسما وضع للنعمة ابتداء ، ثم نقلت إلى الجارحة ، لم يكن ذلك مستحيلا . وكذلك لو ادعى مدع أن جرى اليد على النعمة أصل ولغة على حدتها وليست مجازاً ، لم يكن مدعياً شيئاً يحيله العقل . ولو حاول أن يقول فى مسئلتنا قولا شبيهاً بهذا فرام تقدير شىء يجرى عليه اسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاستعارة مع فقد السبع المعلوم ومن غير أن يثبت استحقاقه لهذا الاسم فى وضع اللغة رام شيئاً فى غاية البعد .

(وعبـارة أخرى) العارية من شأنها أن تـكون عند المستعير على صفة شبيهة بصفتها — وهى عند المالك — ولسنا نجد هذه الصورة إلا فيما نقل نقل

التشبيه المبالغة دون ما سـواه ، ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعار له ليدل على مشاركته المستعار منه فى صفة هى أخص الصفات التى من أجلها وضع الاسم الأول ، أعنى أن الشجاعة أقوى المعانى التى من أجلها سمى الأسد أسداً ، وأنت تستعير الاسم للشيء على معنى إثباتها له على حدها فى الأسد ؛ فأما اليد ونقلها إلى النعمة فليست من هذا فى شيء ، لأنها لم تتناول النعمة لتدل على صفة من أوصاف اليد بحال . ويحرر ذلك نـكتة وهى أنك تريد بقولك رأيت أسداً أن تثبت للرجل الأسدية ، ولست تريد بقولك : له عندى يد ، أن تثبت للنعمة اليدية وهذا واضح جداً .

واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة والجحفلة فى مكان المشـــفر ونظائره التى قدمت ذكرها فى الاستعارة[1] ، وأضنّ باسمها أن يقع عليه ، ولـكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها ، فـكرهت التشدد فى الخلاف واعتددت به فى الجملة ؛ ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة ، وكان وزان ذلك أن يقـال المفعول على ضربين ، مفعول صحيح ومشبه بالمفعول ، فيتجوز باعتداد المشبه بالمفعول فى الجملة ثم يفصل بالوصف ، ووجه شبه هذا النحو الذى هو نقل الشفة إلى موضع الجحفلة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم إلى مجانس له ، ألا ترى أن المراد بالشفة والجحفلة عضو واحد ، وإنما الفرق أن هذا من الفرس وذاك من الإنسان ، والمجانسة والمشابهة من واد واحد ، فأنت تقول : أعير الشيء اسم الموضوع له هنالك (أى فى الانسان) ههنـا (أى فى الفرس)

(١) قوله « فى الاستعارة » متعلق بأعد أو بذكرها ويكون ما يتعلق بأعد محذوفا مثل المذكور .

لأن أحدهما مثل صاحبه وشريكه في جنسه كما أعرت الرجل اسم الأسد لأنه شاركه في صفته الخاصة به وهي الشجاعة البليغة وليس لليد مع النعمة هذا الشبه إذ لا مجانسة بين الجارحة وبين النعمة ، وكذا لا شبه ولا جنسية بين البعير ومتاع البيت وبين المزادة وبين البعير ، ولا بين العين وبين جملة الشخص فإطلاق اسم الاستعارة عليه بعيد ولو كان اللفظ يستحق الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن توصف الأسماء المنقولة من الأجناس إلى الأعلام بأنها مستعارة فيقال حجر مستعار في اسم الرجل ولزم لذلك في الفعل المنقول نحو يزيد ويشكر وفي الصوت نحو « ببه » في قوله :

لأنكحنَّ ببه جارية خِدَبَّه[1]
مكرَّمة محبَّبه تجب أهل الكعبة

وذلك ارتكاب قبيح وفرط تعصب على الصواب ويلوح ههنا شيء وهو أنا وإن جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا اسم مستعار وهذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك ، فإنا على ذلك نشير بها إلى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن نثبت أخص معانيه المستعار له ، يدلك على ذلك قولنا : جعله أسداً وجعله بدراً وجعل للشمال يدا ، فلولا ، أن استعارة الاسم للشيء تتضمن استعارة معناه له لما كان لهذا الكلام معنى لأن جعل لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشيء كقولنا : جعلته أميراً وجعلته لصاً تريد أنه أثبت له الإمارة واللصوصية ، وحكم جعل إذا تعدى إلى مفعولين حكم صير فكما لا تقول صيرته أميراً إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة

(١) ببة حكاية صوت صبي . وهو لقب عبد الله بن الحارث . وقد قالت والدته هند بنت أبي سفيان وهي ترقصه « لأنكحن ببه » الخ والخدبة السمينة . « وتجب أهل الكعبة » معناه المراد تغلب نساء قريش في حسنها .

كذلك لم يقل : جعلته أسداً ، إلا على أنه أثبت له معنى من معانى الأسود ولا يقال : جعلته زيداً ، بمعنى سميته زيداً ، ولا يقال للرجل : اجعل ابنك زيداً ، بمعنى سمه زيداً ، ولا يقال لفلان ابن فجعله زيداً[1] أى سماه زيداً وإنما يدخل الغلط فى ذلك على من لا يحصل هذا الشأن .

فأما قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) فإنما جاء على الحقيقة التى وصفتها وذلك أنهم أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم ، وهذا الاعتقاد صدر عنهم لتمثلها فى أذهانهم بصور الإناث وما صدر من الاسم أعنى إطلاق اسم البنات . وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الإناث أو لفظ البنات اسما من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة ، هذا محال لا يقوله عاقل ، أو ما يسمعون قول الله عز وجل (أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسئلون) فإن كانوا لم يزيدوا على إجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات صفة ومعنى فأى معنى لأن يقال : (أشهدوا خلقهم) — هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات صفة ولم يفعلوا أكثر من أن وضعوا اسما لما استحقوا إلا اليسير من الذم ، ولما كان هذا القول كفراً منهم ، والأمر فى ذلك أظهر من أن يخفى ، ولكن قد يكون للشىء المستحيل وجوه فى الاستحالة فتذكر كلها وإن كان فى الواحد منها ما يزيل الشبهة ويتم الحجة .

---

(١) لعل أصله : ولد لفلان ابن الخ ليكون فجعله معطوفاً على ولد والا تصل جعله

فصـــــل

« فى تقسيم المجاز إلى اللغوى والعقلى »

« واللغوى إلى الاستعارة وغيرها »

واعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : اليد مجاز فى النعمة ، والأسد مجاز فى الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذى وقعت له ابتداء فى اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيهاً و إما لصـلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الـكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هى جمل لا يصح ردها إلى اللغة ولا وجه لنسبتها إلى واضعها لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شىء يحصل بقصد المتكلم فلا يصير ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له .

وهكذا « ليضرب زيد » لا يكون أمراً لزيد باللغة ولا (اضرب) أمراً للرجل الذى تخاطبه وتقبل عليه من بين كل من يصح خطابه باللغة بل بك أيها المتكلم ، فالذى يعود إلى واضع اللغة أن ضرب لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته فى زمان ماض وليس لإثباته فى زمان مستقبل ، فأما تعين من يثبت له فيتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين والمعبرين عن ودائع الصدور ، والكاشفين عن المقاصد والدعاوى صادقة كانت تلك الدعاوى

أو كاذبة ، ومجراة على صحتها ، أو مزالة عن مكانها من الحقيقة وجهتها ، ومطلقة بحسب ما تأذن فيه العقول وترسمه ، أو معدولا بها عن مراسمها نظما لها في سلك التخييل ، وسلوكا بها في مذهب التأويل .

فإذا قلنا مثلا : خط أحسن مما وشاه الربيع أو صنعه الربيع ، كنا قد ادعينا في ظاهر اللفظ أن للربيع فعلا أو صنعا وأنه شارك الحي القادر في صحة الفعل منه ، وذلك تجوز به من حيث المعقول لا من حيث اللغة ، لأنه إن قلنا إنه مجاز من حيث اللغة صرنا كأنا نقول إن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعل بالحي القادر دون الجماد ، وإنها لو حكمت بأن الجماد يصح منه الفعل والصنع والوشي والتزيين ، والصبغ والتحسين ، لكان ما هو مجاز الآن حقيقة ولعاد ما هو الآن يتأول ، معدوداً فيما هو حق محصل ، وذلك محال . وإنما يتصور مثل هـذا القول في الكلم المفردة نحو اليد للنعمة وذلك أنه يصح أن يقال لو كان واضع اللغة وضع اليد أولا للنعمة ثم عداها إلى الجارحة لكان حقيقة فيما هو الآن مجاز ومجازاً فيما هو حقيقة ، فلم يكن بواجب من جهة المعقول أن يكون لفظ اليـد اسما للجارحة دون النعمة ، ولا في العقل أن شيئا بلفظ أن يكون دليلا عليه أولى منه بلفظ ، لا سيما في الأسماء الأول التي ليست بمشتقة . وإنما وزان ذلك وزان أشكال الخط التي جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعة في أنه لا يتصور أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع وتواضع اتفق . ولو كان كذلك لم تختلف المواضعات في الألفاظ والخطوط ، ولكانت اللغات واحدة ، كما وجب في عقل كل عاقل يحصل ما يقول أن لا يثبت الفعل على الحقيقة إلا للحي القادر .

فإن قلت فإن اللغة رسمت أن يكون « فعلَ » لإثبات الفعل للشيء

كما زعمت ولكننا إذا قلنا : فعل الربيع الوشيَ أو وشي الربيع . فإننا نريد بذلك معنى معقولا وهو أن الربيع سبب فى كون الأنوار التى تشبه الوشى[١] فقد نقلنا الفعل عن حكم معقول وضع له إلى حكم آخر معقول شبيه بذلك الحكم ، فصار ذلك كنقل الأسد عن السبع إلى الرجل الشبيه به فى الشجاعة أفتقول : الأسد على الرجل مجاز من حيث المعقول لا من حيث اللغة كما قلت فى صيغة فعل إذا أسندت إلى مالا يصح أن يكون له فعل : إنها مجاز من جهة العقل لا من جهة اللغة ؟ فالجواب أن بينهما فرقاً وإن ظننتهما متساويين . وذلك أن « فَعلَ » موضوع لإثبات الفعل للشيء على الإطلاق والحكم فى بيان من يستحق هذا الإثبات وتعيينه إلى العقل ، وأما الأسد فموضوع للسبع قطعاً واللغة هى التى عينت المستحق بها وبرسمها وحكمها ثبت هذا الاستحقاق والاختصاص ، ولولا نصها لم يتصور أن يكون هذا السبع بهذا الاسم أولى من غيره . فأما استحقاق الحى القادر أن يثبت الفعل له واختصاصه بهذا الإثبات دون كل شيء سواه فبفرض العقل ونصه لا باللغة فقد نقلت الأسد عن شيء هو أصل فيه باللغة لا بالعقل . وأما فعل فلم تنقله عن الموضع الذى وضعته اللغة فيه لأنه كما مضى موضوع لإثبات الفعل للشيء فى زمان ماض وهو فى قولك « فعل الربيع » باق على هذه الحقيقة غير زائل عنها ولن يستحق اللفظ الوصف بأنه مجاز حتى يجرى على شيء لم يوضع له فى الأصل . وإثبات الفعل لغير مستحقه ولما ليس بفاعل على الحقيقة لايخرج فَعلَ عن أصله ولا يجعله جارياً على شيء لم يوضع له لأن الذى وضع له فَعلَ هو إثبات الفعل للشيء فقط وأما وصف

---

(١) أى سبب فى وجودها .

ذلك الشيء الذى يقع هذا الإثبات له لخارج عن دلالته وغير داخل فى الموضع اللغوى بل لا يجوز دخوله فيه لما قدمت من استحالة أن يقال إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد وما فى ذلك من الفساد العظيم فاعرفه فرقاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً .

وههنا نكتة جامعة وهى أن المجاز فى مقابلة الحقيقة فما كان طريقاً فى أحدهما من لغة أو عقل فهو طريق فى الآخر . ولست تشك فى أن طريق كون الأسد حقيقة فى السبع اللغة دون العقل وإذا كانت اللغة طريقاً للحقيقة فيه وجب أن تكون هى أيضاً الطريق فى كونه مجازاً فى المشبه بالسبع إذا أنت أجريت اسم الأسد عليه فقلت : رأيت أسداً ، تريد رجلا لا تميزه عن الأسد فى بسالته وإقدامه وبطشه . وكذلك إذا علمت أن طريق الحقيقة فى إثبات الفعل للشيء هو العقل فينبغى أن تعلم أنه أيضاً الطريق إلى المجاز فيه . فكما أن العقل هو الذى دلك حين قلت : « فعل الحى القادر » أنك لم تتجوز وأنك واضع قدمك على محض الحقيقة كذلك ينبغى أن يكون هو الدال والمقتضى إذا قلت « فعل الربيع » أنك قد تجوزت وزلت عن الحقيقة فاعرفه .

فإن قال قائل : كان سياق هذا الكلام وتقريره يقتضى أن طريق المجاز كله العقل وأن لا حظ للغة فيه ، وذاك أنا لا نجرى اسم الأسد على المشبه بالأسد حتى ندعي له الأسدية وحتى نوهم أنه حين أعطاك من البسالة والبأس والبطش ما تجده عند الأسد صار كأنه واحد من الأسود قد استبدل بصورته صورة الإنسان . وقد قدمت أنت فيما مضى ما بين أنك لا تتجوز فى إجراء اسم المشبه به على المشبه حتى تخيل إلى نفسك أنه هو بعينه

فإذا كان الأمر كذلك فأنت فى قولك : رأيت أسداً . متجوز من طريق المعقول ، كما أنك كذلك فى فعل الربيع . وإذا كان كذلك عاد الحديث إلى أن المجاز فيهما جميعاً عقلى فكيف قسمته قسمين لغوى وعقلى ؟

فالجواب أن هذا الذى زعمت من أنك لا تجرى اسم المشبه به على المشبه حتى تدعى أنه قد صار من ذلك الجنس بحو أن تجعل الرجل كأنه فى حقيقة الأسد — صحيح كما زعمت لا يدفعه أحد ، وكيف السبيل إلى دفعه وعليه المعول فى كون التشبيه على حد المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل . إلا أن ههنا نكتة أخرى قد أغفلتها وهى أن تجوزك هذا الذى طريقه العقل يفضى بك إلى أن تجرى الاسم على شىء لم يوضع له فى اللغة على كل حال فتتجوز بالاسم على الجملة الشىء الذى وضع له فمن ههنا جعلنا اللغة طريقاً فيه .

فإن قلت : لا أسلم أنه جرى على شىء لم يوضع له فى اللغة لأنك إذا قلت لا تجربه على الرجل حتى تدعى له أنه فى معنى الأسد لم تكن قد أجريته على مالم يوضع له . وإنما كان يكون جاريا على غير ما وضع له أن لو أجريته على شىء لتفيد به معنى غير الأسدية ، وذلك مالا يعقل ، لأنك لا تفيد بالأسد فى التشبيه أنه رجل مثلا أو عاقل أو على وصف لم يوضع هذا الاسم للدلالة عليه البتة — قيل لك ، قصارى حديثك هذا انا أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبه بالأسد على طريق التأويل والتخيل ، أفليس على كل حال قد أجريناه على ما ليس بأســـد على الحقيقة ؟ وألسنا[1] قد

---

(١) القاعدة أن يقال « أولسنا » لأن أداة الاستفهام لها الصدارة فهو كقوله : أفليس الخ وما أرى سكوت شيخنا عن تصحيحها إلا سهواً ؟ لا لوجه رآه ككون اللفظ محكياً أو فى معنى المحكى كقوله الآنى : وأهو مستحق الخ

جعلنا له مذهباً لم يكن له فى أصل الوضع ، وهنا قد ادعينا للرجل الأسدية حتى استحق بذلك أن نجرى عليه اسم الأسد . أترانا نتجاوز فى هذه الدعوى حديث الشجاعة حتى يدعى الرجل صورة الأسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه الظاهرة البادية للعيون ؟ ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمكنها فإن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها ، بل لها فى مثل تلك الجثة ، وهاتيك الصورة والهيبة ، وتلك الأنياب والمخالب — إلى سائر ما يعلم من الصورة الخاصة فى جوارحه كلها . ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التى تعرفها وحدها لكان صفة لا اسما ، ولكان كل شىء يفضى فى شجاعته إلى ذلك الحد مستحقاً للاسم استحقاقاً حقيقياً لا على طريق التشبيه والتأويل .

وإذا كان كذلك فانا وإن كنا لم ندل به على معنى لم يتضمنه اسم الأسد فى أصل وضعه فقد سلبناه بعض ما وضع له وجعلناه للمعانى التى هى باطنة فى الأسد وغريزة وطبع به وخلق مجردة عن المعانى الظاهرة التى هى جثة وهيئة وخلق ، وفى ذلك كفاية فى إزالته عن أصل وضع له فى اللغة ونقله عن حد جريه فيه إلى حد آخر مخالف له . وليس فى فعل إذا تجوّز فيه شىء من ذلك ، لأنا لم نسلبه لا بالتأويل ولا غير التأويل شيئاً وضعته اللغة لأنه كما ذكرتُ غير مرة لإثبات الفعل للشىء من غير أن يتعرض لذلك الشىء ما هو وأهو مستحق لأن يثبت له الفعل أو غير مستحق ، وإذا كان كذلك كان الذى أرادت اللغة به موجوداً فيه ثابتاً له فى قولك « فعل الربيع » ثبوته إذا قلت « فعل الحى القادر » لم تتغير له صورة ولم ينقص منه شىء ولم يزل عن حد إلى حد فاعرفه .

فإن قلت : قد علمنا أن طريق المجاز ينقسم إلى ما ذكرت من اللغة

والمعقول وأن « فعل » فى نحو فعل الربيع مما طريقه المعقول ، وأن نحو الأسد إذا قصد به التشبيه واستعير لغير السبع طريق مجازه اللغة وبقى أن تعلم لم خصصت المجاز إذا كان طريقه العقل بأن توصف به الجملة من الكلام دون الكلمة الواحدة ؟ وهلا جوزت أن يكون فعلَ على الانفراد موصوفا به ؟ فإن سبب ذلك أن المعنى الذى له وضع فعلَ لا يتصور الحكم عليه بمجاز أو حقيقة حتى يسند إلى الاسم وهكذا كل مثال من أمثلة الفعل لأنه موضوع لإثبات الفعل للشيء فما لم يبين ذلك الشيء الذى نثبته له ونذكره لم يعقل أن الإثبات واقع موقعه الذى نجده مرسوماً به فى صحف العقول أم قد زال عنه وجازه إلى غيره — هذا وقولك « هلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفاً به » ومحال بعد أن نثبت أن لا مجاز فى دلالة اللفظ وإنما المجاز فى أمر خارج عنه .

فإن قلت : أردت هلا جوزت أن تنسب المجاز إلى معناه وحده وهو إثبات الفعل فيقال هو إثبات فعل على سبيل المجاز — فإن ذلك لا يتأتى أيضاً إلا بعد ذكر الفاعل لأن المجاز أو الحقيقة إنما يظهر ويتصور من المثبت والمثبت له والإثبات . وإثبات الفعل من غير أن يقيد بما وقع الإثبات له لا يصح الحكم عليه بمجاز أو حقيقة فلا يمكنك أن تقول : إثبات الفعل مجاز أو حقيقة — هكذا مرسلا وإنما تقول : إثبات الفعل للربيع مجاز وإثباته للحى القادر حقيقة .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً وحقيقة من طريق العقل إلا فى جملة من الكلام . وكيف يتصور خلاف ذلك ووزان الحقيقة والمجاز العقليين وزان الصدق والكذب ، فكما يستحيل

وصف الكلم المفردة بالصدق والكذب وأن يجرى ذلك فى معانيها مفرقة غير مؤلفة فيقال « رجل — على الانفراد — كذب أو صدق » كذلك يستحيل أن يكون ههنا حكم بالمجاز أو الحقيقة وأنت تنحو نحو العقل إلا فى الجملة المفيدة فاعرفه أصلا كبيراً ، والله الموفق للصواب والمسئول أن يعصم من الزلل بمنه وفضله .

فصل

« فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا »

واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها . ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو (واسأل القرية) والأصل واسأل أهل القرية . فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطؤهم الطريق » يريدون أهل الطريق ، الرفع فى الطريق مجاز لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذى هو الأهل والذى يستحقه فى أصله هو الجر .

ولا ينبغى أن يقال إن وجه المجاز فى هذا الحذفُ ، فإن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام ما بقى بعد الحذف لم يسم مجازاً ألا ترى أنك تقول : زيد منطلق وعمرو . فتحذف الخبر ثم لاتوصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز ، وذلك لأنه لم يؤد إلى تغيير حكم فيما بقى من الكلام ، ويزيده تقريرا أن المجاز إذا كان معناه أن تجوز بالشىء موضعه وأصله فالحذف بمجرده لا يستحق الوصف به لان ترك الذكر وإسقاط

الكلمة من الكلام لا يكون نقلا لها عن أصلها إنما يتصور النقل فيما دخل تحت النطق .

وإذا امتنع أن يوصف المحذوف بالمجاز نفى القول فيما لم يحذف ، وما لم يحذف ودخل تحت الذكر لايزول عن أصله ومكانه حتى يغير حكم من أحكامه أو يغير عن معانيه ، فأما وهو على حاله[1] والمحذوف مذكور فتوهم ذلك فيه من أبعد المحال فاعرفه .

وإذا صح امتناع أن يكون مجرد الحذف مجازاً أو تحقّ صفة باقى الكلام بالمجاز من أجل حذف كان على الإطلاق دون أن يحدث هناك بسبب ذلك الحذف تغير حكم على وجه من الوجوه — علمت منه أن الزيادة فى هذه القضية كالحذف فلا يجوز أن يقال إن زيادة (ما) فى نحو « فبما رحمة » مجاز أو أن جملة الكلام تصير مجازاً من أجل زيادته فيه . وذلك أن حقيقة الزيادة فى الكلمة أن تعرى من معناها وتذكر ولا فائدة لها سوى الصلة ويكون سقوطها وثبوتها سواء ، ومحال أن يكون ذلك مجازاً لأن المجاز أن يراد بالكلمة غير ماوضعت له فى الأصل أويزاد فيها أو يوهم شىء ليس من شأنها ، كإيهامك بظاهر النصب فى القرية أن السؤال واقع عليها . والزائد الذى سقوطه كثبوته لايتصور فيه ذلك .

فأما غير الزائد من أجزاء الكلام الذى زيد فيه فيجب أن ينظر فيه فإن حدث هناك بسبب ذلك الزائد حكم تزول به الكلمة عن أصلها جاز حينئذ أن يوصف ذلك الحكم أو ماوقع فيه بأنه مجاز ، كقولك فى نحو قوله تعالى (ليس كمثله شىء) إن الجر فى المثل مجاز لأن أصله النصب

---

(١) أى على حاله قبل أن يحذف المحذوف (ش)

والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف . ولو كانوا إذ جعلوا الكاف مزيدة لم يعملوها لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام . ويزيده وضوحا أن الزيادة على الإطلاق لو كانت تستحق الوصف بأنها مجاز ينبغى أن يكون كل ماليس بمزيد من الكلم مستحقاً الوصف بأنه حقيقة حتى يكون الأسد فى قولك رأيت أسداً — وأنت تريد رجلا — حقيقة . فإن قلت : المجاز على أقسام والزيادة من أحدها . قيل : هذا لك إذا حددت المجاز بحد تدخل الزيادة فيه ، ولاسبيل لك إلى ذلك لأن قولنا « المجاز » يفيد أن تجُوز بالكلمة موضعها فى أصل الوضع وتنقلها عن دلالة إلى دلالة أو ما قارب ذلك .

وعلى الجملة فإنه لايعقل من المجاز أن تسلب الكلمة دلالتها ثم لاتعطيها دلالة أخرى وأن تخليها من أن يراد بها شيء على وجه من الوجوه ووصف اللفظ بالزيادة يفيد أن لايراد بها معنى وأن يجعل كأن لم يكن لها دلالة قط .

فإن قلت : أو ليس يقال إن الكلمة لا تعرى من فائدة ما ولا تصير لغواً على الإطلاق حتى قالوا إن نحو (ما) فى نحو « فبما رحمة من الله » تفيد التوكيد ؟ فأنا أقول : إن كون (ما) تأكيدا نقل لها عن أصلها ومجاز فيها . وكذلك أقول إن كون الباء المزيدة فى « ليس زيد بخارج » لتأكيد النفى مجاز فى الكلمة لأن أصلها أن تكون للالصاق — فإن ذلك على بعده لايقدح فيما أردت تصحيحه لأنه لايتصور أن تصف الكلمة من حيث جعلت زائدة بأنها مجاز ومتى ادعينا لها شيئا من المعنى فإننا نجعلها من تلك الجهة غير مزيدة ، ولذلك يقول الشيخ أبو على فى الكلمة إذا كانت تزول عن أصلها من وجه ولاتزول من آخر « معتد بها من

وجه غير معتد بهـا من وجه » . كما قال فى اللام من قولهم : « لا أبا لزيد » جعلها من حيث منعت أن يتعرف الأب بزيد معتداً بها ، ومن حيث عارضها لام الفعل[١] من الأب التى لا تعود إلا فى الإضافة ، نحو : أبو زيد وأبا زيد ، غير معتد بها ، وفى حكم المقحمة الزائدة ، وكذلك توصف (لا) فى قولنا : « مررت برجلٍ لا طويل ولا قصير » بأنها مزيدة ولـكن على هذا الحد ، فيقال هى مزيدة غير معتـد بها من حيث الإعراب[٢] ، ومعتد بها من حيث أوجبت نفى الطول والقصر عن الرجل ، ولولاها لـكانا ثابتين له . وتطلق الزيادة على (لا) فى نحو قوله تعالى : (لئلا يعلم أهل الـكتاب أن لا يقدرون) . لأنها لا تفيد النفى فيما دخلت عليه ، ولا يستقيم المعنى إلا على إسقاطها ، ثم إن قلنا إن (لا) هذه المزيدة تفيد تأكيد النفى الذى يجىء من بعد فى قوله : (أن لا يقدرون) وتؤذن به ، فإنا نجعلها من حيث أفادت هذا التأكيد غير مزيدة ، وإنما نجعلها مزيدة من حيث لم تفد النفى الصريح فيما دخلت عليه كما أفادته فى المسألة[٣] .

وإذا ثبت أن وصف الـكلمة بالزيادة نقيض وصـفها بالإفادة علمت أن الزيادة من حيث هى زيادة لا توجب الوصف بالمجاز . فإن قلت : تـكون سبباً لنقل الـكلمة عن معنى هو أصل فيها إلى معنى ليس بأصل — كدت تقول قولا يجوز الإصغاء إليه وذلك إن صح ، نظير ما قدمت من أن الحذف

---

(١) أى التى تظهر فى الفعل فى نحو أبوت وأبيت أى صرت أباً وأبوته إباوة بالـكسر صرت له أباً

(٢) أى لأن الوصفين مجروران على النعت بدون دخل لا

(٣) حقق الأستاذ فى الدرس أن (لا) فى (لئلا يعلم أهل الـكتاب) من آخر سورة الحديد أصلية أى يمنحكم الله ما ذكر فى الآية قبلها بالتقوى والإيمان بالرسول لتـكون العاقبة عدم علم أهل الـكتاب (أن لا يقدرون على شىء من فضل الله) .

أو الزيادة قد تكون سببا لحدوث حكم فى الكلمة تدخل من أجله فى المجاز كنصب القرية فى الآية وجر المثل فى الأخرى فاعرفه .

واعلم أن من أصول هذا الباب أن من حق المحذوف أو المزيد أن ينسب إلى جملة الكلام لا إلى الكلمة المجاورة له ؛ فأنت تقول إذا سئلت عن القرية : فى الكلام حذف والأصل أهل القرية ثم حذف الأهل ، يعنى حذف من بين الكلام . وكذلك تقول : الكاف زائدة فى الكلام والأصل ليس مثله شىء ، ولا تقل هى زائدة فى « مثل » إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقال إن (ما) فى « فبما رحمة » مزيدة فى الرحمة أو فى الباء ، وإن (لا) مزيدة فى (يعلم) وذلك بيِّن الفساد ، لأن هذه العبارة إنما تصلح حيث يراد أن حرفا زيد فى صيغة اسم أو فعل على أن لا يكون لذلك الحرف على الانفراد معنى ولا تعده وحده كلمة ، كقولك : زيدت الياء للتصغير فى قولك رجيل والتاء للتأنيث فى ضاربة . ولو جاز غير ذلك لجاز أن يكون خبر المبتدأ إذا حذف فى نحو : « زيد منطلق وعمرو » . محذوفاً من المبتدأ نفسه على حد حذف اللام من يدٍ ودَم ؛ وذلك ما لا يقوله عاقل ، فنحن إذا قلنا إن الكاف مزيدة فى « مثل » فإنما نعنى أنها لما زيدت فى الجملة وضعت فى هذا الموضع منها . والأصح فى العبارة أن يقال : الكاف فى (مثل) مزيدة يعنى الكاف الكائنة فى مثل مزيدة كما تقول : الكاف التى تراها فى مثل مزيدة ، ولذلك تقول : حذف المضاف من الكلام ولا تقول : حذف المضاف من المضاف إليه ، وهذا أوضح من أن يخفى ولكنى استقصيته لأنى رأيت فى بعض العبارات المستعملة فى المجاز والحقيقة ما يوهم ذلك فاعرفه .

ومما يجب ضبطه هنا أيضاً ، أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى

يدعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين :

(أحدهما) أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم ومثاله الآيتان المتقدم تلاوتهما ، ألا ترى أنك لو رأيت « سل القرية » فى غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفاً ، لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً ومذكراً أو لنفسه متعظاً معتبراً : سل القرية عن أهلها وقل لها ما صنعوا . على حد قولهم : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وكذلك إن سمعت الرجل يقول ليس كمثل زيد أحد . لم تقطع بزيادة الكاف وجوزت أن يريد ليس كالرجل المعروف بمماثلة زيد أحد .

(والوجه الثانى) أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بحذف أو بزيادة من أجل الكلام نفسه لا من حيث غرض المتكلم به ، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزئى الجملة كالمبتدإ فى نحو قوله تعالى « فصبر جميل » وقوله « متاع قليل » لابد من تقدير محذوف ولا سبيل إلى أن يكون له معنى دونه سواء كان فى التنزيل أو فى غيره فإذا نظرت إلى « صبر جميل » فى قول الشاعر :

يشكو إلى جملى طول السرى ... صبر جميل فكلانا مبتلى

وجدته يقتضى تقدير محذوف كما اقتضاه فى التنزيل ، وذلك أن الداعى إلى تقدير المحذوف ههنا هو أن الاسم الواحد لا يفيد والصفة والموصوف حكمهما حكم الاسم الواحد ، وجميل صفة للصبر . وتقول للرجل : من هذا ؟ فيقول : زيد ، يريد هو زيد ، فتجد هذا الإضمار واجباً لأن الاسم الواحد

لا يفيد ، وكيف يتصور أن يفيد الاسم الواحد ومدار الفائدة على إثبات أو نفى وكلاهما يقتضى شيئين : مثبت ومثبت له ومنفى ومنفى عنه .

وأما وجوب الحكم بالزيادة لهذه الجهة فكنحو قولهم : بحسبك أن تفعل وكفى بالله . إن لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وجهاً تصرفه إليه وتأويلا تتأوله عليه البتة ، فلا بدلك من أن تقول : إن الأصل حسبك أن تفعل وكفى الله . وذلك أن الباء إذا كانت غير مزيدة كانت لتعدية الفعل إلى الاسم وليس فى « بحسبك أن تفعل » تعدية بالباء إلى حسبك . ومن أين أن يتصور أن يتعدى إلى المبتدأ فعل والمبتدأ هو المعرى من العوامل اللفظية ؟ وهكذا الأمر فى « كفى » أو أقوى ، وذلك أن الاسم الداخل عليه الباء فى نحو « كفى بزيد » فاعل كفى ، ومحال أن تعدى الفعل إلى الفاعل بالباء أو غير الباء ، فنى الفعل من الاقتضاء للفاعل ما لا حاجة معه إلى متوسط وموصل وممد فاعرفه ، والله أعلم بالصواب .

(تم الكتاب والحمد لله)

فهرس مباحث كتاب أسرار البلاغة

صفحة

صفحة







